دراسات في

# التفسير الموضوعي

## للقرآن الكريم



الطبعة الرابعة

الدكتور . زاهر بن عواض الألمعي

# دراسات في
# التفسير الموضوعي
# للقرآن الكريم

تأليف

الدكتور/ زاهر بن عوّاض الألمعي

ⓗ زاهر بن عواض بن محمد الألمعي ، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الألمعي ، زاهر عواض
دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم / زاهر عواض
الألمعي – ط٤ – الرياض ، ١٤٢٨هـ
٤٢٠ ص ؛ ١٧ X ٢٤ سم
ردمك : ٨ – ٢٤٩ – ٥٧ – ٩٩٦٠
١– القرآن – التفسير الموضوعي أ– العنوان
ديوي ٢٢٧,٧ ١٠٣٢/ ١٤٢٨

رقم الايـداع: ١٠٣٢/ ١٤٢٨
ردمك: ٨-٢٤٩-٥٧-٩٩٦٠



الطبعة الرابعة
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م


بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله العلي القدير والصلاة والسلام على البشير النذير نبينا محمد وعلى آله وصحبه وبعد:

فهذه الطبعة الرابعة لكتابي [دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم] أقدمها للقارئ الكريم في وضعها الجديد.

ومما شجعني على إعادة طباعة هذا الكتاب ـ بعد نفاد الطبعة الثالثة ـ رغبات بعض دور النشر في توفير كميات مناسبة من نسخه في المكتبات الوطنية ـ ولعل الإقبال عليه يرجع إلى مادته العلمية التخصصية في الدراسات العليا، وبعض الكليات في المستويات الجامعية؛ لسهولة عباراته، وتقسيماته الواضحة، وعدم التعقيدات في طرح القضايا العلمية ومناقشاتها، بل يجري ذلك في أسلوب هادئ وبيان واضح.

وجهدي في هذه الطبعة الرابعة، يتمثل في استدراك ما وقع في الطبعات السابقة من أخطاء مطبعية، مع إضافات يسيرة، كتخريج بعض الآثار التي سقطت في الطبعات السابقة. وفق الله الجميع لما يحب ويرضى وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

**المؤلف**

**الرياض في :١٥/٢/١٤٢٨هـ**

# مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله العلي القدير والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي البشير وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، ورضي الله عنهم وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين . . أما بعد:

فإن القرآن الكريم مصدر الهدى والشفاء للناس عامة ، وللمؤمنين خاصة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]، وهو الكتاب الجامع لأصول الدين وفروعه، نصاً أو استنباطاً ، عقيدة وشريعة ونظام حياة. . . أودع الله فيه من كنوز المعرفة، وأصول العدل، ومناهج الخير ما يُسعد الإنسانية، ويفتح أمامها آفاقاً رحبةً في عمارة الكون، والتعارف والتعامل في ظل دستور قرآني خالد يرعى الحقوق، ويصون المواثيق والعهود، ويبشر الإنسانية المؤمنة بحسن مصيرها في الدار الآخرة إذا هي آمنت بالله واهتدت بهداه ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[٢] . وقد اهتم علماء المسلمين بتفسير كتاب الله، واستنباط أحكامه وهداياته؛ ففتح الله لهم من أسرار هذا الكتاب الكريم علوماً جمةً ، وآفاقاً رحبةً ، في جميع جوانب الكون، ووجوه النشاط في الحياة؛ فهو كتاب علم وهداية، ومنهاج تربية وحضارة.

---

(١) سورة يونس الآية: ٥٧ .

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٧ .

وعندما طُلب إليَّ أن أقوم بتدريس مادة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، لطلاب الدراسات العُليا بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وجدتها فرصة طيبة أن أقوم قدر طاقتي المحدودة بجمع المادة العلمية حسب المنهاج المقرر.

وحينما بدأت في البحث واستجلاء جوانب الموضوعات، تبيّن لي أن المكتبة الإسلامية تفتقر إلىٰ شيءٍ اسمه التفسير الموضوعي؛ إذ لا يوجد في القديم أو الحديث ـ فيما أعلم ـ هذا اللون من التفسير، اللهم إلا شذرات متفرقة هنا وهناك؛ لأن المفسرين للقرآن الكريم كان تفسيرهم ـ غالباً ـ مُنصبّاً علىٰ جميع آيات القرآن وسوره حسب ترتيب المصحف، وماكتبه العلماء القدامىٰ والمحدثون مثل الإعجاز، والناسخ والمنسوخ، والجدل، وأسباب النزول، فهي من مباحث علوم القرآن وليست تفسيراً موضوعياً وإن كان لها صلة بالتفسير الموضوعي من بعض الوجوه.

لهذا رأيت أن أقوم بدراسة لهذا اللون من التفسير، أتناول فيها نشأته وتطوره، وأبحث القضايا الكلية كأصول الإيمان، والشرائع، والأخلاق في القرآن الكريم، والتنزيل المكيّ والمدني، وأثر كل منهما في سير الدعوة وبناء المجتمع، وترابط الآيات والسور في وحدتها الموضوعية، واختيار بعض السور القرآنية نماذج لهذه الدراسة الموضوعية، مع تفسير بعض الموضوعات الواردة في القرآن الكريم تفسيراً موضوعياً، والله أسأل أن يجعل العمل خالصاً لوجهه الكريم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

**د. زاهر بن عوّاض الألمعي**

**الرياض في: ١/١/١٤٠٤هـ**

مدخـل إلى :

# التفسيرالموضوعي

### (أ) معنى التفسير الموضوعي :

التفسـير : هو الكشـف والبيان، يقال : أسفـر الصبح لذي عينين أي بان ووضح . وفي الشـرع : هو الكـشف عن مـعـاني آيات القـرآن الكريم والغـوص في أعـمـاقها للوصـول إلى مـراد الله تعـالى منهـا بقـدر الطاقة البشرية .

**وموضوعي:** نسبة إلى موضوع ، فيقال مثلاً : البر في القرآن الكريم ، القيـامة والجزاء في القرآن الكريم ، الإحسـان إلى الوالديـن في القـرآن الكريم ، وهكذا .

**فالتفسـير الموضوعي:** هو جـمع الآيات القرآنيـة التي تتحـدث عن موضـوع واحد ، مشـتـركة في الـهدف ، وترتيـبـهـا على حسب النزول ـ كلما أمكن ذلك ـ ثم تناوله بالشرح ، والتـفصيل ، وبيان حكمـة الشارع في شرعه وقوانينه ، مع الإحاطة التـامة بكل جـوانب الموضوع كـما ورد في القـرآن الكريم ، والكشف عـمّا يمكن أن يـكون قد أثير حـوله من شبه الضالين والملحدين من أعداء الدين .

وقـد اشتـمل القرآن الكريم على كثير من المباحث ، والموضوعات المتنوعـة التي تخـدم الفـرد والمجتـمع المسلم القـوي ، وتدفع بالجـميع إلى حـيـاة أفـضل ، هدفـهـا نـشـر الدين ، وإعـلاء كـلمـة الله ، ثم الجـزاء بالحـسنى ، والزيـادة عند لقيا الله عز وجل في الآخرة .

والتفسير الموضوعي تقسيم لآيات القرآن الكريم إلى مجموعات، كل مجموعة منها تندرج تحت عنوان يشملها جميعاً، هذه الآيات المتفرقة تكون بحثاً مستقلاً متميزاً عن غيره، ذات موضوع واحد، وهدف واحد(١).

**والتفسير الموضوعي:** يطلق ويراد به أمران بينهما ارتباط من بعض الوجوه:

**الأول:** جمع الأشباه والنظائر في القرآن الكريم حسب مادة الكلمة اللغوّية، ثم ترتيبها ترتيباً معجمياً، وذلك كما صنع الفقيه الدامغاني في كتابه (إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) وكان يسميه أحياناً (قاموس القرآن).

وقريب منه كتاب (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز) للفيروز آبادي.

ومن العلماء من لا يتقيد بالترتيب الهجائي للمفردات، كماصنع مقاتل بن سليمان البلخي، المتوفى (١٥٠هـ)، في كتابه (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم) مثل كلمة «الاستغفار»، فقد وردت في القرآن على ثلاثة أوجه، أتى بعدها بكلمة (الدين)، فوردت على خمسة أوجه، ثم ذكر (الحس) ووردت على أربعة أوجه(٢)، وهكذا دون ترتيب أبجدي.

---

(١) انظر التفسير الموضوعي للدكتور/ محمد القاسم، ص ٧ ـ ٨.

(٢) انظر الأشباه والنظائر لمقاتل، ص ١٣٢ ـ ١٣٥.

ـ وقريب منه أيضاً ـ ابن الجوزي ـ المتوفى (٥٩٧هـ)، في كتابه القيّم (نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر).

ـ كذا ـ ابن العماد المتوفى (٨٨٧هـ)، في كتابه (كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر)، وغيرهم ممن تحدث عن الأشباه والنظائر في القرآن الكريم.

**الثاني:**

ـ ذكر الموضوع، ثم جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن مما لها علاقة به، سواء اشتركت معه في اللفظ أو المعنى أو ارتبطت بالموضوع ارتباطاً قوياً ولو من بعض الوجوه، وذلك مثل موضوع: «المرأة في القرآن الكريم» فتجمع الآيات التي تتحدث عن المرأة في الزواج، والطلاق، والحضانة، والميراث والعلاقة الزوجية، وغير ذلك مما يتعلق شؤون المرأة ـ مما تناولته الآيات القرآنية.

ـ كذلك (الجهاد في القرآن) ومثله (الصبر في القرآن) إلى غير ذلك من الموضوعات الكثيرة.

ومن خلال ماسبق، يتبين لنا أن أقرب تعريف للتفسير الموضوعي.. أن يقال: هو **(جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن الكريم المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أوحكماً، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية مع الربط بينها لخدمة الموضوع الذي وردت فيه).**

ب ـ نشأته وتطوره:

لانستطيع أن نحدد بداية لظهور التفسير الموضوعي للقرآن لكريم بالمعنى الاصطلاحي الذي ظهر في عصرنا الحاضر؛ إذ إنه حتى لو وجد هذا اللون من التفسير لدى بعض المتقدمين، فإنه لم يكن معروفاً وشائعاً بينهم بهذا الاسم ـ فيما أعلم ـ ولكنني بعد دراسة بعض الموضوعات في كتاب الله تعالى، ظهر لي أن أصل هذا الاتجاه في التفسير الموضوعي كامنٌ في كتاب الله تعالى، وفي آياته البيّنات التي وردت في موضوع واحد لمعالجته في صوره المتنوعة، وظفرت بأمثلة، منها (عدة المطلّقة) فإن الآية الكريمة التي تقول: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾(١) قد عمّت جميع المطلّقات في الحكم، وبالنظر في آيات القرآن المتعلقة بهذا الموضوع مجتمعة، تبيّن لي أن كل آية منها تعني حالة من حالات المطلّقة؛ فليس كل مطلّقة عدّتها ثلاثة قروء، سواء كانت القروء بمعنى الأطهار أم الحيض، بل هناك مطلقة ليس لها عدّة أصلاً، وهي المطلقة قبل أن يمسها زوجها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾(٢)، واليائسة من الحيض لكبر سنها مثلاً، عدتها ثلاثة أشهر، وكذلك الصغيرة، التي لم تحض فإن عدتها ثلاثة أشهر. قال تعالى: ﴿وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٩.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ٤.

ـ وهناك نوع آخر من المطلّقات، وهي المرأة المطلّقة، وهي حامل فعدتها بوضع حملها، كما قال تعالى : ﴿وَأُوْلَاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾(١) .

ـ وهذا النوع يذكره الأصوليون في مباحث الخاص والعام، ولكن لا أرىٰ مانعاً من أن تجري عليه دراسة التفسير الموضوعي؛ لأنه تفسير للقرآن بالقرآن، ومن المعلوم أن أعظم مصادر التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، وهو منهج أصيل استعمله النبي ﷺ ، ووجّه إليه ، كما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والشيخان عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾(٢) شقَّ ذلك علىٰ الناس فقالوا : ـ يارسول الله ، وأينا لم يظلم نفسه ؟ ـ قال : **إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : (إن الشرك لظلم عظيم) إنما هو الشرك**(٣) .

ـ وكما في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال : مفاتح الغيب خمسة ، ثم قرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾(٤) .

---

(١) سورة الطلاق ، الآية : ٤ .

(٢) سورة الأنعام، الآية : ٨٢ .

(٣) انظر صحيح البخاري جـ ٣، ص ١٢٨ .

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير جـ ٣، ص ١٧٤ ، والخمسة هي المذكورة في آخر سورة لقمان ـ وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ .

فإذا نظرنا إلى المفسرين القدامى، نجد من انتهج هذا المنهج ولو من بعض الوجوه - فمثلاً: مقاتل بن سليمان البلخي المتوفى سنة (١٥٠ هـ) له كتاب (الأشباه والنظائر) كما سبقت الإشارة إليه، وهو أقدم وثيقة بين أيدينا في كتب الأشباه والنظائر في القرآن الكريم - فيما أعلم - وهو سائر على بيان أوجه الكلمة التي وردت في القرآن - فمثلاً يقول عن كلمة (الطعام) مانصّه:

**- تفسير الطعام على أربعة وجوه:**

* **فوجه منها:** الذي يأكله الناس، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾(١) .

* **والوجه الثاني:** الطعام يعني الذبائح فذلك قوله تعالى في المائدة: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾(٢) يعني وذبائحكم حل لهم.

* **والوجه الثالث:** الطعام - يعني مليح السمك، فذلك قوله تعالى في المائدة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾(٣) يعني مليح السمك.

* **الوجه الرابع:** طعموا: يعني شربوا، فذلك قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾(٤)

---

(١) سورة قريش، الآية ٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٩٦.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٩٣.

يعني شربوا من الخمر قبل التحريم كقوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾(١) يعني ومن لم يشربه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾(٢).

- وإذا تتبعنا التفاسير نجد في بعضها هذا الاتجاه إلىٰ التفسير الموضوعي، ولو من بعض الوجوه، أقرأ مثلاً تفسير ابن كثير (رحمه الله) فأجده يجمع كثيراً من الآيات التي ضرب الله فيها المثل، وذلك عند تفسيره لقول الله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾(٣) قال رحمه الله . . ما نصة: «فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً، ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب في قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(٤)، وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٥) وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.
(٢) الأشباه والنظائر لمقاتل، ص ١٨٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الحج، الآية: ٧٣.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤١.

يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾(١) وقال تعالىٰ : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾(٢) ثم قال : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ (٣) الآية، كما قال : ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (٤) الآية، وقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾(٥) الآية، وقال : ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾(٦) وفي القرآن أمثال كثيرة(٧) . ا. هـ.

ـ ومن تلك النماذج القديمة للتفسير الموضوعي كتاب (التبيان في أقسام القرآن) للإمام ابن القيم المتوفىٰ (٧٥١هـ) و ( مجاز القرآن) لأبي عبيدة معْمر بن المثنىّ المتوفىٰ (٢١٠هـ) ، و(مفردات القرآن) للراغب الأصفهاني المتوفىٰ (٥٠٣هـ) و(الناسخ والمنسوخ) لأبي جعفر

---

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤ ـ ٢٧.
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٥.
(٣) سورة النحل، الآية: ٧٦.
(٤) سورة الروم، الآية: ٢٨.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٢٩.
(٦) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.
(٧) تفسير ابن كثير جـ ١، ص ٦٤ ـ ٦٥.

النحاس، وغيرهم، في موضوعات متعددة، نحو (أسباب النزول) للواحدي . . إلخ.

وإذا أخذنا حركة الاهتمام بكتاب الله تعالىٰ في أوسع ميادينها وآفاقها، نجد مئآت التفاسير للقرآن في القديم والحديث، مختلفة المشارب، متنوعة المذاهب، تتفاوت في الطول والقصر، بين الإطناب والإيجاز، ومنها ماهو بين هذا وذاك.

ومنها ما اعتمد علىٰ النقل والرواية، ومنها ما اعتمد علىٰ الرأي والدراية، ومنها ما جمع بينهما.

ومنها ما تحرر من المذهبية، ومنها ماظهر عليه طابع خاص كلامي، أو فقهي أوصوفي، بل منها ماخرج عن حدود اللغة وأصول الشرع كتفاسير الباطنية.

وقد ظهر بجوار التفاسير الكاملة للقرآن أنواع أخرىٰ من المؤلفات والدراسات لخدمة القرآن وبيانه للناس، وذلك مثل المؤلفات [في أحكام القرآن] أو في [علوم القرآن] أو [القراءآت] ومايتعلق بها، أو أصول التفسير . . إلىٰ غير ذلك من شتىٰ أنواع العلوم التي تنتسب إلىٰ القرآن وتقصد إلىٰ خدمته.

وفي عصرنا هذا برز لون جديد من ألوان الدراسات القرآنية، وإن شئت قلت: لون جديد من التفسير للقرآن الكريم وهو: [التفسير الموضوعي] الذي نحن بصدد الحديث عنه، وذلك حسب الموضوعات التي اشتمل عليها القرآن وليس تفسيراً بالمعنىٰ الاصطلاحي المألوف؛

لأنه لايتناول جميع آيات القرآن، بل هو جمع للآيات الواردة في الموضوع الواحد في مختلف سور القرآن الكريم، ثم تصنيفها والاستنباط منها أو التعقيب عليها . .

ـ وقد ظهر حديثاً كتاب [الوحي المحمدي] للسيد محمد رشيد رضا، حيث تحدث فيه عن مقاصد القرآن ، وفصّلها في ثمانية مقاصد استشهد لكل مقصد منها بالآيات المتعلقة به، ورأينا هذا الاتجاه في رسالتين للشيخ محمود شلتوت ، شيخ الأزهر الأسبق، وهما : [القرآن والقتال] و[القرآن والمرأة] .

ـ ورأينا هذا الاتجاه أكثر في كتب العقاد مثل : [المرأة في القرآن الكريم] و[الإنسان في القرآن الكريم] وكذلك كتاب [الفلسفة القرآنية] .

ـ وللشيخ عبدالله دراز ـ رحمه الله ـ كتابه القيّم [دستور الأخلاق في القرآن] الذي ألفه بالفرنسية وحصل به على درجة الدكتوراه من السوربون، وترجمه أخيراً إلى العربية الدكتور عبدالصبور شاهين .

ـ ومن هذا اللون بعض كتب الأستاذ محمد عزت دروزة مثل [الدستور القرآني في شؤون الحياة] و[سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن] و [القرآن والضمان الاجتماعي] .

ـ ومن ذلك كتاب الأستاذ محمد شديد [التربية في القرآن الكريم]
ـ كذلك سلسلة تفسير د. محمد البهي لمجموعة من سور القرآن، حاول أن يفسرها تفسيراً موضوعياً، والدكتور محمد أحمد القاسم ألف كتاباً مختصراً عن التفسير الموضوعي، وكُتُبٌ ورسائلُ أخرىٰ تتناول موضوعاً أو أكثر من موضوعات القرآن الكريم .

جـ ـ أهمية التفسير الموضوعي:

ـ إن هذا اللون من الدراسات القرآنية جدٌّ نافعٌ، وبخاصة في عصرنا الذي أفلست فيه الحضارات المادية والمذاهب الإلحادية في حل مشكلات البشر، وسدّ الفراغ الذي تعيشه معظم البشرية؛ لأنها ابتعدت عن هدي القرآن وعدالة الإسلام.

ـ ونعني بإفلاس المذاهب المادية والإلحادية في عصرنا أنها تكشّفت على حقيقتها عند كثير من المغترين بها، وإلاّ فهي مفلسة في كل زمان ومكان.

فالدراسات الموضوعية للقرآن الكريم تعطي مداً جديداً لانتشار تعاليم هذا القرآن، وتناولها بالدراسات في وحدة موضوعية؛ ذلك لأن التركيز على موضوع واحد معين وتتبع موارده ومآخذه في القرآن كله ـ مكيّه ومدنيّه ـ لتجلية جوانبه كلها، يهيىء له من العناية والبيان والدراسة مالا يتهيأ له لو درس في أثناء التفسير العام.

ـ كما أن هذا النوع من التفسير يفسح المجال للدارسين في شتى التخصصات ليحاول كل منهم تجلية مايتعلق باختصاصه من القرآن بصورة أعمق مما لو تناوله غيره.

ـ فرجل الفقه يُعنى بآيات التشريع والأحكام والحدود. . إلخ ورجل الاقتصاد يُعنى بآيات المال والإنتاج والتوزيع والانفاق، ورجل الفلك أو الفيزياء يهتم بالآيات الكونية، ورجل التربية يعني بآيات التوجيه والإرشاد والقصص وغيرها. . وهلمّ جرا.

وهكذا يُعنىٰ كل متخصص بموضوع تخصصه، ومجال اهتمامه، ويركز عليه، ويجدد فيه بكل ما أوتي من علم، وفق قواعد التفسير المعتبرة، وفي هذا فائدة أكبر ؛ وأمر ثالث : وهو أن تتابع هذا اللون من التفسير أو الدراسة خليق بأن يبيّن للناس لوناً جديداً من الإعجاز، يتمثل في معنىٰ القرآن، وحضريته وسعة ما احتوىٰ عليه من موضوعات قيّمة، تُعد بالمئات، بل الآلاف، مع أنه كتاب محدود الصفحات ويوضع في [الجيب] ، وأن الذي أتىٰ به رجل أميّ في أمة أمية(١) .

## د ـ الفرق بين التفسير الموضوعي وأنواع التفاسير الأخرى.

### ١ ـ الفرق بين التفسير الموضوعي والتفسير الإجمالي:

علمنا أن التفسير الموضوعي هو جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد، والإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم، بهدف الوصول إلىٰ حقيقة واحدة تفيد الإنسان والمجتمع، مع ترتيب تلك الآيات علىٰ حسب النزول ما أمكن ذلك.

أما التفسير الإجمالي : فهو تفسير القرآن الكريم علىٰ حسب ترتيب تلاوته، والتعرض لآياته آية آية في شرح مبسط يمكن أن يفهمه المتخصص وغيره، وتكون الغاية إيصال المعنىٰ إلىٰ الأفهام من أقصر طريق، وإبراز ما تهدف إليه الآيات من مقاصد وحكم سامية، وتكون صياغته في ألفاظ في متناول عامة الناس ولا تعلو علىٰ أفهامهم، ولا مانع لتقريب المعنىٰ إلىٰ أفهام المخاطبين بالاستعانة بحديث نبوي

(١) انظر الصبر في القرآن للدكتور يوسف القرضاوي، ص ٤ .

شريف أو أثر عن السلف الصالح، أو حادثة تأريخية، أو قصة قرآنية، أو ذكر سبب النزول.

ومن الأمثلة لهذا النوع:

١ ـ تفسير : الأستاذ محمد فريد وجدي.

٢ ـ تفسير الجلالين: جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي.

٣ ـ تفسير : ابن سعدي، وهو أفضلها وأدقها.

**٢ ـ الفرق بين التفسير الموضوعي والتفسير التحليلي:**

أما التفسير الموضوعي فكما علمنا سابقاً.

وأما التفسير التحليلي: فهو أن يقصد المفسر إلى الآيات القرانية ـ حسب ترتيبها في التلاوة وكما هي مدونة في المصحف الشريف ـ ثم يفسرها بتحليل وتفصيل، كاشفاً عن كل ما تحمله منها من معان وأوجه، فيحلل اللفظ من جهة اللغة العربية وأوجه استعمالاته وما يراد منه مما يناسب المقام، ويبين ما في الآية من الفصاحة والبيان، وأوجه الإعجاز، ومناسبة الآية للآية، والسورة للسورة، وبيان سبب النزول إن وجد، ثم بيان المعني ومقاصد الشريعة من وراء هذا النص القراني، وما يستخلص من النص من فوائد وعبر وأحكام، مستعيناً على ذلك بما ورد من نص قرآني، أوسنة نبوية، أو قول مأثور عن الصحابة أوالتابعين، واضعاً ذلك في أسلوب يناسب المخاطبين من متخصصين أو غيرهم، ويدخل تحت التفسير التحليلي ما هو معروف بالتفسير بالمأثور أو بالرأي.

ومن أنواع التفاسير التي عنيت بما أثر في القرآن نفسه أو بماجاء في السنة النبوية أوأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان مايلي :

١ ـ تفسير ابن جرير الطبري (م سنة ٣١٠هـ) (جامع البيان عن تأويل آي القرآن ) وهو من أجل التفاسير وأنفعها ، والمفسرون بعده عالة عليه .

٢ ـ تفسير ابن كثير (م سنة ٧٧٤هـ) : (تفسير القرآن العظيم) .

والتفسير بالرأي منه المحمود ومنه المذموم : فما روعي فيه الضوابط التي وضعها العلماء ، والتي لايحق لأحد أن يمس قدسية تفسير كتاب الله تعالىٰ إلا وهو ملم بها : فهذا هو التفسير المحمود ، وما لم تراع فيه تلك الضوابط : فهو المذموم[1] .

والتفاسير تحت هذا النوع متعددة الجوانب والأهداف ، إذ إن كل مفسر برز في جانب معين تغلب عليه هذه الناحية في تفسيره ، وإن كان الناظر في كتابه لا يعدم فوائد جليلة في الفنون المختلفة .

١ ـ فهناك تفسير الفخر الرازي (م سنة ٦٠٦هـ) : (مفاتيح الغيب) الذي حوىٰ من كل الفنون ، ولكنه تغلب عليه الناحية العقلية الفلسفية ، والاستطراد في مناقشة أهل الكلام ، وهو موسوعة علمية كبيرة للتفسير .

٢ ـ وهناك تفسير القرطبي (م سنة ٦٧١هـ) : (الجامع لأحكام القرآن) الذي حوىٰ فنوناً كثيرة ، ولكنه تغلب عليه ناحية مذهبية فقهية

---

(١) انظر الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن للذهبي .

هي الانتصار للمذهب المالكي، وإن كان هذا لا يغض من قدره؛ لأنه كان يعتمد على مايراه موافقاً للكتاب والسنة.

٣ـ وتفسير الجصاص (م سنة ٣٧٠هـ) انتصر فيه للمذهب الحنفي، ولايخلو من قيمة علمية ترجع إلى الكتاب والسنة في الجملة.

٤ ـ وبعضها قد خلص لسرد المكتشفات العلمية الحديثة، وانبرى صاحبها لتحميل النص القرآني مالا يحتمله بحال من الأحوال، كتفسير الشيخ طنطاوي جوهري (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) وتفسير الأستاذ حنفي أحمد لبعض الآيات الكونية وتنزيلها على آيات القرآن الكريم، في كتابه [التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم].

٥ـ وهناك التفسير المذهبي الذي جهد صاحبه فيه، لبثّ عقيدته في أثناء التفسير، بل نزل النص القرآني على مستوى عقيدته وماتشربته نفسه في هذا المجال، وفسره على هذا ـ كتفسير السلمي (م سنة ٤١٢هـ) : (حقائق التفسير)، فإنه يميل فيه إلى التفسير الإشاري الصوفي، وقد تكلم غير واحد من أهل العلم في هذا التفسير وقال إنه غير محمود(١).

وتفسير الزمخشري (م سنة ٥٣٨هـ) : (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) فإنه ينتصر فيه لرأي المعتزلة .

---

(١) انظر طبقات المفسرين للداودي، جـ ٢، ص ١٣٨، والتفسير والمفسرون للذهبي، جـ ٣، ص ٥٠.

وتفسير القرآن الكريم للسيد عبدالله العلوي : الذي ينتصر فيه لمذهبه الشيعي [1] وغيرها .

٦ ـ ومن أنواع التفاسير أنواع حاولت أن تبرز من القرآن الناحية الأدبية الاجتماعية ، حيث نظرت إلى المشاكل الاجتماعية التي أصابت الأمة الإسلامية ، ووضعت لها الحلول السليمة ، كما جاء في كتاب رب العالمين .

ومن هذه التفاسير : تفسير الأستاذ سيد قطب (في ظلال القرآن) وتفسير الشيخ رشيد رضا (تفسير المنار) ، وتفسير الشيخ . . المراغي (تفسير المراغي) .

### ٣ . الفرق بين التفسير الموضوعي والتفسير المقارن:

أما التفسير الموضوعي فكما سبق شرحه .

وأما التفسير المقارن : فهو أن يعمد الباحث إلى بعض الآيات القرآنية أو إلى سورة معينة ، ويستكشف آراء المفسرين فيها ، ويوازن بين ماجاء في كل كتاب ، ومسلك كل في تفسيره الآيات ، أو السورة موضع البحث ، ثم يقارن بين ما ورد فيها ، وأن كلاً قد تأثر بالفن الذي غلب عليه ، فهذا قد أكثرمن تحليل الألفاظ ، وهذا في الإعراب ، وهذا في البلاغة ، وهذا في الفقه ، وهذا في سرد الحوادث والقصص ، وهذا في المعقول ، وهذا في المنقول ، وهذا في الكونيات ، وهذا في مذهبه الصوفي . . . إلخ .

---

(١) التفسير والمفسرون ، جـ ٢ ص ١٨٧ .

وبالجملة فهو عبارة عن مقارنة نصوص كتب التفسير في موضوع واحد، بعضها ببعض، بهدف معرفة منهج كل مفسر في كتابه، والوجهة التي يتجهها في فهمه للقرآن الكريم.

**طريقة البحث في التفسير الموضوعي:**

للباحث في هذا النوع من التفسير طريقتان:

أولاهما: أن يجعل السورة القرآنية وحدة متكاملة هدفها واحد، وإن تعددت موضوعاتها، فهي تدور حول مركز ركيز، يسمى بالغرض، سواء أكان عاماً أم خاصاً:

فنقول مثلا: سورة البقرة: الهدف منها تحديد الطريق لمن أراد أن يسلك نفسه مسلك المتقين، ثم تفسير الموضوعات التي وردت في السورة على هذا الهدف.

ونقول مثلاً: سورة آل عمران: هدفها تحديد معالم الألوهية الحقة، وإثبات أن الله واحد لاشريك له. وهكذا في كل سور القرآن.

ومما يعيننا على هذا النوع من نوعي التفسير الموضوعي:

١ ـ كتاب (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) للبقاعي (م سنة ٨٨٥هـ) وهو كتاب فريد، حيث أدمج كل موضوعات السورة تحت غرض واحد تدور عليه آيات السورة الواحدة.

٢ ـ كتاب (النبأ العظيم) للدكتور محمد عبدالله دراز، وهو كتاب لا يستغنى إجمالاً عنه باحث، وقد تكلم فيه عن سورة البقرة ونظمها في عقد فريد يظهر النظم الإلهي، ذي الترتيب المحدد بمقدار معين.

٣ ـ تفسير سيد قطب في (ظلال القرآن) حيث حاول أن ينحو هذا النحو فيجعل لكل سورة محوراً وموضوعاً.

ثانيتهما: أن نجمع الآيات ذات الهدف المشترك، ونرتبها على حسب النزول ـ ما أمكن ذلك ـ مع الوقوف على أسباب النزول ـ إن وجد ـ ونتناولها بالشرح والبيان والتعليق والاستنباط، ونزنها بميزان العلم الصحيح، مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم، بقصد الوصول إلى الغاية المرجوّة من وراء هذا البحث القرآني، وإفادة المجتمع الإسلامي منه. ولا شك أن السنة هي الوحي الثاني وهي مبينة للقرآن قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(١). والبيان قد يكون بالسنة القولية، أو بالسنة التطبيقية العملية أو بالسنة التقريرية.

والطريقة الثانية هي المعمول بها في مجال البحوث العلمية الموضوعية، وإذا ما أطلقت كلمة: «تفسير موضوعي»، فلا يفهم منه إلا بحث موضوع من موضوعات القرآن الكريم على مستوى القرآن جميعه، وأول ما يجب على الباحث مايلي:

١ ـ أن يجمع الآيات القرآنية التي تخدم موضوعه، مستعيناً على ذلك ـ بعد الله ـ بحفظه وبالمصحف الشريف، وببعض الكتب التي عنيت بجمع الآيات تحت عنوان واحد، أوالتي تجمع الآيات المتماثلة في حروف المعجم ـ مثل كتاب (المفردات) للراغب الأصفهاني ( م سنة

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

٥٠٢هـ) ، (ومعجم ألفاظ القرآن الكريم) لمجمع اللغة العربية، و(تفصيل آيات القرآن الكريم)، لجولْ لابومْ، ويليه (المستدرك) لإدورْمونتيه: تعريب الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي، و (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ) للأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي.

٢ ـ ثم يرتب هذه الآيات حسب النزول ـ ما أمكن ـ ما نزل في مكة أولاً ، ثم ما نزل في المدينة ثانياً ، وما نزل أول العهدين قبل ما أنزل آخرهما.

٣ ـ إزاحة ما قد يكون بين الآيات من موهم الاختلاف والتناقض، موقناً أن القرآن لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض، وما وراء ذلك يمكن التوفيق بين الآيات بعضها وبعض، لاختلاف الجهة من الزمان أوالمكان، أوالحقيقة والمجاز، أواختلاف جهتي الفعل أو وقوع المخبر به على أحوال مختلفة ونحو ذلك.

٤ ـ تفسير الآيات أثناء عرضها تفسيراً يفهم منه الحكمة في إيراد الآيات والغرض من هذا التشريع الإلهي، و الغاية من وراء تنفيذ الأمر واجتناب النهي، مع تدعيم التفسير بالسنة النبوية، وأقوال السلف الصالح، وإيراد أسباب النزول إن وجدت ، وشرح قصة من قصص الأنبياء والأمم السالفة إن وردت في الآيات محل الشرح، مع مراعاة شروط المفسر أثناء عرض الموضوع.

٥ ـ إخراج الموضوع في صورة متكاملة تامة للبناء والإحكام، بمراعاة شروط البحث العلمي، واضعاً نصب عينيه أنه يبرز للناس

طريقاً من طرق إرشاد القرآن للتي هي أقوم، طارحاً وراءه كلّ عقيدة فاسدة، أو مؤثرات خارجية قد تغطي على الحقيقة المنشودة من وراء بحثه للآيات القرآنية، ويكون هدفه الأسمى إبراز محاسن القرآن لخدمة الأفراد والمجتمع الإسلامي[١] .

(١) انظر التفسير الموضوعي للدكتور محمد القاسم من ص ١٢ ـ ١٩ .

# الفصل الأول

## لمحة في أصول الإيمان والشرائع والأخلاق في القرآن الكريم

ويشتمل هذا الفصل على المباحث التالية:

- المبحث الأول: أصول الإيمان.
- المبحث الثاني: أصول الشرائع .
- المبحث الثالث: أصول الأخلاق والفضائل.

## المبحث الأول:

# أصول الإيمان

اتفقت جميع الرسالات السماوية على أصول الإيمان على امتداد دعوات الرسل « عليهم الصلاة والسلام »، ولم تختلف هذه الرسالات في تقرير أصول الإيمان قبل أن ينال منها التحريف والتبديل ؛ لأنها تتحدث كلها عن مقررات ثابتة لا يقوم الإيمان إلا بها ، فهي حقائق ثابتة لاتتطور ولاتتغير ولا يدخلها النسخ كما يدخل فروع الشرائع ، وقد جاءت النصوص القرآنية تؤكد هذه الحقيقة ، فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(١)، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٣) .

وقد وجه الله النداء العام لبني آدم محذراً إياهم الشيطان ، ومهالك الغواية ، ومذكراً إيَّاهم بأصل النشأة والمعاد ، فقال تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ ـ إلى قوله : ﴿قُلْ

---

(١) سورة النحل، الآية : ٣٦ .

(٢) سورة الزمر، الآية : ٦٥ ـ ٦٦ .

(٣) سورة الأنبياء، الآية : ٢٥ .

أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾(١) .

وعقيدة الإيمان تشمل عناصر أساسية، تطهر القلب من بذور الشرك والوثنية وتربطه بالله عقيدة صافية وهي :

١ ـ ما يجب الإيمان به في جانب الله تعالىٰ : إقراراً بوجوده وخلقه وتدبيره وقضائه وقدره، وإفراداً له بالوحدانية والعبادة، ووصفاً له بصفات الكمال والجلال، مع الإقرار الكامل بكل ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ.

٢ ـ مايجب الإيمان به من حالات اليوم الآخر من البعث والجزاء.

وقد تحدثت آية البر، في سورة البقرة عن هذه العقيدة الواضحة الشاملة بقوله تعالىٰ : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٧ ـ ٢٩ .

(٢) سورة البقرة، آية : ١٧٧ .

وهذه الآية من أجمع الآيات في تحديد معنى البر، فهي ترشد إلى أن البـــر لا يرتبط بشيء من الصـور والمظاهر والأشكال، وإنما يرتبط بالحقائق ولب الأمور وروح التكاليف، وفي تقديم خبر ليس مايدل على أن البر لا يختص بتوليتكم وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر الحقيقي المعول عليه هو الإيمان.. إلخ، والله تعالى يأمركم بأن تولوا وجوهكم قبل المسجد الحرام.. وهو تعالى لم ينف عمن ولىّ وجهه قبل الكعبة البرّ، بل هو من البر استجابة لأمر الله تعالى، وترشد الآية إلى أن البر ثلاثة أنواع جامعة لكل خير، بر في العقيدة، وبر في العمل، وبر في الخلق.

فالبر في العقيدة بينه في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ والإيمان بالله: في ربوبيته ووحدانيته، وكمال صفاته. ـ والإيمان باليوم الآخر، يوم الحشر والنشر والجزاء والحساب.

ـ والإيمان بالله واليوم الآخر: هما الإيمان بالمبدأ والمعاد، ولا يمكن للعقل البشري أن يعرف ذلك مستقلاً دون الوحي والرسالة.

إذن لابد من واسطة بين المصدر الأول، وهو الله تعالى، وبين بقية خلقه، وهذه الواسطة هي طريق المعرفة لمستلزمات الإيمان بالله واليوم الآخر.

**وتتكون الواسطة من ثلاثة عناصر:**

* عنصر في الطرف الأعلى، وله بحسب تكوينه وخلقه استعداد يمكنه من التلقي عن الله مباشرة، وهم الملائكة، والإيمان بهم أصل الإيمان

بالوحي ، فيلزم من إنكارهم إنكار الوحي ، وهو يستلزم إنكار النبوة وإنكار الدار الآخرة .

* وعنصر في الطرف القريب من الناس ، هو منهم بمقتضى بشريته ، وله صلة بالملأ الأعلى بمقتضى روحانيته وهم الأنبياء ، يتصلون بالملائكة الذين هم سفراء الله ، أوسفرته كما عبرّ القرآن ، فيتلقون عنهم ما أمر الله به من أحكام وتشريعات .

* والعنصر الثالث : هو الرسالة نفسها والوحي ، وقد عُبِّر عنهما في الآية [بالكتاب] ، والتعبير بالكتاب دون الكتب إشارة إلى وحدة الدين عند الله ، وأن الإيمان بكتاب مّا من الكتب السماوية إيمان بالكل .
وعندما نتكلم عن الواسطة بين الله تعالى وبين رسله في الوحي فإن ذلك هو الغالب ، ولكن لايمنع من أن يكلم الله من شاء من رسله من غير واسطة ، كما كلم الله موسى عليه السلام ، وكلم نبينا محمد ﷺ ليلة المعراج بدون واسطة .

**أما البر في العمل:** فله شُعبٌ كثيرة ترجع كلها مهما تنوعت إلى بذل النفس ، والمال ابتغاء مرضاة الله ، وهناءة خلق الله ، والعمل هو مدد العقيدة ، وفي الوقت نفسه هو ثمرتها ، يحفظها ، وينمّيها ، ويدل عليها .

**أما البر في الخلق:** فقد ذكرته الآية في مبدأين :

ـ مبدأ القيام بالواجب ، وعبّرت عنه الآية بقوله تعالى : ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾(١) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٧٧ .

ومبدأ مقاومة الطوارئ والتغلب على عقبات الحياة وقد عبّرت عنه الآية بقولها: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.

والعهد: لفظ شامل يجمع ألواناً من الارتباطات والالتزامات لا غنى للناس عنها، ولا استقامة للحياة بدونها، وهي على كثرتها ترجع إلى: عهد بين العبد وربه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾(١) أو عهد بين الإنسان والإنسان، أو عهد بين الدولة والدولة.

وهكذا يضع القرآن الكريم أصول العهود، والمواثيق العادلة، ويجعل الوفاء بها من البر الذي يسمو بالإنسان في دنياه ويسعده في أخراه.

ومن هنا نعلم أن عقيدة الإيمان قد بعث الله بها رسله كافة، وأن هذه العقيدة هي التي تحل لغز الوجود، وتفسر للإنسان سرَّ الحياة والموت، وتجيب على الأسئلة المتوالية: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟ فهذه العقيدة نزلت بها كتبُ السماء كافة، علّمها آدم بنيه، وأعلنها نوح في قومه، ودعا إليها هود وصالح عاداً وثموداً، ونادى بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رسل الله، وأكدها موسى في توراته، وداود في زبوره وعيسى في إنجيله.

وجاءت عقيدة الإسلام خاتمة للرسالات إلى قيام الساعة، فنقّت التوحيد وكمال الألوهية مما شابها على مرّ العصور، ونقت النبوة والرسالات مما عراها من سوء التصور، ونقّتْ عقيدة الجزاء الأخروي مما دخل عليها من أوهام الجاهلين وتحريف المغالين وانتحال المبطلين.

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٠.

## المبحث الثاني:

# أصول الشرائع

ـ وحدة الدين عند الله حقيقة دلت عليها النصوص كما قال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (١) .

وقد اتفقت الشرائع في أصول التشريع غالباً ؛ لأن مصدر التشريع واحد، فقد شرع الله لعباده ما يصلح شأنهم علىٰ امتداد رحلة البشرية، وأرسل الله في كل أمة رسولاً بشيراً ونذيراً، ليجدد ما اندرس من معالم أصول الدين، ويضيف بأمر الله ما يناسب كل قوم من شرائع في فروع الدين ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (٢) . فالاختلاف إذن في فروع الشرائع، وفي ميادين التطبيق العملية في كثير من الأصول، ولكن يبقىٰ الجوهر واحداً في رسالات الأنبياء، فكل شريعة تصدق ماقبلها من الشرائع وتمهد لما بعدها، وجاء القرآن الكريم مصدقا لما بين يديه من الكتب السابقة، ومهيمناً عليها بما يشتمل عليه من استيعاب لجوانب الكون والحياة كلها، وما يصلح البشرية إلىٰ قيام الساعة. ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (٣) .

ـ لنأخذ أمثلة من اتفاق أصول الشرائع :

---

(١) سورة الشورىٰ، الآية: ١٣ .

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨ .

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٨ .

١ ـ الصلاة:

قال تعالىٰ على لسان أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ (٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (٣).

وقال تعالىٰ عن هذه الأمة المحمدية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٤).

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (٥).

ـ فالاتفاق حاصل في أصل مشروعية الصلاة، ولكن الكيفيات والمواقيت ربما كانت مختلفة في الصور وميادين التطبيق.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٢.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

٢ ـ الزكاة:

قال تعالى : ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (١) .

وقال تعالى عن إسماعيل عليه السلام : ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (٢) .

وقال تعالى عن عيسى بن مريم عليهما السلام : ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٣) .

وقال تعالى في حق هذه الأمة المحمدية : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (٤) .

ـ ويلاحظ مدى ارتباط الزكاة بالصلاة في عشرات المواضع من كتاب الله العزيز .

فالصلاة عبادة روحيّة بدنية ، والزكاة عبادة مالية ، وهما لازمتان لصلة العبد بربه وتزكية النفس والمال وتكافل المجتمع .

٣ ـ الصيام:

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

(١) سورة البيّنة ، الآية : ٤ ، ٥ .
(٢) سورة مريم ، الآية : ٥٥ .
(٣) سورة مريم ، الآية : ٣١ .
(٤) سورة التوبة ، الآية : ١٠٣ .

الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١) .

ـ فالصيام فريضة قديمة على المؤمنين في الأمم السابقة ، كما تنص عليه الآية ، فأما تعيينه برمضان أو أيام من كل شهر أو غير ذلك ، فلم يتعرض القرآن بالتفصيل ولم يصح من السنّة في ذلك ما يتعين الأخذ به فيما أعلم ، والعلم عند الله تعالى .

**٤ ـ القصاص:**

قال تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ (٢) .

ـ وجاء الإسلام ، فقال الله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ إلى قوله ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

ـ فالقصاص عقوبة مقررة في جميع الشرائع الإلهية المتقدمة لضرورة حماية الأنفس وصيانة المجتمعات من الفوضى وانتهاك الحرمات .

**٥ ـ الجهاد:**

قال تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ (٤) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣ .
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥ .
(٣) سورة البقرة ، الآية: ١٧٨ ـ ١٧٩ .
(٤) ربيّون: الألوف: قاله ابن مسعود وابن عباس في رواية، وقيل الجماعات الكثيرة، قاله : مجاهد وعكرمة ، وقيل: الفقهاء والعلماء، قاله سعيد بن جبير وجماعة، انظر زاد المسير لابن الجوزي جـ ١ ص ٤٧٢ .

أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١) .

ـ والمقاتلة دفاعاً عن النفس، أوا لدين أمر مشروع في الشرائع السابقة حسب مقتضيات الأحوال والظروف.

ـ وجاء الإسلام فشرع الجهاد لإعلاء كلمة الله في الأرض، وحكمها بشريعة الله، فليس عدواناً ولا إبادة للحرث والنسل كمايصوّره أعداء الإسلام، ولكنه دفاع عن النفس، وتكليف من الله بنشر دينه في الأرض، وقتال من يصد عن سبيل الله، أو يعدّ لحرب المسلمين، واستباحة أوطانهم.

قال تعالىٰ : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ (٢) .

ـ وهو نصرة للمظلومين والمضطهدين، وتمكين لحرية الإرادة الإنسانية في اختيار الدين الذي ينسجم مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، المتمثلة في رسالة الإسلام العالمية الخالدة فلا إكراه في الدين بعد تحطيم مراكز القوىٰ المعادية التي تصد عن سبيل الله وتحجب نور الله، فأما الدول المسالمة التي لا تمنع دعوة الإسلام من وصول مجتمعاتها، ولا تبيّت عدواناً علىٰ المسلمين، فلم يشرع قتالها، وإنما وجبت دعوتها إلىٰ الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

وأعطىٰ الإسلام أهل الكتاب فرصة للتأمل في جوانب رسالته، وأنها مصدّقة للرسالات السابقة، وأن الإسلام هو الدين الخاتم لرسالات

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٩ ــ ٤٠.

الأنبياء، لايقبل عند الله بعد مجيء الإسلام دين غيره، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١).

فإن لم يدخل أهل الكتاب ومن في حكمهم كالمجوس في الإسلام لم يكرهوا عليه وفرضت على القادر منهم الجزية، مقابل حمايته وبقائه على معتقده، وعدم العدوان عليه، فلو عجز المسلمون عن حمايتهم من أي عدوان داخلي أو خارجي، رُفعت عنهم الجزية، والشواهد على ذلك كثيرة في سير الخلفاء الراشدين وقادتهم، وكثير ممن أتى بعدهم من المسلمين، فلم ينعم الذميّون والمعاهدون بمثل ما نعموا به في ظل الإسلام في أي نظام عبر التأريخ (٢)، وآيات الجهاد وأحكامه كثيرة في كتاب الله تعالى.

**٦ ـ الزواج:**

وهو سنةلبقاء النسل، وقضاء الوطر، في لقاء طاهرشريف، بين الذكر والأنثى، من بني البشر في جميع الشرائع.

بدأت العلاقة الزوجية بين أبي البشر آدم وبين حواء عليهما السلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ (٣).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٢) كما حصل من أبي عبيدة عامر بن الجراح مع أهل حمص.

(٣) سورة النساء، الآية: ١.

وقال تعالى : ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ (١) .

ـ وهذه العلاقة الزوجيّة من آيات الله التي أودعها في رابطة الزواج على امتداد الوجود البشري، قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢) .

والزواج في سنن الأنبياء والرسل جميعاً، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (٣) .

وقال في حق نبينا محمد ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ (٤). إلى غير ذلك من أصول الشرائع في العبادات، والمعاملات التي جاءت بها رسالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٥.

(٢) سورة الروم، الآية : ٢١ .

(٣) سورة الرعد ، الآية : ٣٨.

(٤) سورة الأحزاب، الآية : ٥٠ .

## المبحث الثالث:

# أصول الأخلاق والفضائل

اتصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأفضل الصفات وأنبل الأخلاق والفضائل وفي مقدمتها: الصدق والأمانة والفطانة والبيان.

وقد وصف الله أنبياءه بصفات كريمة، فقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ (١) ، وقال تعالى عن نبينا محمد ﷺ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٢) ، وما من نبي من الأنبياء إلا وقد اتصف بأكرم الصفات وأنبل الفضائل.

وعندما نأخذ أمثلة من أمهات الفضائل والأخلاق نجد هذه الحقيقة واضحة في كتاب الله تعالى، فاستمع إلى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٣) .

فقد اشتملت هاتان الآيتان على أبرز أصول الأخلاق والفضائل، وإنك لتعجب كيف جمعتا هذه الأصول الأخلاقية الجامعة في عبارات

---

(١) سورة هود، الآية: ٧٥.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٠ ـ ٩١.

موجزة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (١) ، إنه كله مبادئ وأخلاق وقيم.

**فالعدل:**

أساس التعامل الأمثل بين العبد وخالقه، وبين البشر وأنفسهم، حكاماً ومحكومين، أفراداً وجماعات، والعدل مطلب أخلاقي كريم في جميع الشرائع؛ لأنه قاعدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوىٰ، ولا تتأثر بالود والبغض.

ـ وقد أكد القرآن الكريم هذا المبدأ بقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٢) .

**والإحسان:**

أعلىٰ درجات المراقبة، وهو أصل من أصول الشرائع، فسره رسول الله ﷺ، كما في حديث جبريل المشهور **(أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)** (٣) .

فالإحسان يشمل كل عمل، وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها، في علاقة العبد بربه، وعلاقاته بجميع المخلوقين، ولهذا قال

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب (٣٧) باب سؤال جبريل ص ٦ حديث رقم (٥٠).

ﷺ: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء..) (١) ، وهكذا ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ لتأكيد مبدأ التكافل الاجتماعي، والتدرج من المحيط المحلي إلى المحيط العام، وفق نظرة الإسلام التنظيمية لهذا التكافل (٢) .

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ :

فالفحشاء: كل أمر فاحش يتجاوز حدود الله، ومنه العدوان على الأعراض وانتهاك المحرمات.

والمنكر: كل ما أنكره الشرع وتنافى مع الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

والبغي: هو تجاوز الحد بما لا يجوز له، وهو داخل في المنكر؛ ولكنه خص بالذكر اهتماماً به لشدة ضرره ووبال عاقبته .

**والوفاء بالعهود والمواثيق:**

هو الضمان لبقاء عنصر الثقة في التعامل بين الناس على مستوى الأفراد والجماعات والدول، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٣) .

---

(١) صحيح مسلم، جـ ٣، ص ١٥٤٨ .
(٢) انظر ( في ظلال القرآن) جـ ٤ ، ص ٢١٩٠ .
(٣) سورة النحل، الآية: ٩١ .

وهكذا نجد في كل مبدأ من هذه المبادئ الأخلاقية قاعدة ثابتة للتعامل العادل على امتداد رحلة البشر إلى قيام الساعة.

أمامنا أسس للأخلاق والفضائل، لا يعتريها النسخ ولا التبدل في جميع الرسالات.

فبر الوالدين:

مقرر في الشرائع جميعاً، والإحسان إليهما وطاعتهما في غير معصية الله، حتى ولو كانا كافرين وذلك من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾(١).

وصلة الأرحام:

علاقة عظم الإسلام من شأنها ـ فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ (٢)، وقرن قطيعة الرحم بالفساد في الأرض، فقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٣)، ومدح الله الواصلين لرحمهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (٤)، فعموم النصوص القرآنية تدل على مشروعية الترابط الأسري بالمعروف عبر

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٤ ـ ١٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة محمد، الآية: ٢٢.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٢١.

مسيرة الإنسانية المؤمنة، وقد أكد القرآن الكريم هذه الرابطة بقوله: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (١) .

والأمانة:

مسؤولية أخلاقية عظمى، لم تستطع السماوات والأرض والجبال حمل تبعاتها وتكاليفها عندما عرض الله ذلك عليها، بل أشفقن من حملها، وقد حمل الإنسان أعباء هذه الأمانة ووعد بالوفاء بها، فمن قام بها وفق منهج الله فاز وظفر بخيري الدنيا والآخرة، ومن خان أمانته وضيّع ما استأمنه الله عليه خسر دنياه وآخرته، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه المسؤولية الأخلاقية العظيمة فقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (٢) .

وقد مدح الله المؤمنين وجعل من صفاتهم رعاية الأمانات والعهود، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (٣) .

وقد اتصف أنبياء الله ورسله بالأمانة، فهذا نوح أبو البشر الثاني يقول فيما قصّه القرآن الكريم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١ ـ ٨.

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١) ، وقال هود عليه السلام لقومه : ﴿أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٢) . وكذلك قال لوط وشعيب وموسى عليهم السلام لأقوامهم .

وقد جمع الله محاسن الأمانات لسيّد ولد آدم نبينا وحبيبنا محمد ﷺ فأكمل الله به الدين وأتم به النعمة على المؤمنين من البشرية إلى يوم القيامة ، وجعل كتابه مهيمناً على الكتب ومصدقاً لها ، ورسالته خاتمة للرسالات وجامعة لمحاسنها ، وجعل أمته خير الأمم ، فقد استأمنه الله على خير كتاب أنزل على خير نبي ، وأعطاه الشفاعة العظمى ، وهي المقام المحمود الذي وعده الله به .

فالأمانة من أبرز أمهات الأخلاق والفضائل ، وللأنبياء عليهم الصلاة والسلام الحظ الأوفر من القيام بهذه الأمانة ، فهم أمناء الله على وحيه ورسالاته ، ثم يأتي بعدهم الأمثل فالأمثل من سائر الأمم .

**والصبر:**

من أخلاق الأنبياء وأولي العزم من الرجال ، وقد أمر النبي ﷺ أن يصبر على دعوته ويتحمل المشاق ، كما تحملها غيره من أولي العزم من الرسل ، فقال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٣) سورة الأحقاف ، الآية : ٣٥ .

وبين الله تعالىٰ أن الصبر من شيم أولي العزمات، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (١) .

ووعد الله الصابرين بمضاعفة أجورهم بغير حساب فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) .

والصبر أنواعه كثيرة وميادينه واسعة، وقد تحدّث عنها القرآن الكريم في أكثر من تسعين موضعاً، كما رُوي ذلك عن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ (٣) ، ولكنها في جملتها ترجع إلىٰ الصبر علىٰ طاعة الله، والصبر عن محارم الله، والصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة.

**والصدق:**

من أخلاق الأنبياء، وشمائل الأتقياء، رفع الله به مقام الصادقين والصِّديقين، ووصف القرآن أنبياء الله بهذه الصفات الكريمة، فقال تعالىٰ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (٤) ، وقال تعالىٰ عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ (٥) .

ووصف القرآن إدريس وغيره من الأنبياء عليهم السلام بهذه الصفات الأخلاقية النبيلة، وتحدث القرآن عن نبينا محمد ﷺ بأنه جاء

(١) سورة الشورىٰ، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١٠.

(٣) انظر مدارج السالكين لابن القيم جـ ٢، ص١٥٢.

(٤) سورة مريم، الآية: ٤١.

(٥) سورة مريم، الآية: ٥٤.

بالصدق، وهو القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١).

وقد جعل الله الصدق صفة من صفات أهل البر والتقوى، فبعد أن ذكر آية البر في سورة البقرة ختمها بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٢).

وأخبر سبحانه وتعالى عن تكريم الصادقين يوم الوقوف بين يديه، فقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ (٣).

إلى غير ذلك من أمهات الأخلاق والفضائل التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجاءت متكاملة في رسالة نبينا محمد ﷺ، بما تمم من مكارم الأخلاق ومحاسن الفعال، كالتواضع والوفاء، والحلم، والعفو والتسامح، والجود والكرم، والشجاعة، والإيثار، والحياء، وحسن الخلق في أوسع ميادينه.

هذه لمحات موجزة عن أصول الإيمان والشرائع والأخلاق في القرآن الكريم، وكل موضوع من الموضوعات السابقة يمكن أن يدرس دراسة موضوعية مطوّلة وفق منهج (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم).

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢٤.

# الفصل الثاني

## التنزيل المكي والمدني
## وأثرهما في سير الدعوة وبناء المجتمع

ويشتمل هذا الفصل على المباحث التالية:

- المبحث الأول: مقاصد القرآن الرئسة.
- المبحث الثاني: التنزيل المكيّ وأثره في سير الدعوة .
- المبحث الثالث: التنزيل المدنيّ وأثره في سير الدعوة وبناء المجتمع.

## المبحث الأول:

# مقاصد القرآن الرئسة

للقرآن الكريم ثلاثة مقاصد [١] رئسة وهي كما يلي:

**١ - المقصد الأول:**

أن يكون هداية للثقلين الجن والإنس، في تنظيم علاقتهم بخالقهم إيماناً وتوحيداً وتسليماً، بداية ومعاداً من جانب، وتنظيم علاقتهم فيما بينهم من تعامل وتصور للكون والحياة من جانب آخر.

وتمتاز هداية القرآن الكريم: بالعمومية والتمام، والوضوح.

**فهي عامة:** للثقلين الإنس والجن، في كل عصر ومصر وفي كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[٣] وأما عموم رسالة النبي ﷺ إلى الجن فهي معلومة معروفة، بل نصَّ شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -، على أن هذا الأصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين وسائر طوائف المسلمين من أهل السنة والجماعة وغيرهم، ولم

---

(١) انظر: مناهل العرفان للزرقاني، جـ ٢، ص ٢٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٩.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمداً ﷺ إليهم[١].

ومن النصوص القرآنية قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

والجن داخلون في التكليف العام بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾[٤].

**وهداية القرآن تامة وشاملة:** لأنها احتوت أرقى وأوفى ما عرفت البشرية، وعرف التأريخ من هدايات الله، وشملت ما يحتاج إليه الخلق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها، وجمعت بين مصالح البشرية في العاجلة والآجلة، ونظّمت علاقة

(١) انظر إيضاح الدلالة في عموم الرسالة ـ لابن تيمية ـ ص ٤ ومجموعة فتاوى ابن تيمية ـ جـ ١٩، ص ٩.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩ ـ ٣٢.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

الإنسان بربه وبالكون الذي يعيش فيه، ووفقت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والجسد، وهذا واضح من نصوص القرآن والسنّة.

وهداية القرآن واضحة جليّة: حيث عرضت عرضاً رائعاً مؤثراً، توافرت فيه وسائل الإيضاح وعوامل الإقناع، في أسلوب فذّ معجز في بلاغته وبيانه، واستدلال واضح عميق يجمع بين صدق المقدّمات وصحة النتائج، وبأمثال تخرج أدق المعقولات في صورة أجلىٰ الملموسات وحكم بالغات، وقصص وأخبار، وتصوير لمستقبل الأبرار والفجّار كأنما تراه الأبصار في رابعة النهار، والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة في كتاب الله تعالىٰ.

**٢ ـ المقصد الثاني:**

أن يقوم هذا القرآن آية لتأييد النبي ﷺ، حيث جاء آية شاهدة برسالة محمد ﷺ، وبقي علىٰ جبهة الدهر معجزة خالدة تنطق بالهدىٰ، ودين الحق، ظاهراً علىٰ الدين كله، فهو المعجزة الكبرىٰ لخاتم النبييْن والمرسلين إلىٰ قيام الساعة.. ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(١).

ومن آيات صدق هذا القرآن وإعجازه، عدم التناقض والاختلاف علىٰ مرّ العصور والأجيال، ومع تنوع العلوم والمعارف وظهور الكشوف العلمية في الفضاء وفي الأنفس والآفاق، فإنك لا تجد آية تصادم حقيقة علمية ظهرت في هذا الوجود إذا لم تقل: إنه ما من حقيقة

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

علمية أو قضية كلية أو جزئية في هذا الكون الواسع إلا وقد دخلت تحت كليات هذا القرآن العظيم توجيهاً وهداية وحكماً. . ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾(١) . ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(٢) .

**٣ ـ المقصد الثالث:**

أن يتعبد الله خلقه بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدّس ، ويقربهم إليه ويأجرهم على مجرد ترديد لفظه ولو من غير فهمه، فإذا ضموا إلى التلاوة فهماً زادوا أجراً على أجر ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٣) .

ـ وقال رسول الله ﷺ : **( من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف)** رواه الترمذي وقال : حسن صحيح(٤) .

---

(١) سورة النساء، الآية : ٨٢.

(٢) سورة الفرقان، الآية : ١ .

(٣) سورة فاطر ، الآية : ٢٩ ـ ٣٠ .

(٤) سنن الترمذي، كتاب ثواب القرآن، جـ ٨ ، ص ١١٥ ، ط الفجر الحديثة بحمص .

## المبحث الثاني:

# التنزيل المكي وأثره في سير الدعوة

لا نقصد بهذه الدراسة بحث المكيّ والمدني وتحديد ضوابط كل منهما ومناقشة الآراء في ذلك؛ فإن هذا يخرجنا عن الموضوع الذي نحن بصدده، وإنما نريد التأمل في المعالم البارزة لهذا التنزيل المحكم، وكيف اقتضت حكمة الله تعالى أن يسلك بقرآنه سبيل التدرج والارتقاء في تربية الأفراد والجماعات.

وهذا المعنى في التدرج والترتيب في نزول الآيات قد فهمه الصحابة وأرشدوا إليه، ففي صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إنَّما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصَّل فيها ذكر الجنّة والنار، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا. لقالوا: لا ندع الزنا أبداً» (١) .

هذا يدلنا على مدى فهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعلمها بكتاب الله تعالى وأسرار نزوله، فالآيات المكيّة في جملتها تعالج جانبين في آنٍ واحد.

**الجانب الأول:** توطيد أصول الإيمان والعقيدة، وبناء القوة الذاتية للمسلم، في الصبر على المكاره وتحمّل الصعاب.

---

(١) صحيح البخاري، جـ ٣، ص ٢٢٧ باب تأليف القرآن.

**الجانب الثاني:** هدم الشرك والوثنيّة وزلزلة معتقدات الجاهلية الضالّة.

و بالرجوع إلى مصادر علوم القرآن التي تحدثت عن التنزيل المكي والمدني، نجد أنها قد عالجت هذه الموضوعات بطرقٍ متفاوتة، كالإمام الزركشي والسيوطي والزرقاني في كتبهم المشهورة[1] ، وربما كان من أجمعها وأدقها «مناهل العرفان» للزرقاني، حيث ناقش بعض الشبهات الواردة في هذا الموضوع ورد عليها رداً قوياً.

ويمكن الاستفادة مما دوّنه هناك باستخلاص الأسس والمنطلقات التي اشتمل عليها التنزيل المكيّ ـ ونجمل أبرزها فيما يلي:

١ ـ إن القرآن الكريم في العهد المكيّ فتح عيون أهل مكة على مافي أنفسهم من شواهد الحق، وعلى مافي الكون من أعلام الرشد، ونوّع لهم في الأدلة وتفنن في الأساليب وقاضاهم إلى الأوليّات والمشاهدات، ثم قادهم من وراء ذلك قيادة راشدة حكيمة إلى الاعتراف بوحدانية الله في ألوهيته وربوبيته، والإيمان بالبعث ومسؤوليته، والجزاء العادل ودقته، ثم إلى التسليم بالوحي وبكل ماجاء به من هدى الله، كما هو واضح في سورة الأنعام وسورة يونس وسورة الفرقان، وسورة العنكبوت وغيرها من السور.

---

(١) انظر: البرهان: للزركشي، جـ١، ص ١٨٧ ـ ٢٠٥. ، الإتقان للسيوطي، جـ١، ص ٢٢ ـ ٦٧، مناهل العرفان، للزرقاني، جـ١، ص ١٨٥ ـ ٢٣٢.

٢ ـ إنه حمل حملة قويّة على الشرك والوثنيّة وعلى الشبهات التي تذرع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنيّة ودخل عليهم من كل باب، وأتاهم بكل دليل، وحاكمهم إلى الحس، وضرب لهم أبلغ الأمثال، حتى انتهى بهم إلى أن تلك الآلهة المزيّفة لا تقدر أن تخلق مجتمعة أقل نوع من الذباب، بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شر عادية الذباب، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(١) .

ولما عاندوا واحتجوا بما كان عليه آباؤهم، نعى عليهم أن يمتهنوا كرامة الإنسان إلى هذا الحضيض من عبادة الأحجار والأصنام وسفّه أحلامهم، وأحلام آبائهم الذين أهملوا النظر في أنفسهم وفي آيات الله وفي الآفاق، وقبّح إليهم الجمود على هذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(٢) .

وناقشهم كذلك في عقائدهم الضالة التي نجمت عن تلك الوثنية من جحود الإلهيات والنبوات وإنكار البعث والمسؤولية والجزاء.

٣ ـ أنه تحدث عن عاداتهم القبيحة كالقتل وسفك الدماء ووأد البنات واستباحة الأعراض، وأكل مال الأيتام، فلفت نظرهم إلى ما في ذلك من أخطار ، ومازال بهم حتى طهّرهم منها ونجح في إبعادهم عنها في النهاية.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

٤ ـ إنه شرح لهم أصول الأخلاق وحقوق الاجتماع شرحاً عجيباً كرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان وفوضى الجهل وجفاء الطبع، وقذارة القلب وخشونة اللفظ، وحبَّب إليهم الإيمان والطاعة والنظام والعلم والمحبة والرحمة والإخلاص واحترام الآخرين وبر الوالدين وإكرام الجار وطهارة القلوب ونظافة الألسن إلى غير ذلك.

٥ ـ إنّه قصَّ عليهم من أنباء الرسل وأممهم السابقة ما فيه أبلغ المواعظ وأنفع العبر، من تقرير سننه الكونيّة في إهلاك أهل الكفر والطغيان، وانتصار أهل الإيمان والإحسان، مهما طالت الأيام وامتد الزمان، ماداموا قائمين بنصرة الحق، وتأييد الإيمان، كما في سورة الأعراف، وهود، والشعراء، والقصص.

٦ ـ إنَّه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه والإقلال دون الإسهاب والإطناب. كما أن قانون الحكمة العالية قضى بأن يسلك سبيل التدرج والارتقاء في تربية الأفراد، وأن يقدم الأهم على المهم.

ولا ريب في أن تأسيس العقائد والأخلاق ومعالجة العادات إيجاباً وسلباً يقدَّم على ضروب العبادات ودقائق المعاملات؛ لأن الأولى كالأصول بالنسبة للثانية والعناية بها جرياً على سنّة التدرج من ناحية ـ وتقديماً للأهم على المهم من ناحية أخرى(١).

### أثر التنزيل المكي في سير الدعوة:

نزلت آيات السور المكيّة تباعاً ـ على مدى ثلاثة عشر عاماً ـ على رسول الله ﷺ، وكان يبلغ الناس ما أُنزل إليه من ربه أولاً بأول، وكان

(١) مناهل العرفان: جـ١، ص ١٩٥ ـ ١٩٦ بتصرف.

المؤمنون يتلقون القرآن بقلوب مفعمة بالمحبّة والإيمان، كما تستقبل الأرض المجدبة مطر السماء فيملأ القرآن نفوسهم بالخير والهدىٰ، ويربيهم علىٰ موائد فضله ليحملوا دين الله الخالد وشرعه المبين إلىٰ أمم الأرض، هداة مهتدين وقادة فاتحين.

ولم يقتصر تأثير القرآن الكريم علىٰ المؤمنين به، بل تأثر به كذلك صناديد المشركين، فمما تشهد به الحقائق التأريخية والآثار الصحيحة، أنه كان يتأثر بالقرآن الكريم كل من سمعه وأصغىٰ إليه من المشركين والمؤمنين.

ـ وقد أثّر القرآن في نفوس المشركين تأثيراً كبيراً بروعة بيانه ودقة نظمه وأسلوبه، وهذا هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة بكلمته المشهورة لأبي جهل التي اعترف فيها بأن القرآن هو الحق الذي يعلو ولا يُعلىٰ عليه والذي يحطم ما تحته، إنها كلمة فائضة من نور عقله وصميم وجدانه، وما استطاع أن يقول كلمة أخرىٰ في الصد عنه بعد إلحاح أبي جهل عليه، إلا بتكلف لمكابرة عقله ووجدانه، بعد أن فكّر وقدّر ونظر وعبس وبسر ثم أدبر واستكبر: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾(١).

ـ وقد أورد ابن كثير في كتاب السّيرة عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم؟ قال: ليعطوك فإنك أتيت محمداً لتعرض ما قبله، قال: لقد علمت قريش أني أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكرٌ

(١) سورة المدثر، الآية: ٢٤.

له، قال: ماذا أقول؟ فو الله ما منكم رجلٌ أعرف بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنّه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه وإنَّه ليحطمنَّ ما تحته قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: قف عنّي حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: إنْ هذا إلا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾(١) .

وقد اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأتِ هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه فقالوا: أنت يا أبا الوليد وقد أتاه عتبة وذكر كلاماً كثيراً يعترض به على رسول الله ﷺ، فلما فرغ من كلامه قال رسول الله ﷺ: ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلى أن بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾(٢) عندئذٍ أمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه، ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: «والله ياعتبة ما جئنا إلا لأنك صبأت إلى محمد وأعجبك أمره، فإن كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب وأقسم بالله لا يكلم محمداً أبداً، وقال: لقد علمتم

---

(١) سورة المدثر، الآيتان: ١١ ـ ١٣ .

(٢) سورة فصلت، الآيات: ١ ـ ١٣ .

أني من أكثر قريش مالاً ولكني أتيته، وقصّ عليهم القصة ـ فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا بشعر و لا كهانة. قرأ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ حتىٰ بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل عليكم العذاب»(١) .

هذا التأثير هو الذي كان يجذب رؤوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلاً لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ في بيته، علىٰ ما كان من نهيهم ونأيهم عنه وتواصيهم وتقاسمهم أن لا يسمعوا له، ثم كانوا يتسللون فرادىٰ مستخفين ويتلاقون في الطريق متلاومين كما ذكره البيهقي في دلائل النبوة (٢) .

وقد ورد في خبر جبير بن مطعم لما سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾(٣) قال جبير: كاد قلبي يطير وهذا الحديث مخرّج في الصحيح(٤) من طريق عن الزهري.

وجبير بن مطعم كان قد قدم علىٰ النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارىٰ، وكان إذ ذاك مشركاً فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله علىٰ الدخول في الإسلام بعد ذلك(٥) .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير، جـ ١، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣ .

(٢) انظر: الوحي المحمدي، للسيد رشيد رضا، ص ١٥٧ .

(٣) سورة الطور، الآية: ٣٧ .

(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير، جـ ٣، ص ١٩٣ .

(٥) انظر: تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٢٤٤ .

أما تأثير القرآن في نفوس المؤمنين الأولين فقد استولى على مشاعرهم وغيّر ما بأنفسهم من مفاسد الجاهليّة فزكى أنفسهم وسما بأفكارهم، وقد عكفوا عليه يرتلونه ويتفهمونه ويتعرفون أحكامه ومراميه.

ومما ورد في صفة الصحابة رضي الله عنهم أن الذي كان يمر ببيوتهم ليلاً يسمع منها مثل دويّ النحل من تلاوة القرآن الكريم، وقد بالغ بعضهم فكان يقوم الليل كله حتى شكا نساؤهم فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك.

وثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار**»[1].

وكان رسول الله ﷺ يتأثر بسماع القرآن ويحب أن يسمعه من غيره، ففي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ - فقلت: يارسول الله آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ فقال: حسبك الآن فإذا عيناه تذرفان»[2].

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، جـ ٣، ص ٥٤.
(٢) صحيح البخاري، فضائل القرآن، جـ ٣، ص ٢٣٥.

وهكذا كان تأثير القرآن في نفوس المؤمنين به والمخالفين له، وإنّ تقليب القلوب والأفكار لأعسر من فلق الصخور وتحويل الجبال، وقد ضرب الله المثل (١) بقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢) .

**والناس أمام هذا القرآن فرق ثلاث:**

* الأولى: فرقة ناجية، آمنت بهذا القرآن، واستسلمت لعظمته، وروعة هداياته وبيانه، وعلمت أنه من لدن حكيم خبير، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٤) .

**الثانية:** فرقة صدّقت بهذا القرآن في قرارات أنفسها وعلمت أنه يهدي للتي هي أقوم، ولكن سلطان الحميّة الجاهليّة وما ألفت النفوس من عقيدة الآباء حالت دون الانقياد المطلق والتسليم لله ولرسوله بالإيمان والاتباع.

---

(١) الوحي المحمدي، ص ١٦٤.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٢١.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١ ـ ٢.

وقد ظلم هؤلاء الناس أنفسهم كما ظلموا الحقيقة والواقع، فهم في صراع مع الحقيقة التي تقر بها أنفسهم، ومع الظلم والعدوان المتمثل في مكابرتهم لما جاءت به الرسل من الهدىٰ والحق قال تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾(١)، وتلك صفة الجاحدين ينكرون حتىٰ ما تقوم البراهين والآيات الحسيّة علىٰ وجوده، إنهم يقرّون بها في قرارات أنفسهم ولكنهم يكابرون عقولهم وما استقر في أنفسهم من معجزات المرسلين وآيات رب العالمين، يفعلون ذلك ظلماً وعدواناً وحميّة لعقائد الآباء والأجداد وإن كانت ضالة، قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾(٢).

إن هذه الفئة مع كفرها يُرجىٰ لها أن تسلم لله ربِّ العالمين ولو بعد حين، مادام عندها في قرارات أنفسها نوع من التأمل والتفكر والتصديق الباطني، كما حدث لسحرة فرعون فإنهم كانوا من أشد أعداء موسىٰ عليه السلام وما جاء به من الحق، ثم آمنوا وختم الله لهم بالإيمان، وكذلك كثير ممن آذوا رسول الله ﷺ في بداية الأمر ثم أسلموا وحسن إسلامهم، ومن هؤلاء «جبير بن مطعم» الذي سمع النبي ﷺ يتلو بعض آيات القرآن، فقال: كاد قلبي يطير، وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي، كما تقدم.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٣.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

الثالثة: فرقة حجبت عن أعينها مصابيح الهدى وعن قلوبها روافد الإيمان فتجمدت وقست ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾(١) ، انتكست قلوبها فصارت تنظر للأمور بمنظار عكسي، يقلب موازين الأشياء وحقائق الأمور ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾(٢) وكثيرٌ من هؤلاء لا يزيدهم القرآن إلا نفوراً وطغياناً وكفراً قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾(٣) ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾(٤) وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن لا يحزن على القوم الكافرين ولا يضيق صدره بما يمكرون، فقال تعالى: ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾(٥) فإن سنة الله تعالى في الأولين والآخرين أن الصراع بين الحق والباطل لاينتهي، وأن الخصومة في الله بين المؤمنين والكافرين ممتدة عبر رحلة البشريّة، وستستمر حتى وقت الوقوف بين يدي الله تعالى، فيقضي بين عباده بعدله وحكمته في موقف يذهب فيه الخداع والحيل، وتبرز فيه الحقائق وتتجلى فيه الأمور، وتُستنطق فيه الأعضاء والجلود فتكون شواهد كل إنسان على أعماله من نفسه قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.
(٢) سورة يونس، الآية: ٣٣.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤١.
(٥) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١) .

ـ و يمكن أن نلخص أثر التنزيل المكيّ في سير الدعوة في النقاط التالية :

١ ـ أنّه صنع جيلاً من السابقين الأولين رجالاً ونساءً، راسخ الإيمان ثابت العزمات، امتزج الإيمان بدمائه وسرىٰ في عروقه، فمن كأبي بكر رضي الله عنه في شجاعته عندما كان يرد المشركين وينافحهم عن رسوالله ﷺ(٢) ؟ ومواقفه الشجاعة بعد وفاة رسول الله ﷺ في حروب الردة واضحة مشهورة.

ومن كعمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوة شخصيته واعتزاز المسلمين بإسلامه؟ ألم يقل للمشركين عندما أراد الهجرة إلىٰ المدينة: «من أراد أن تثكله أمه وييتّم ولده وتُرمّل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي؟ فما تبعه منهم أحد»(٣) .

وعثمان بن عفان رضي الله عنه في إيمانه وحيائه وتجهيزه لجيش العسرة.

وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في فدائه لرسول الله ﷺ ليلة الهجرة، وشجاعته وعلمه، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص،

---

(١) سورة فصلت ، الآية: ١٩ ـ ٢١.

(٢) انظر صحيح البخاري، مناقب أبي بكر، جـ ٢ ، ص ٢٩٣.

(٣) أخرجه ابن عساكر عن عليّ: انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ١١٥.

وعبدالرحمن بن عوف، وجعفر بن أبي طالب، وأبي ذر الغفاري وغيرهم من السابقين إلى الإسلام رضي الله عنهم أجمعين.

ومن هذا الجيل ، السيّدات المجاهدات الأوائل، وفي مقدمتهن أم المؤمنين «خديجة بنت خويلد» رضي الله عنها زوج النبي ﷺ ، حيث واسته وآزرته في أشدّ الظروف.

وأم المؤمنين، أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها وهجرتها إلى الحبشة والمدينة.

ومنهنّ «أسماء بنت أبي بكر الصديق» رضي الله عنها، ذات النطاقين، وحاملة الزاد والمتاع إلى النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه ليلة الهجرة، وغيرهنّ من المسلمات الصابرات .

فهذا الجيل الذي صنعه القرآن، وتربى في مدرسة النبوة الأولى هو الذي عايش الدعوة سراً وجهراً ، وقام بها دعوة وعلماً وتعليماً.

٢ ـ أثرت آيات التنزيل المكيّ في سير الدعوة بخطاً ثابتة متوازية، ولئن كان سير الدعوة بطيئاً في تلك الآونة فذلك لحكمة أرادها الله تعالى لبناء الرعيل الأول بناءً راسخاً وصقل نفوسهم وإرساء القاعدة الإيمانية الصلبة في هذه النخبة من الرجال، ولم يُسلم في هذه المرحلة إلا صادق الإيمان ولم يظهر النفاق لكون السلطان المادي والكثرة الكاثرة في صفوف المشركين.

٣ ـ أعطت المؤمنين الصادقين شحنة هائلة من الصبر والثبات على البلاء وتحمل الهجر والهجرة ، وتمثل هذا في الهجرة الأولى والثانية إلى

الحبشة ، وفي صبر «بلال» «وعمار» «وصهيب» وغيرهم رضي الله عنهم على التعذيب في سبيل الله ، ولم يسلم من أذى المشركين حتى رسول الله ﷺ وكان أشد ما صنعه المشركون به ﷺ ما صنعه عقبة بن أبي معيط حيث جاء رسول الله ﷺ يصلي فوضع رداءه في عنق النبي ﷺ ، فخنقه خنقاً شديداً ، فجاء أبوبكر حتى دفعه عنه ـ، فقال : «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم» (١) ، وكذلك ما واجهه في سفره إلى الطائف .

بيد أنّ هذا الصبر قد أعطى الدعوة دفعة قوية وأرسى لها قدماً راسخة كما شاء لها الله عز وجل .

٤ ـ أنها حوّلت حياة الفئة المؤمنة ومنازلهم ومجالسهم إلى مدارس للإيمان والتربية ، على الرغم من الاضطهاد والتعذيب ، فكلهم عاكفون على تلاوة ما أنزل من القرآن الكريم ، وتفهم معانيه أولاً بأول حتى أنّ المار ببويتهم ليلاً ليسمع دوياً كدوي النحل من تلاوتهم لكتاب الله ، وقد شاركهم في هذه الصفة بعد ذلك إخوانهم من الأنصار ـ الذين آووا رسول الله ﷺ ونصروه ، واستقبلوا إخوانهم من المهاجرين وفتحوا لهم صدورهم وأشركوهم في أموالهم ، وقد مدح الله الأنصار بقوله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(٢) .

٥ ـ إنّ هذا الجيل الأول حصيلة ثلاثة عشر عاماً من نزول القرآن ، حيث عالجت آيات السور المكيّة فكره وسلوكه وتصوره للكون والحياة ،

---

(١) صحيح البخاري ، جـ ٢ ، ص ٢٩٣ .

(٢) سورة الحشر ، الآية : ٩ .

وأثرت في وجدانه وعواطفه، فأصبحت منسجمة مستجيبة لله ولرسوله مهما كلفها ذلك من ثمن، وقد ظهر ذلك الاتجاه حتى في صفوف النساء المؤمنات، فهذه «فاطمة» أخت «عمر بن الخطاب» رضي الله عنهما المسلمة عندما طلب منها عمر قبل إسلامه الصحيفة التي فيها سورة ـ طه ـ قالت له: إنك نجسٌ على شركك وإنه لا يمسه إلا المطهرون، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة فلما قرأ صدراً منها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه(١) فأسلم عمر رضي الله عنه.

وهذه أم المؤمنين أم حبيبة «رملة بنت أبي سفيان» رضي الله عنها لما أراد والدها «أبو سفيان»، عند قدومه وهو مشرك، أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ ثنته عنه وقالت: هذا فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك... إلخ (٢).

ـ وهكذا نجد أثر التنزيل المكيّ في بناء الشخصية الإيمانية القوية عند المسلمين الأوائل.

ـ وانتشار خبر الدعوة في كل اتجاه من أنحاء الجزيرة العربية، وإن كانت الاستجابة بطيئة، ولكنها عن قناعة وإيمان صادق.

ـ فهذا «ضماد الأزدي» يقدم مكة ـ وعندما بلغه خبر رسول الله ﷺ، جاء إليه وأسلم بعد قصة مثيرة، فبايع رسول الله ﷺ على

(١) السيرة النبوية لابن كثير، جـ ١، ص ٣٥.
(٢) السيرة النبوية، لابن كثير، جـ ٣، ص ٢٧٦.

الإسلام، فقال ﷺ وعلى قومك؟ فقال : وعلى قومي»[١] .

وهذا أبوذر الغفاري صاحب رسول الله ﷺ يقدم إلى مكة، فيسمع خبر الرسول ﷺ فيسلم [٢] ويأمره ﷺ أن يرجع إلى قومه معلماً وداعياً إلى الإسلام، فاستجاب له كثير منهم وأسلم من بقي منهم بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

وغير ذلك مما تقدم بيعة العقبة الأولى والثانية، حيث كانتا ثمرة من ثمار انتشار أخبار الدعوة من مكة المكرّمة وتنّزل الآيات بالهدى ودين الحق.

---

(١) انظر : صحيح مسلم، جـ ٢، ص ٥٩٣ .

(٢) انظر : صحيح البخاري، جـ ٢، ص ٣٢٢ وقد ورد الخبر مطولاً .

المبحث الثالث:

## التنزيل المدني وأثره في سير الدعوة وبناء المجتمع

سبق أن أشرنا في المبحث الثاني إلى أننا لا نقصد من هذه المباحث تحديد معالم المكي والمدني ودراستهما من حيث الضوابط والأنواع، وإنما نقصد أثر ذلك التنزيل على سير الدعوة وبناء المجتمع، وكيف اقتضت حكمة الله أن يسلك بقرآنه سبيل التدرج والارتقاء في تربية الأفراد والجماعات.

وفي هذا المبحث نرى أن واقع المسلمين قد تغيّر في المدينة المنورة فأصبح المسلمون جماعة مستقلة، ولأول مرة يكون لهم كيان وشوكة، ذلك أن رسول الله ﷺ قد استوثق لنفسه وأصحابه في بيعة العقبة مع الأنصار الذين آووه ونصروه واتبعوا النور الذي جاء به.

وكان من مقتضيات البيعة أن يمنع الأنصار رسول الله ﷺ مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم[1] .

وقد فهم الأنصار ذلك حتى قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري: يامعشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟؟ قالوا: نعم، ، قال: إنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس. . إلخ.

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير، جـ ٢، ص ١٩٨.

وإنما قال «العباس بن عبادة» ذلك ليشدّ العقد في أعناقهم ويستوثق للبيعة.

عندما قدم النبي ﷺ المدينة بدأ بأمور ثلاثة رئسة:

١ ـ بنى مسجده ليؤدي فيه مع المؤمنين الصلوات، وليكون بمثابة ندوة جامعة لهم يتعلمون فيها ويتشاورون ، وفيها يتحاكمون، فهو دار الشورى في السّلم والحرب، إضافة إلى كونه بيتاً من بيوت الله تعالى التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

٢ ـ آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فصاروا بهذه الأخوة جبهة واحدة متماسكة، تؤمن بالله وتدعو إلى الخير والفضيلة، وأصبحت رابطة العقيدة والأخوة في الله أقوى من رابطة الدم والوطن، واعتزت النخوة والحميّة الإسلاميّة فيما بينهم ضد أعدائهم، ولكن في دائرة العدل والتعاليم القرآنية ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١).

٣ ـ عقد النبي ﷺ معاهدة ـ جوار ـ مع اليهود الذين كانوا في المدينة، وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم، وشرط لهم..(٢) إلخ.

ولم يزل رسول الله ﷺ على عهده ثابتاً حتى نقض اليهود معاهدتهم بالتآمر على رسول الله ﷺ بالقتل وتحريض قريش وقبائل

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير جـ٢، ص ٣٢٠.

العرب على محاربة رسول الله ﷺ وتقديم المساعدات لهم، فيما يُعدُّ نقضاً صريحاً عملياً لتلك المعاهدة.

ومن هنا نعلم أن مسار الدعوة في المدينة المنورة قد اتخذ أبعاداً جديدة وارتاد آفاقاً واسعة، وأصبح واقع المسلمين في المدينة يختلف عن واقعهم في مكة المكرمة، الأمر الذي يتطلب تشريعات واسعة في العبادات والمعاملات وتنظيم العلاقات فيما بين المسلمين أنفسهم من جانب، وبينهم وبين أهل الكتاب من جانب آخر، وبين المسلمين والمشركين من جانب ثالث.

اقتضت إرادة الله أن يشرع لعباده ما يصلحهم ويقيم بينهم موازين العدل ويحدد العلاقات والمسؤوليات.

وقد تميّز التنزيل المدني باشتماله على دقائق التشريع وتفاصيل الأحكام.

والأحكام القرآنية: هي ما بينه الله تعالى في كتابه العزيز، أو بيّن أصوله من النظم التي يجب اتباعها في تنظيم علاقة الإنسان بربه وبالمخلوقين.

وتشمل: أحكام الصلاة والزكاة والصوم والحج واليمين والنذر وما إلى ذلك مما يدخل في دائرة العبادات التي تغذّي الإيمان وتنميّ ثمراته الطّيبة.

وتشمل : أحكام الزواج والطلاق وما يتبعهما من مهر ونفقة، ورضاعة ونسب، وعدة، ووصية، وإرث، وما إلىٰ ذلك مما يدخل في دائرة الأحوال الشخصية وأحكام الأسرة.

وتشمل: أحكام البيع والإجارة والرهن والمداينة وما إلىٰ ذلك مما يدخل في دائرة المعاملات الماليّة.

وتشمل: أحكام الجنايات والجرائم كالقتل والسرقة والإفساد في الأرض، والزنا، والقذف، وما إلىٰ ذلك مما يدخل في دائرة العقوبات.

وتشمل : أحكام الحرب والسّلم وما يتبعهما من غنائم وأسرىٰ، ومعاهدات وما إلىٰ ذلك مما يدخل في دائرة الأحكام الدولية العامة[1] .

وهكذا نجد أن جميع النظم المدنية، والجنائية، والحربية والاجتماعية، والدولية، والحقوق الشخصية، وسائر ضروب العبادات والمعاملات قد جاءت واضحة جليّة في التنزيل المدني كما في سورة البقرة والنساء والمائدة والأنفال والقتال والفتح والحجرات وغيرها من سور القرآن الكريم.

كما تناول التنزيل المدني أهل الكتاب من يهود ونصارىٰ، ودعاهم إلىٰ الإسلام، وناقشهم في عقائدهم الباطلة مبيّناً جنايتهم علىٰ الحق، وتحريفهم لكتب الله، وحاكمهم إلىٰ العقل والتأريخ في بعض القضايا، كدعواهم بأن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً أو نصرانياً، فقال تعالىٰ : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ

(١) انظر: إلىٰ القران الكريم، ص ٦ محمود شلتوت.

عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١) .

ويمكن أن نلخص أثر التنزيل المدني في سير الدعوة وبناء المجتمع في النقاط التالية :

١ ـ أنّ واقع المسلمين في المدينة المنورة قد تغيّر عنه في مكة المكرمة، فالجوار غير الجوار، والحالة غير الحالة، وقد جاء التنزيل المدني بالتطوير الجديد للمجتمع المسلم، ويشكل بنيته الأساسية في ترابط المجتمع ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١) ونظم العلاقات الأسرية، وحث على التضامن والتراحم بين فئات المجتمع المسلم وعالج قضاياه متدرجاً في التشريع حسب الحكمة ومقتضيات الأحوال.

٢ ـ أنّ المسلمين في المدينة المنورة قد أصبح لهم كيان وشوكة، فجاء التنزيل المدني لبناء ذلك المجتمع المسلم وتنظيم شئوونه بأحكام وتشريعات تفصيلية ، كما جاء بالأسس العامة والقواعد الكلية التي يندرج تحتها ماجدّ ويستجدّ من قضايا البشر جماعات وأفراداً في كل عصر ومصر إلى قيام الساعة .

٣ ـ جاء التنزيل المدني بالأسس والقواعد العامة لتعامل المسلمين مع غيرهم، وهو يعرف بالعلاقات الدولية، ويظهر ذلك فيما أبرمه الرسول ﷺ من معاهدات عند قدومه المدينة، وما صنعه في صلح

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٥ ـ ٦٧ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية: ١٠ .

الحديبية، وماكان يجري من معاهدات والتزامات مع بعض قبائل العرب، قبل الفتح، ومع أهل الكتاب قبل الفتح وبعده كنصارىٰ نجران.

٤ ـ أخذت الدعوة في المدينة المنورة بعداً عالمياً، فاتسع نطاقها وارتادت آفاقاً واسعة، فقد بعث الرسول ﷺ البعوث بعد رجوعه من عام الحديبية إلىٰ ملوك الآفاق، وكتب إليهم يدعوهم إلىٰ الإسلام ويبلغهم رسالة ربه، وكان في أواخر سنة ست من الهجرة كماذكره الواقدي، وذكر البيهقي ذلك بعد غزوة مؤتة، قال الحافظ ابن كثير في كتاب السيرة النبوية: (ولا خلاف بينهم أن بدء ذلك كان قبل فتح مكة وبعد الحديبية)[1] إلخ، وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كتب إلىٰ كسرىٰ، وقيصر، وإلىٰ النجاشي وإلىٰ كل جبار ـ يدعوهم إلىٰ الله عزّ وجل، وليس بالنجاشي الذي صلىٰ عليه النبي ﷺ[2].

ـ والنجاشي الذي صلىٰ عليه النبي ﷺ هو «أصحمة بن بحر»[3] الذي آمن بالنبي ﷺ، وربما كان يكتم إسلامه، ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشي: (**مات اليوم رجل صالح، قوموا، فصلّوا على أخيكم أصحمة**)[4].

---

(١) السيرة النبوية، جـ ٣، ص ٤٩٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، جـ ٣، ص ١٣٩٧.

(٣) ويروي أصحمة بن أَبْجر.. انظر زاد المعاد جـ ١ ص ١٦ والإصابة جـ ١ ص ١٧٧ وحياة الصحابة جـ ١، ص ١٢٨.

(٤) صحيح البخاري، جـ، ص ٣٢٥.

وقد بعث النبي ﷺ عمرو بن أميّة الضمري إلى النجاشي، والنجاشي «علمٌ» لكل من ملك الحبشة، قال أبومحمد بن حزم: إن هذا النجاشي، الذي بعث إليه رسول الله ﷺ «عمر بن أمية الضمري» لم يُسلم وقد مال إلى ذلك ابن القيم في كتابه «زاد المعاد»(١).

وبعث النبي ﷺ «دحية الكلبي» إلى قيصر ملك الروم، «هرقل» وقدهمّ بالإسلام ولم يسلم على الصحيح.

كما بعث النبي ﷺ «حاطب بن أبي بلتعة» إلى المقوقس ملك الإسكندرية عظيم القبط، فقال خيراً ولم يسلم.

وبعث «عبدالله بن حذافة السَّهمي» إلى كسرى، واسمه «أبرويز بن هرمز بن أنو شروان» فمزق كتاب النبي ﷺ فدعا عليه الرسول ﷺ قائلاً: (اللهم مزّق ملكه) فمزق الله ملكه وملك قومه(٢).

وهكذا بعث النبي ﷺ كتباً إلى الملوك والأمراء والأساقفة، يدعوهم إلى الإسلام.

بعث إلى أسقف الروم بالقسطنطينية، وبعث إلى أساقفة (نجران)، كما بعث إلى «المنذر بن ساوى العبدي» عامل كسرى على البحرين، وبعث إلى ملوك عُمان ومن كان منهم بالبحرين، كما بعث إلى أهل اليمن كتاباً عاماً، وكتب إلى يهود خيبر، وغير ذلك من الكتب والرسائل التي كان يتعهد بها الأقطار في سبيل إبلاغهم دعوة الإسلام.

---

(١) زاد المعاد، جـ ١، ص ١٢٠.

(٢) زاد المعاد، جـ ٢ ص ١٢١.

وبهذا تكون دعوة الإسلام قد تجاوزت الجزيرة العربية إلى العالم الخارجي في حياة النبي ﷺ. . ، وأخذت بعداً عالمياً ينسجم مع عالميتها وكونها للناس أجمعين، بل للثقلين الجن والإنس كما دلت عليه نصوص القرآن والسنة ، كما تقدّم.

# الفصل الثالث

## مناسبات السور والآيات ودلالاتها على الأحكام

ويشتمل هذا الفصل على المباحث التالية:

- المبحث الأول: تناسب السور.
- المبحث الثاني: تناسب الآيات .
- المبحث الثالث: دلالات التناسب على الأحكام .

## المبحث الأول:

# تناسب السّور

علم المناسبات بين السور والآيات من العلوم الدقيقة التي تحتاج إلىٰ فهم وتذوق لنظم البيان القرآني، وله علاقة وثيقة بالتفسير، حتىٰ قيل: إن نسبة هذا العلم من التفسير، نسبة علم البيان من النحو(١).

وقد أفرده بالتصنيف العلاّمة (أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي) المتوفىٰ سنة ٧٠٨هـ، وهو شيخ أبي حيان، واسم كتابه (البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن)، ثم صنف فيه العلامة (برهان الدين البقاعي) المتوفىٰ سنة ٨٨٥هـ كما في البدر الطالع(٢)، وسمّىٰ كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، ثم السيوطي في كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور)(٣).

والمناسبة في اللغة: المقاربة والمشاكلة.

وفي الاصطلاح: هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه.

وفي كتاب الله: تعني مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، وكذلك الآيات، تعني الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها.

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. للبقاعي، جـ ١، ص ٦.
(٢) البدر الطالع، جـ ١، ص ١٩.
(٣) انظر: الإتقان للسيوطي، جـ ٣، ص ٣٢٢.

وقد عرّف الإمام (بدر الدين الزركشي) المناسبة فقال :

«المناسبة : أمر معقول، إذا عُرض على العقول تلقته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتيمها، ومرجعها ـ والله أعلم ـ إلى معنىً مّا رابط بينهما : عام أو خاص، عقليّ أو حسيّ أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر، وفائدته : جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوي بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء»[١] .

وأول من أظهر علم المناسبة : هو الإمام (أبوبكر عبدالله بن محمد النيسابوري) المتوفى سنة ٣٢٤هـ.

قال الشيخ أبوالحسن الشهراباني : «أوّل من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبوبكر النيسابوري، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية : لِمَ جُعلتْ هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟، وكان يزري علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة . . اهـ[٢] .

وقال الإمام فخر الدين الرازي : «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات و الروابط»[٣] .

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي، جـ ١، ص ٣٥ـ٣٦ .

(٢) البرهان للزركشي، جـ ١، ص ٣٦ .

(٣) انظر : مفتاح السعادة، جـ ٢، ص ٥٢٣ .

والكلام عن مناسبات السور مبني على أن ترتيب السور توقيفي، وليس اجتهاد الصحابة، وهذا هو الذي يترجح من أقوال العلماء، وقد مال الإمام الزركشي في البرهان إلى أن الخلاف بين العلماء في ذلك لفظيّ لأن القائل إنه من فعل الصحابة يقول: إن النبي ﷺ رمز إليهم بذلك لعلمهم بأسباب النزول ومواقع كلماته، ولهذا قال الإمام مالك: «إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ ـ مع قوله ـ بأن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة ـ فآل الخلاف إلى أنه: هل هو بتوقيف قوليّ أو بمجرد استناد فعلي»(١) .

ومن الأدلة على أنه توقيفيّ ـ ما رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، إنهنّ من العتاق الأول، وهنّ من تلادي (٢) فذكرها نسقاً كما استقر ترتيبها.

وقال أبوجعفر النحّاس: المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ.

وقال السيوطي: ومما يدل على أنه توقيفي، كون الحواميم رتبت ولاءً، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاءً، بل فصل بين سورها، وفصل بين طسم الشعراء وطسم القصص ـ بطس مع أنها أقصر منها، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبحات ولاءً، وأخرت طس عن القصص.

---

(١) انظر: البرهان للزركشي، جـ ١، ص ٢٥٧ والإتقان للسيوطي جـ ١، ص ١٧٧.

(٢) صحيح البخاري، باب تأليف القرآن، جـ ٣، ص ٢٢٧، والتليد: المكتسب قديماً وخلافه: الطارف والطريف: أي الحديث. انظر مختار الصحاح مادة [تلد].

ثم قال: والذي ينشرح له الصدر، ما ذهب إليه البيهقي، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا براءة والأنفال»[١].

وأما ما ورد في صحيح مسلم عن حذيفة قال: (صلّيت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح سورة البقرة، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها[٢] إلخ)، فقد أجيب عن ذلك بأنه ربما أريد به التوسعة على الأمة وبيان الجواز، لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب[٣].

وقال الإمام محمود بن حمزة الكرماني[٤] في كتابه: (البرهان في توجيه متشابه القرآن) ما نصّه: «أوّل القرآن سورة الفاتحة ثم البقرة، ثم آل عمران، على هذا الترتيب إلى سورة الناس، وهكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ، وهو على هذا الترتيب كان يعرضه عليه الصلاة

---

(١) الإتقان، جـ ١، ص ١٧٩.

(٢) صحيح مسلم، جـ ١، ص ٥٣٦.

(٣) انظر: البرهان للزركشي، جـ ١، ص ٢٥٧، والإتقان جـ ١، ص ١٧٩.

(٤) الكرماني هذا، ليس هو شارح صحيح البخاري - وإنما هو تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، ولم يترجم له سوى ياقوت الحموي في معجم الأدباء جـ ١٩، ص ١٢٥. وقال عنه: أحد العلماء الفهماء النبلاء، صاحب التصانيف والفضل، كان عجيباً في دقة الفهم وحسن الاستنباط، ولم يفارق وطنه، ولم يرحل، وكان في حدود الخمسمائة وتوفي بعدها، - وقد نقل هذه الترجمة بحروفها صاحب «بغية الوعاة وإنباه الرواة» وابن الجزري، والذهبي في طبقات القراء، والداودي والسيوطي في طبقات المفسرين ولم يزيدوا عليها شيئاً.

والسلام على جبريل عليه السلام، كل سنة، أي، ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه الصلاة والسلام في السنة التي توفي فيها مرتين[١]، وكان آخر الآيات نزولاً ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[٢]، فأمره جبريل أن يضعها بين آيتي الربا والدين..»[٣].

وقال أبوبكر بن الأنباري: «أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرّق في بضع وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جواباً لمستخبر، ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع السورة والآية، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كله عن النبي ﷺ، فمن قدّم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم الآيات»[٤].

وقد أجاب السيوطي في كتابه «تناسق الدرر في تناسب السور» بأن القائلين بعدم التوقيف في ترتيب السور احتجوا باختلاف مصحف أبيّ وابن مسعود، ولو كان توقيفياً لما وقع فيهما اختلاف كما لم يقع في ترتيب الآيات.

قال السيوطي: «وقد منّ الله عليّ بجواب لذلك نفيس، وهو: أن القرآن وقع فيه النسخ للرسم كثيراً، حتى لسور كاملة، وآيات كثيرة،

---

(١) انظر هذا الحديث في صحيح البخاري جـ ٣، ص ٢٢٧، وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس، جـ ١، ص ٢٣١.

(٢) قاله ابن عباس، انظر. تفسير الطبري، جـ٦ ص ٤، وتفسير القرطبي، جـ ١، ص ٦٠.

(٣) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٤) البرهان للزركشي، جـ ١، ص ٢٦٠.

فلا بدع من أن يكون الترتيب العثماني هو الذي استقر في العرضة الأخيرة، كالقراءات التي في مصحفه، ولم يبلغ ذلك أبياً وابن مسعود، كما لم يبلغهما نسخ ما وضعاه في مصاحفهما من القراءات التي تخالف المصحف العثماني، ولذلك كتب أبيّ في مصحفه سورة الحفد، والخلع وهما منسوختان»(١) ا. هـ.

وسواء أكان ترتيب السور توقيفياً أم اجتهادياً من الصحابة، فقد انعقد الإجماع على ترتيب السور في المصحف على ماهو عليه الآن من عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى اليوم، وليس لأحد من المسلمين مخالفة ذلك؛ لأن ترتيب السور إن كان بتوقيف من النبي ﷺ - كما هو الظاهر - فقد وضع من لدن حكيم خبير، وإن كان ترتيبها اجتهادياً من الصحابة، فهم أعلم الناس بترتيب السور ووضع كل سورة في مكانها المناسب من السور الأخرى؛ لأنهم أهل البلاغة والدراية بضروب البيان من جانب؛ وهم أعلم الناس بمقاصد القرآن وتناسب سوره وآياته من جانب آخر.

ولم أرَ فيما اطلعت عليه، أنَّ الرهط الذين كلّفهم عثمان بن عفان رضي الله عنه بجمع المصحف قد بحثوا في مناسبات السور والآيات، مما يدل على أنَّ الوضع مستقر في أذهانهم بتوقيف مسبق، والعلم عند الله تعالى.

يقول الدكتور (محمد عبدالله دراز) في كتابه (النبأ العظيم) في أثناء حديثه عن تناسب الآيات والسور: «إن كانت بعد تنزيلها قد

(١) تناسق الدرر ص٧٢ - ٧٣، وانظر: الإتقان جـ ١، ص ١٨٤.

جمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيانٍ كان قائماً على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه، قُدِّرت أبعاده، ورُقمت لبناته، ثم فُرِّق أنقاضاً، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشدّ بعضه بعضاً كهيئته أوّل مرة»(١) .

واعلم أن تناسب كل سورة مع ماقبلها أو ما بعدها يظهر للعلماء المهتمين بتتبع ذلك وتأمله، وقد يخفى على كثير من طلاب العلم أحياناً، كما قال الإمام الزركشي: «وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى»(٢) .

وفيما يلي نماذج من مناسبات السور:

**الأول:المناسبة بين سورة الفاتحة وسورة البقرة:**

افتتح الله سبحانه وتعالى كتابه بسورة الفاتحة ؛ لأنها جمعت مقاصد القرآن الكريم، ولذلك كان من أسمائها: أم القرآن، وأم الكتاب، والأساس، والسبع المثاني، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾(٣) وعلى هذا أكثر المفسرين من الصحابة والتابعين.

---

(١) النبأ العظيم، ص ١٤٩ .

(٢) البرهان للزركشي، جـ ١، ص ٣٨ .

(٣) سورة الحجر، الآية: ٨٧ .

وقد أخرج «البيهقي» في «شعب الإيمان» عن الحسن البصري قوله: «إنّ الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن في المفصل، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة»[١] .

واعلم أنّ المناسبة بين سورة البقرة وسورة الفاتحة واضحة جداً، ولهذا تحدث المهتمون بعلم المناسبات عن هاتين السورتين كثيراً، وتظهر المناسبة جليّة فيما يلي:

(أ) أن الله تعالىٰ لما ذكر دعاء أهل الحمد والإيمان أن يهديهم صراطه المستقيم في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ في سورة الفاتحة، وصراط الله، هو كتابه المبين، كما قال ابن مسعود وغيره[٢] قال الله: قد أعطيتكم ما طلبتم: ذلك الكتاب لاريب فيه، فاتبعوه فإنه الصراط المستقيم.

(ب) أنّ الله تعالىٰ ذكر في سورة الفاتحة طوائف ثلاثاً وأشارإلىٰ هذه الطوائف في أوّل سورة البقرة، فذكر الذين هم علىٰ هدىً من ربِّهم، وهم المنعم عليهم، وذكر الذين اشتروا الضلالة بالهدىٰ، وهم الضالون، كما ذكر الذين باءوا بغضب من الله، وهم المغضوب عليهم.

---

(١) شعب الإيمان: ٢، ورقة ٨٧ دار الكتب المصرية، وانظر: تناسق الدرر، للسيوطي، ص ٧٤.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري، جـ ١، ص ١٧٣.

وقد ذكر السيوطي في كتابه «تناسق الدرر» قريباً من هذا ، كما أشار إلى بعض هذه المعاني كل من : بدر الدين الزركشي ، والبقاعي في كتابيهما[١] .

(ج) أنّ الله تعالى جمع في سورة الفاتحة مقاصد القرآن الرئسة من أصول التوحيد ، والإيمان بالمبدأ والمعاد ، وأصول العبادات ، والتعامل والأخلاق ، وطلب الهداية إلى الله باتباع طريق الأنبياء والصالحين من عباده ، والبعد عن طريق أهل الضلال والانحراف ، فهذه سورة جامعة لأصول الإسلام ، وقد اشتملت سورة البقرة على تفصيل ما أجمل في سورة الفاتحة ، فكانت المناسبة بينهما : التفصيل بعد الإجمال ، أي إنّ ما أجمل في سورة الفاتحة قد فُصِّل وبُيِّن في سورة البقرة .

ـ وقد ذكر السيوطي في كتابه «تناسق الدرر» ستة أوجه ظهرت له في مناسبات سورة البقرة لما قبلها وما بعدها ، وقال : إن القاعدة التي استقر بها القرآن : أنّ كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها ، وشرح له ، وإطناب لإيجازه ، وقال : وقد استقر معي ذلك في غالب سور القرآن ، طويلها وقصيرها ، وسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل مجملات الفاتحة .

---

(١) انظر : البرهان للزركشي ، جـ ١ ، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ ، ونظم الدرر للبقاعي جـ ١ ، ص ٧٧ .

وأرى من المناسب أن أذكر وجهاً واحداً من الأوجة الستة، التي ذكرها السيوطي، مثالاً لتناسب سورة البقرة مع الفاتحة ليتضح منهج السيوطي فيما قرره من تناسب في سور القرآن، قال رحمه الله: فقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تفصيله: ما وقع فيها من الأمر بالذكر في عدة آيات، ومن الدعاء في قوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية: وفي قوله: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وبالشكر في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تفصيله قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ولذلك افتتحها بقصة خلق آدم الذي هو مبدأ البشر(١) وهو أشرف الأنواع من العالمين، وذلك شرح لإجمال ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قد أومأ إليه بقوله في قصة آدم: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وفي قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصّة بقوله: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ﴾ فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾

---

(١) وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إلى قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ الآيات، ٣٠ ـ ٣٧.

وذلك لكونه رحماناً وما وقع في قصة بني إسرائيل : ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ إلى أن أعاد الآية بجملتها في قوله: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وذكر آية الدين، إرشاداً للطالبين من العباد، ورحمة بهم، ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر ومالا طاقة لهم به، وختم بقوله : ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ وذلك شرح قوله ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تفصيله : لما وقع من ذكر يوم القيامة في عدة مواضع، ومنها قوله: ﴿إِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ والدين في الفاتحة ، الحساب في البقرة يقصد بذلك أن كلمة ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ في الفاتحة ، تعني يوم الحساب، الذي أشار إليه في سورة البقرة بقوله ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفروعية، وقد فصّلت في البقرة أبلغ تفصيل، فذكر فيها: الطهارة والحيض والصلاة ، والاستقبال، وطهارة المكان والجماعة وصلاة الخوف ، وصلاة الجمع، والعيد، والزكاة بأنواعها كالنبات ، والمعادن ، والاعتكاف ،والصوم ،وأنواع الصدقات والبر، والحج، العمرة، والبيع ، و الإجارة ،والميراث، والعدة،والرضاع والنفقات، و القصاص، والدّيات، وقتال البغاة، والردة، والأشربة، والجهاد، والأطعمة، والذبائح والأيمان والنذور، والقضاء، والشهادات، والعتق.

فهذه أبواب الشريعة كلها مذكورة في هذه السورة وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: شامل لعلم الأخلاق، وقد ذكر منها في هذه السورة الجمّ الغفير، من التوبة، والصبر، والشكر، والرضى، والتفويض،

والذكر، والمراقبة، والخوف وإلانة القول وقوله : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلىٰ آخره، تفصيله: ماوقع في السورة من ذكر طريق الأنبياء، ومن حاد عنهم من النصارىٰ ، ولذا ذكر في الكعبة أنها قبلة إبراهيم، فهي من صراط الذين أنعم الله عليهم، وقد حاد عنها اليهود والنصارىٰ معاً، ولذلك قال في شأنها: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تنبيهاً علىٰ أنها الصراط الذي سألوا الهداية إليه.

ثم ذكر: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ وهم المغضوب عليهم والضالون الذين حادوا عن طريقهم، ثم أخبر بهداية الذين آمنوا إلىٰ طريقهم، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فكانت هاتان الآيتان تفصيل إجمال ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلىٰ آخر السورة (١) .

ونكتفي بهذا القدر في مناسبات سورة البقرة والفاتحة.

**ثانيا:مناسبات سورة آل عمران لسورة البقرة:**

هل القاعدة التي ذكرها السيوطي: في أن كل سورة من القرآن تفصيل لكثير مما أجمل في السور التي قبلها مطردة أم لا؟

لقد قرر الزركشي في كتابه البرهان وجه المناسبة بين الفاتحة والبقرة وآل عمران، بقوله: «وسورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية، والالتجاء إليه في دين الإسلام، والصيانة عن دين اليهود والنصرانية، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين، وآل عمران مكملة لمقصودها،

(١) تناسق الدرر، ص ٧٨ ـ ٨١.

فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم»[(١)] .

وذهب السيوطي في تقرير قاعدته التي يرى فيها شرح كل سورة لإجمال ما في السورة قبلها ، فأورد في كتابه «تناسق الدرر» أمثلة كثيرة للمناسبة بين سورة البقرة وآل عمران ، وذلك في عدة مواضع .

منها: أنه ذكر في البقرة إنزال الكتاب مجملاً ، وقسّمه في آل عمران إلى آيات محكمات ، ومتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله ، وذلك قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ .

ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ، وقال في آل عمران: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ مفصلاً ، وصرّح بذكر الإنجيل في آل عمران ؛ لأن السورة خطاب للنصارى ، ولم يقع التصريح به في سورة البقرة بطولها ، وإنما صرّح فيها بذكر التوراة خاصّة ؛ لأنها خطاب لليهود .

ومنها: أن ذكر القتال وقع في سورة البقرة مجملاً بقوله : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقوله : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ وفصّلت في آل عمران قصة أحد بكمالها وذلك في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ إلى قوله : ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ .

---

(١) البرهان للزركشي ، جـ ١ ، ص ٢٦١ .

ومنها: أنه أوجز في البقرة ذكر المقتولين في سبيل الله بقوله: ﴿أحياء ولكن لا تشعرون﴾ وزاد في آل عمران: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ وذلك إطناب عظيم.

ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ وقال في آل عمران: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فزاد في آل عمران إطناباً وتفصيلاً.

ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ﴾ وذلك إنما يدل على الوجوب إجمالاً، وفصّله في آل عمران بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ وزاد بيان شرط الوجوب بقوله: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ ثم زاد تكفير من جحد وجوبه بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(١).

هذه عدة مواضع من مواضع كثيرة، وقعت في البقرة وفي آل عمران تفصيلها.

ومن الربط الوثيق بين الفاتحة والبقرة وآل عمران: أن الصراط المستقيم ذكر مجملاً في الفاتحة، ثم عينه في أوّل البقرة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ ثم عين طريق السير عليه في آل عمران بقوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

---

(١) تناسق الدرر: للسيوطي، ص ٨٣ ـ ٨٥. بتصرف

**ثالثاً: المناسبة بين سورة آل عمران وسورة النساء:**

تظهر المناسبة بينهما من الوجوه التالية:

١ ـ أنَّ آل عمران ختمت بالأمر بالتقوىٰ، في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] وافتتحت سورة النساء بالأمر بالتقوىٰ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [2].

قال السيوطي: «وهذا من أكبر وجوه المناسبات في ترتيب السور، وهو نوع من البديع يسمىٰ تشابه الأطراف» [3].

٢ ـ أنَّ سورة آل عمران ذكر فيها قضية[ أحد] مستوفاة، وذكر في سورة النساء ذيلها، وهو قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾[4] فإنها نزلت لما اختلف الصحابة فيمن رجع من المنافقين في غزوة أحد، فقال فريق بقتلهم، وقال فريق بعدم ذلك، فنزلت الآية كما في صحيح البخاري[5].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) انظر: تناسق الدرر للسيوطي، ص ٩٠.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٨.

(٥) صحيح البخاري، كتاب التفسير، جـ ٣، ص ١٢٠.

٣ ـ في آل عمران ذكرت الغزوة التي بعد أحد بقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ (١).

وأشير في سورة النساء إليها بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ (٢).

قال السيوطي: «وبهذين الوجهين عُرف أنَّ تأخير النساء عن آل عمران أنسب من تقديمها عليها في مصحف ابن مسعود، لأن المذكور هنا ذيل ما في آل عمران، ولاحقه وتابعه فكانت بالتأخير أنسب» (٣).

والذي يظهر أن السيوطي لا يتقيد بالقاعدة التي يرى فيها: أن كل سورة شارحة ومفصلة لما أجمل في السورة التي قبلها ـ فكأنه يرى أن المجمل في سورة ما قد يتأخر أحياناً تفصيله إلى سورتين أو أكثر، المهم أن التفصيل والإيضاح يكونان في السور التالية وليس في السور المتقدمة، ولهذا يقول عن سورة النساء: إنها شارحة لبقية مجْملات سورة البقرة، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة منها: أنَّه أجمل في سورة البقرة آية اليتامى، وآية الوصية، والميراث والوارث، في قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ وفصّل ذلك في سورة النساء أبلغ تفصيل، انظر الآيات: (٧, ١١، ١٢، ٣٣، ١٧٦) من سورة النساء.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٤.

(٣) تناسق الدرر، ص ٩١.

ويمكن أن نستمر في سرد مناسبات جميع سور القرآن الكريم بعضها لبعض مرتبة، لولا خشية الإطالة، ولهذا سأقتصر على بقية المناسبات التالية مثالاً على بقية سور القرآن الكريم.

**رابعاً: المناسبة بين سورة ﴿المؤمنون﴾ وسورة ﴿النور﴾:**

- وجه اتصال هاتين السورتين أن الله تعالى لما قال في سورة المؤمنون: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، ذكر في سورة النور أحكام من لم يحفظ فرجه، من الزاني والزانية، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغضّ البصر، وأمر فيها بالنكاح حفظاً للفروج، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف وحفظ فرجه، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا.

- قال السيوطي بعدالإشارة إلى ماتقدم من المناسبة بين السورتين «ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط، ولا تناسق أبدع من هذا النسق»(١).

**خامساً: المناسبة بين سورتي الطلاق والتحريم:**

هاتان السورتان متآخيتان لافتتاح كل منهما بخطاب النبي ﷺ، وسورة الطلاق مشتملة على طلاق النساء، وسورة التحريم اشتملت على تحريم الإيلاء، وبينهما من المناسبة مالا يخفى.

---

(١) تناسق الدرر، ص ١١٩.

ولما كانت سورة الطلاق في خصام نساء الأمَّة ، ذكر في سورة التحريم خصومة نساء النبي ﷺ إعظاماً لمنصبهّن عن أن يذكرن مع سائر النسوة ، فأفردن بسورة خاصة[1] .

(١) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ، جـ ٣ ، ص ٤١ ، وتناسق الدرر للسيوطي ، ص ١٤١ .

## المبحث الثاني:

# تناسب الآيات

الكلام عن تناسب الآيات القرآنية في محيط كل سورة، وعلاقة كل آية بما قبلها أو مابعدها بأي وجه من وجوه الارتباط، هذا الكلام مبني على أن ترتيب الآيات القرآنية توقيفي، وقد دلتّ النصوص المترادفة على ذلك، ونقل الإجماع غير واحد من أهل العلم، منهم الإمام بدر الدين الزركشي في البرهان، فقد قال: «فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك، ولاخلاف فيه، ولهذا لايجوز تعكيسها»(١) ، وقال أبوجعفر بن الزبير في مناسباته: «ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين»(٢) ، وقال القاضي أبوبكر في الانتصار: ترتيب الآيات أمر واجب، وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: «ضعوا آية كذا في موضع كذا»(٣) .

---

(١) البرهان للزركشي، جـ ١، ص ٢٥٦.

(٢) انظر الإتقان للسيوطي، جـ ١، ص ١٧٢.

(٣) الإتقان، جـ ١، ص ١٧٥، ولعله يشير إلى ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول ﷺ جالساً، إذ شخص ببصره ثم صوبه حتى كاد أن يلزقه بالأرض، قال: ثم شخص ببصره، فقال: أتاني جبريل عليه السلام فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مسند الإمام أحمد جـ ٤، ص ٢١٨.

فإذا تقرر أن ترتيب الآيات في سورها توقيفي عن النبي ﷺ بوحي يوحىٰ إليه، فاعلم أن هذا الانتظام والتناسق بين آيات القرآن الكريم لم يكن مصادفة، ولم يُوضع كيفما اتفق، بل عن علم وحكمة من لدن حكيم خبير، ولهذا كان من وجوه إعجاز القرآن نظمه الباهر في ارتباط آياته بعضها ببعض حتىٰ أنها كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني، وهذا هو الذي أدهش أساطين البلاغة والبيان من قريش، ولم يقدروا علىٰ معارضته أو الطعن البلاغي في أسلوبه وبيانه.

واعلم أن العلماء الذين تحدثوا عن تناسب سور القرآن وارتباط بعضها ببضع يقولون بتناسب الآيات القرآنية من باب أولىٰ، قال الشيخ جمال الدين الزملكاني[1]، بعد ذكره مناسبة بعض السور: «وإذا ثبت هذا بالنسبة إلىٰ السور، فما ظنّك بالآيات وتعلق بعضها ببعض! بل عند التأمل يظهر أن القرآن كله كالكلمةالواحدة»[2]، وقد ذهب بعض العلماء ومنهم العزّ بن عبدالسلام[3]، إلىٰ أنّ المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متّحد، مرتبط أوله بآخره، فإن وقع علىٰ أسباب مختلفة لم يُشترط فيه ارتباط أحدهما

---

(١) هو كمال الدين محمد بن عبدالواحد الزملكاني الشافعي، صاحب كتاب: «البرهان في إعجاز القرآن» توفي سنة ٧٢٧هـ، انظر: «شذرات الذهب» جـ٦، ص ٧٨.

(٢) انظر البرهان للزركشي، جـ١، ص ٣٩.

(٣) هو الإمام المجاهد ـ عبدالعزيز بن عبدالسلام المشهور بالعزّ، والملقب بسلطان العلماء، عالم مفسر، توفي بمصر سنة ٦٦٠هـ، انظر «طبقات المفسرين» للداودي جـ١، ص٣٠٨ ـ ٣١٣.

بالآخر، ثم قال: ومن ربط ذلك فهو متكلّف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عنه حسن الحديث، فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة، في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض إذ لا يحسن أن يرتبط تصرّف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض، مع اختلاف العلل والأسباب، كتصرّف الملوك والحكام والمفتين، وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة وليس لأحد أن يطلب ربط بعض التصرفات مع بعض، مع اختلافها في نفسها واختلاف أوقاتها[1].

بينما يذهب كثير من العلماء إلى لب المناسبة والتأمل في سياق الآيات، ولهذا قال الشيخ وليّ الدين الملوي: قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة، وفصل الخطاب، أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً، فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، وحافظ القرآن العظيم لو استُفْتي في أحكام متعددة، أو ناظر فيها، أو أملاها لذكر آيات كل حكم على ماسئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتلُ كما أفتى، ولا كما نزل مفرّقاً، بل كما أنزل جملةً إلى بيت العزة، ومن المعجز البيّن أسلوبه، ونظمه الباهر، فإنه ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2].

---

(١) البرهان للزركشي جـ ١، ص ٣٧.

(٢) سورة هود، الآية: ١.

قال: «والذي ينبغي في كل آية أن يبحث كل شيء عن كونها مكملةلما قبلها أومستقلة، ثم المستقلة، ماوجه مناسبتها لماقبلها؟ ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»(١) .

أما المنهج العام لمعرفة مناسبات الآيات في القرآن الكريم، فقد نقله السيوطي في الإتقان عن بعض المتأخرين فقال: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن، هو أنك تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدّمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى مايستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام أواللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة سورة(٢).

---

(١) انظر البرهان، للزركشي، جـ ١، ص ٣٧، والإتقان للسيوطي، جـ ٣، ص ٣٢٣.

(٢) الإتقان، جـ ٤، ص ، ٩٧٧

**أنواع التناسب بين آيات القرآن ـ ومنها ما يلي:**

**أولاً: مناسبة فواتح السور وخواتمها:**

ويظهر ذلك واضحاً في كثير من سور القرآن الكريم، فلو نظرت إلىٰ سورة (البقرة)، وجدت أولها يتحدث عن صفات المتقين المؤمنين ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(١)، ثم ختمت السورة بالحديث عن الإيمان كما بُدئت به، فقال تعالىٰ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(٢)، وهكذا اختتمتْ ببيان عقيدة المؤمنين علىٰ نحو ما بدأت في بيان أوصاف المتقين، وبذلك يؤكد آخرها أولها، ويؤسس أولها لآخرها، وتصير السورة كتلة واحدة.

قال الإمام فخر الدين الرازي في بيان هذا التناسب: (بدأ في السورة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، وبيّن في آخر السورة أن الذين مدحهم في أوّل السورة هم أمة محمد ﷺ فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ وهذا هو المراد بقوله في أوّل السورة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ثم قال ههنا: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وهو المراد بقوله في أول

(١) سورة البقرة، الآية: ٣ ـ ٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

السورة : ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ثم قال ههنا : ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة : ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرعهم إلى ربهم في قولهم : ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى آخر السورة ، وهو المراد بقوله في أوّل السورة : ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها(١) .

وانظر مثلاً إلى سورة المؤمنون ، حيث قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٢) وقال في نهاية السورة : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾(٣) ، ويمكن أن يكون من قبيل المقابلة بين الفريقين أو المضادة بينهما ، كذكر الرحمة بعد العذاب ، والرغبة بعد الرهبة ، وهذا نوع من العلاقة بين الآيات القرآنية ، ولهذا قال الزمخشري بعد ذكر المناسبة : «فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة»(٤) .

وانظر قوله تعالى في أول سورة (ص) : ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾(٥) وقال في آخر السورة : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾(٦) .

ومثله سورة (القلم) بدأها بقوله : ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (٧)

---

(١) تفسير الفخر الرازي، جـ ١ ، ص ١٣٧ .

(٢) سوة المؤمنون، الآية : ١ .

(٣) سورة المؤمنون، الآية : ١٢٧ .

(٤) الكشاف ، للزمخشري، جـ ٣، ص ٤٥ .

(٥) سورة ص ، الآية : ١ .

(٦) سورة ص ، الآية : ٨٧ .

(٧) سورة القلم، الآية : ٢ .

وختمها بقوله : ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾(١) .

**ثانياً: مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ماقبلها:**

وأمثلة ذلك كثيرة فمنها :

أنه لما اختتم سورة النساء بالأمر بتوحيد الله في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ إلخ ، والعدل بين الناس في المواريث ، أكد ذلك بقوله في أول سورة المائدة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ إلخ .

ومنها افتتاح سورة الأنعام بالحمد ، فإنه مناسب لختام سورة المائدة ، التي ذكر فيها فصل القضاء بقوله : ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾(٢) ، كما قال تعالى : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣) .

ومنها افتتاح سورة الحديد بالتسبيح في قوله تعالى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٤) ، فإنه مناسب لختام سورة الواقعة التي ورد الأمر به في قوله تعالى : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾(٥) .

---

(١) سورةالقلم، الآية : ٥١ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ١١٩ .

(٣) سورة الزمر ، الآية : ٧٥ .

(٤) سورة الحديد ، الآية : ١ .

(٥) سورة الواقعة ، الآية : ٩٦ .

ومنها افتتاح سورة قريش ﴿لإيلاف قُرَيْشٍ﴾ (١) ، فإنه مناسب لختام سورة الفيل : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾(٢) قال الأخفش : (٣) اتصالها بها من باب : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾(٤) .

ثالثاً : اختصاص كل سورة من السور المفتتحة بالحروف المقطعة بما بدأت به ؛ ذلك لأن كل سورة بدأت بحرف فإن هذا الحرف يغلب ويكثر في أثناء السورة ومثل ذلك سورة (ق) تكرر فيها حرف القاف أكثر من خمسين مرة ، وسورة يونس تكررت الراء فيها قرابة مائتي مرة ، وسورة (ن) تكررت النون فيها أكثر من مائة وعشرين مرة ، ويغلب هذا في جميع السور التي بدأت بالحروف المقطّعة .

**رابعاً: التناسب بالتنظير والتضاد والاستطراد والتخلص إلى الغرض:**

واعلم أنه عند النظر للربط بين الآية والتي تليها لابد من التأمل ومعرفة جهة الربط ويظهر ذلك من سياق الكلام ، فإنّ ذكر الآية بعد الأخرىٰ إما أن يكون ظاهر الارتباط ، وذلك لتعلقّ بعضه ببعض وعدم تمامه بالآية الأولىٰ ، وكذلك إذا كانت الآية الثانية للأولىٰ علىٰ وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل ، وهذا القسم من الارتباط ، واضح لا كلام فيه ، كما ذكره الزركشي في البرهان .

---

(١) سورة قريش ، الآية : ١ .

(٢) سورة الفيل ، الآية : ٥ .

(٣) انظر البحر المحيط ، جـ ٨ ، ص ٥١٣ .

(٤) سورة القصص ، الآية : ٨ .

**وإما ألاّ يظهر الارتباط:** بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرىٰ، وأنها خلاف النوع المبدوء به، وفي هذه الحالة فإما أن تكون معطوفة علىٰ الأولىٰ بحرف من حروف العطف المشتركة في الحكم أو لا.

**فإن كانت معطوفة:** فلابد أن يكون بينهما جهة جامعة علىٰ ماسبق تقديمه، كقوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾(١)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢) وفائدة العطف: جعلهما كالنظيرين والشريكين، وقد تكون العلاقة بينهما المضادة، فإن التضاد واضح بين القبض والبسط، والولوج والخروج، والنزول والعروج، وشبه التضاد بين السماء والأرض.

ـ ومما يظهر فيه التضاد في الكلام، ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة.

ـ وقد جرت عادة القرآن الكريم إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً ليكون باعثاً علىٰ العمل بما سبق، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه، ليعلم عظم الآمر والناهي، فتحتاج إلىٰ تأمل وتثبت، فإنه قد يظهر وجه الارتباط تارة، ويخفىٰ تارة أخرىٰ. وقد ضرب الإمام

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

الزركشي أمثلة على ما يشكل فيه وجه الارتباط، وأجاب على ذلك في البرهان(١) .

وإن لم تكن معطوفة: فلابد من دعامة تؤذن باتصال الكلام وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط، وله أسباب(٢):

أحدها: التنظير، فإن إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء، كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾(٣) عقب قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾(٤) فإنه تعالى أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير أوللقتال وهم له كارهون، والقصد أن كراهيتهم لما فعله من قسمة الغنائم ككرههم للخروج، وقد تبين أن في الخروج الخير والظفر والنصر والغنيمة وعزّ الإسلام، فكذا يكون فيما فعله في القسمة، فليطيعوا ما أمروا به ويتركوا هوى أنفسهم.

الثاني: المضادة، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾(٥) إلخ الآية، فإن أول السورة كان حديثاً عن القرآن وأن من شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان، فلما أكمل وصف المؤمنين عقّب بحديث الكافرين، فبينهما جامع وهْميٌّ بالتضاد من هذا الوجه؛

(١) انظر البرهان، جـ ١، ص ٤١ ـ ٤٦ .
(٢) انظر البرهان، جـ ١، ص ٤٦ ـ ٤٩ .
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٥ .
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤ .
(٥) سورة البقرة: الآية: ٦ .

وحكمته التشويق والثبوت على الأول، كما قيل: وبضدها تتميز الأشياء.

الثالث: الاستطراد: وهو أن تمر بذكر الأمر الذي استطردت إليه مروراً خاطفاً، ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه، كأنك لم تقصده، وإنما عرض عَرضاً.

ـ ومن أمثلة الاستطراد قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(١) .

قال الزمخشري: هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد، عقب ذكر بدوّ السوءآت وخصف الورق عليها، وإظهاراً للمنة فيما خلق الله من اللباس، ولما في العُري وكشف العورة من المهانة والفضيحة وإشعاراً بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى(٢) .

رابعاً: حسن التخلص: وهو أن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاساً دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول، إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما، واعلم أنّه حيث قصد التخلص فلابد من التوطئة له، ومن بديع ذلك قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾(٣) يشير إلى قصة يوسف عليه السلام، فوطأ بهذه الجملة إلى ذكر القصة،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦

(٢) تفسير الكشّاف، للزمخشري، جـ ٢، ص ٧٤.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٣.

وكقوله سبحانه موطئاً إلىٰ ذكر مبتدأ خلق المسيح عليه السلام : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾(١) الآية .

ومن أحسن أمثلة التخلص ، قوله تعالىٰ : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾(٢) فإن في هذه الآية خمس تخلصات كما ذكرها الزركشي ، في البرهان(٣) وهي : أنه جاء بصفة النور وتمثيله ، ثم تخلّص منه إلىٰ ذكر الزجاجة وصفاتها ، ثم رجع إلىٰ ذكر الزّيت يستمدّ منه ، ثم تخلّص من ذلك إلىٰ ذكر الشجرة ثم تخلّص من ذكرها إلىٰ صفة الزيت ثم تخلّص من صفة الزيت إلىٰ صفة النور وتضاعفه ثم تخلّص منه إلىٰ نعيم الله بالهدىٰ علىٰ من يشاء .

ومن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ، الآية فإنه سبحانه ذكر أولاً عذاب الكفار وأن لا دافع له من الله ثم تخلّص إلىٰ قوله : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾(٤) بوصف الله ذي المعارج .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٣ .

(٢) سورة النور الآية : ٣٦ .

(٣) البرهان ، جـ ١ ، ص ٤٣ .

(٤) سورة المعارج ، الآية : ١ ـ ٤ .

ومنه قوله تعالى : ﴿﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى قوله : ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] ، فهذا تخلّص من قصة إبراهيم عليه السلام وقومه إلى قوله هكذا، وتمنّى الكفار في الدار الآخرة الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسل، وهذا تخلّص عجيب، كما قاله الزركشي في البرهان .

ـ هذه لمحات عن تناسب الآيات، تم استخلاصها من مصادر متعددة[2] ، ومنها البرهان للزركشي ، والإتقان للسيوطي ، وتناسق الدرر للسيوطي أيضاً، مع التمحيص والترتيب والإضافات في بعض المواضع .

(١) سورة الشعراء، الآية: ٦٩ ، ١٢٠ .

(١) انظر : البرهان للزركشي ، جـ ١ ، ص ٣٥ـ٥٠ ، والإتقان للسيوطي ، جـ ٣، ص ٣٢٣ـ٣٣٤.

## المبحث الثالث:

# دلالات التناسب على الأحكام

لم أرَ من بحث في هذا الموضوع بحثاً مفصلاً فيما اطلعت عليه حتى الآن، وإنما تعرف هذه الدلالات من خلال التأمل في سور القرآن وآياته، وما بينها من التناسب الدال على الأحكام.

فلو أخذنا مثلاً آيات الطلاق في سورة (البقرة)، لوجدنا عجباً في تناسب الآيات، وترتيب ما ينشأ عن الطلاق من أحوال وقضايا ومشكلات، حيث عالجتها آيات السورة علاجاً حكيماً بما شرّع الله فيها من أحكام، وسنَّ من سنن التعامل بالمعروف، وعدم نسيان الفضل بين الزوجين والأصهار، فإذاوقع الطلاق ترتبت عليه العدة في أحوال مختلفة، وذلك لاستبراء الرحم، وأُعطي الزوج فرصة فيما دون الطلقات الثلاث، للمراجعة في مدة العدة من غير مضارّة للزوجة، وبينت السورة أحكاماً كثيرة تتعلق بالمهر، وافتداء الزوجة نفسها بشيء من المال مقابل فسخ النكاح في حالة الاختلاف.

وتناولت الآيات الطلقات الثلاث وما يترتب عليها من أحكام، وقيود وأوصت الآيات بالإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان ونهت عن ظلم النساء في صوره المختلفة، الذي ينتهجه كثير من الأزواج أو الأولياء، ثم بينت أحكام الرضاعة والحقوق المتعلقّة بذلك لكل من الزوجين وعلى كل منهما، وحقوق الطفل ووجوب الرعاية وعدم

المضارة، وبيّنت السورة أحكاماً عامة في العدل والتراحم والنفقة بالمعروف، وأحكاماً محددة في العدة والمهر، وأنواع الطلاق، وغير ذلك مما يتعلق بالعلاقات الزوجيّة بداية ومعاشرة ونهاية، وإن شئت فارجع إلى الآيات في سورة البقرة ـ من الآية (٢٢٦) إلى الآية (٢٤٢) تجد التناسب المحكم في سياق الآيات، وتجد الاستيعاب لما يتعلق بالعلاقة الزوجية من أحكام في حالة الوفاق أو الفراق، وما يتفرع عن الطلاق من خصومات وحقوق وواجبات، سواء بين الزوجين أوأولادهما، أوالأولياء والأصهار، وقد ختم الله تعالى تلك الآيات بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(١)] إشارة إلى بيان جميع الأحكام التي يحتاجون إليها، واستخدام العقل والفكر فيماينشأ من خلافات في العلاقات الزوجيّة، وتقديم العقل على العواطف والانفعالات النفسية والنزعات الشيطانية، وعدم نسيان الفضل، والتراحم بين الزوجين والأصهار ﴿وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[(٢)].

ولو أخذنا مثالاً آخر من سورة النساء، ولتكن آيات المواريث مثلاً، لوجدنا تناسقاً محكماً بين هذه الآيات، وقد ارتبطت بهذا التناسق أحكام المواريث بشروطها، ومقاديرها، فقد بدأت الآيات القرآنية بتقرير المبدأ العام، والتصدير بذكر أركان الإرث: وهي الوارث والمورِّث، والمال الموروث، ويظهر هذا من الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾[١] ، فقد جاءت هذه الآية بصيغة العموم والشمول للرجال والنساء، لتقرير حق المرأة في الميراث ، وإبطال ما كان أهل الجاهلية يفعلونه من ظلم النساء في الميراث، واستئثار الرجال به في معظم الحالات.

فالآية الكريمة ترسم الأسس العامة للمواريث في صورة مجملة ثم تأتي الآيات الأخرىٰ بعد ذلك بالتفصيل والتصنيف لأنواع الوارثين من الرجال والنساء، آباءً كانوا، أم أبناءً ،أم إخوانا، أم أعماماً، ومن جاء عن طريق هذه الجهات، أو نساءً، أمهات، أو زوجاتٍ، أو بناتٍ، أو أخواتٍ، ومن اتصل عن طريق هذه الجهات، حسب ما هو مقرر في أحكام المواريث.

ـ وقد تحدثت آيات المواريث عن المورِّثين والوارثين، ومقادير إرثهم وشروطها، في بيان واضح لا لبس فيه ولا غموض، وقد دلنا هذا التناسب المحكم بين آيات المواريث، علىٰ أحكام متعددة لموضوع واحد، جاء مجملاً في آية واحدة، شاملة لأركان ذلك الموضوع في بيان مدهش! كيف شملت الآية جميع الوارثين ذكوراً وإناثاً، وشملت كذلك جميع المورِّثين ذكوراً، وإناثاً، وشملت كذلك التركة، قليلة كانت أو كثيرة، وهي المال الموروث ، وجعلت تلك الأنصبة فريضةً حتمية عند اكتمال شروطها وخلوِّها من الموانع الشرعيّة! .

وهذا التعميم والإجمال في الآية الأولىٰ من آيات المواريث، من بلاغة القرآن المعجز ، فإنّ الإجمال والشمول مما يهيىء نفسيّة السامع ،

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧.

ويجعله يتطلع للتفاصيل والبيان، وبخاصة إذا كان الموضوع متعلقاً بما جبلت عليه النفوس من حب المال ومعرفة أحكامه وقضاياه، ولم يدم طويلاً تشوّف القارئ فقد أعقب الله تعالى، هذا الإجمال في المواريث بالتفصيل الشافي الكافي مباشرة، وإن شئت فاقرأ الآيات في سورة النساء من آية (٧) إلى آية (١٢).

إنّ المتأمل في سورة النساء يجد عجباً، حيث افتتح الله السورة بذكر هذه الرابطة الأسرية في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾(١).

فذكر في هذه الآية الرجال والنساء والأرحام وهم الأقربون، وذكر في أول آيات المواريث من هذه السورة الرجال والنساء، والأصول المورثة، والأقربين، وهم الأولاد والحواشي وبقية الأرحام، ثم ختم السورة بذكر بعض الوارثين ومقادير إرثهم فقال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢).

---

(١) سورة النساء، الآية: ١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

فانظر هذه المناسبة العجيبة، كيف تحدّثت آيات المواريث عن الرجال والنساء، وقد مهّد أوّل السورة بذكر الرجال والنساء معاً، ثم ختمت السورة بذكر الرجال والنساء أيضاً.

ولو ذهبنا نتتبع آيات القرآن الكريم ومابينها من التناسب والدلالة على الأحكام، للزمنا الوقوف عند كل آية من كتاب الله، فإنها لم توضع في مكانها عبثاً ولا مصادفة، بل وضعت عن علم وحكمة من لدن حكيم خبير.

ومن دلالة التناسب على الأحكام: التفصيل بعد الإجمال كما تقدّم، وكما في أول سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿أُحلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾(١) فالمستثنى في قوله ﴿إلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ مجمل لا يعرف تفصيله، حتى جاء التفصيل والبيان في الآية الثالثة من هذه السورة بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لغَيْرِ اللَّه بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾(٢) الآية، وهذا من دلالة التناسب على الأحكام في السورة الواحدة.

ومن أمثلة التقييد بعد الإطلاق: قوله تعالى في الآيةالسابقة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ إلخ، فإنّ (الدم) في هذه الآية مطلق، وظاهر الآية يقتضي تحريم الدّم قليله وكثيره، وقد جاء تقييد هذا

(٢) سورة المائدة، الآية: ١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

الإطلاق في السورة التي تليها وهي سورة الأنعام في قوله تعالىٰ : ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾[١] فاستقر الحكم الشرعي ببناء المطلق على المقيّد، فيكون المحرّم من الدم، هو الدم المسفوح الخارج من الأوردة ونحوها، فأما الدم الخفيف الذي يختلط باللحم بعد الذبح ، والحمرة التي تعلو القدر، ونحو ذلك، فهو من المعفو عنه، كما روىٰ أبو مجلز وعائشة وغيرهما ؛ ونقل القرطبي إجماع العلماء علىٰ ذلك[٢] .

وهذا مثال علىٰ التناسب بين سورة وأخرىٰ ، مع دلالة هذا التناسب علىٰ الحكم، ذلك بتقييد المطلق كما أشرنا إليه آنفاً.

وهناك أمثلة كثيرة لدلالة التناسب علىٰ الأحكام، كآيات الربا، وآيات المحرّمات وغير ذلك مما لا يتسع له هذا المقام.

---

(١) سورة الأنعام، الآية : ١٤٥ .

(٢) تفسير القرطبي، جـ ٧، ص١٢٤ .

# الفصل الرابع

## الوحدة الموضوعية في السورة الواحدة من القرآن

# الوحدة الموضوعية في السورة الواحدة من القرآن

الوحدة الموضوعية للسورة، لاتعني أن السورة موضوع واحد مستقل، فهي ليست فصلاً في باب، أومبحثاً في كتاب، فهناك فارق كبير بين طريقة القرآن الكريم، وطريقة التأليف عند الناس. القرآن الكريم كتاب هداية يسلك إلى النفوس طريقها، ويتخولها بالموعظة الحسنة بين الحين والآخر، وإنما المراد بالوحدة الموضوعية: أنّ لكل سورة موضوعاً أو موضوعات غالبةً عليها، وسمات بارزة فيها، فقد تتعدد موضوعاتها، ولكن هناك وشائج تربط بين هذه الموضوعات، وهناك روح يسري فيما تثيره السورة من أحكام ومبادئ، وما تذكره من قصص ومشاهد، فالسورة كالسوار تحيط بموضوعاتها إحاطة السوار بالمعصم أوإحاطة السور بالمدينة، فقد ظهرت الوحدة والترابط بين أجزاء السورة الواحدة من جانب، وبين أجزائها ووحدتها الموضوعية الشاملة مع السور الأخرى من جانب آخر، فحصلت بذلك الوحدة الموضوعية الكبرى للقرآن الكريم، بمعنى التناسق والترابط وتصديق بعضه بعضاً: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

---

سورة الزمر، الآية: ٢٣.

وبهذا يظهر في كل سورة من القرآن الكريم تناسق أوضاعها ، وائتلاف عناصرها ، وأخذ بعضها بحجز بعض ، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها .

ويذكر الدكتور : محمد عبدالله دراز في كتاب (مدخل إلى القرآن الكريم) أن السورة من القرآن تتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة ، فقد قام بدراسة بعض السور ، وكان يبحث عمّا إذا كان هناك نوع من الترابط في الأفكار التي تتناولها السورة الواحدة ، فقال : ( ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن هناك تخطيطاً حقيقياً واضحاً ومحدداً يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة ، فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة ، الموضوع الذي ستعالجه في خطوطه الرئسة ، ثم يتبع ذلك بالتدرج في عرض الموضوع بنظام لايتداخل فيه جزء مع جزء آخر ، إنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة ، وأخيراً تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة)[١] . ويقول في كتابه (النبأ العظيم) عن وحدة النظم القرآني «فأقبل بنفسك على تدبّر هذا النظم الكريم لتعرف بأي يد وضع بنيانه؟ وعلى أي عين صنع نظامه؟ حتى كان كما وصفه الله ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾[٢] اعمد إلى سورة من تلك السور التي تناولت أكثر من معنىً واحد ، وما أكثرها في القرآن ـ فهي جمهرته ـ وتنقّل بفكرتك معها مرحلة مرحلة ، ثم ارجع البصر كرّتين ، كيف بدأت؟ وكيف ختمت ؟وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف

(١) مدخل إلى القرآن الكريم ، ص ١١٩ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٢٨ .

تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها، ووطأت أولاها لأخراها؟ وأنا لك زعيم بأنَّك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها، ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتّى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدّثك التأريخ أنها كلها أوجلها قد نزلت نجوماً» (١) .

واعلم أن دراسة الوحدة الموضوعية للسورة محاولة قديمة عند بعض العلماء القدامى ولكن يبدو أن الإمام «ابن القيم» رائد في هذا المجال، ويتضح ذلك من خلال تفسيره المعروف «بالتفسير القيِّم» الذي جمعه العلاّمة (محمد أويس الندوي)، ومن خلال الدراسة التي قدّمها الأستاذ (محمد أحمد السنباطي) عن منهج (ابن القيِّم) في التفسير ، وهي دراسة عميقة جيدة، ذكر فيها الأساس الأوّل لمنهج ابن القيم في تفسيره، بأنه يتمثل في إبراز الوحدة الموضوعية المتكاملة للسورة القرآنية، تلك الوحدة التي تربط أركان السورة بعضها ببعض، لتخدم الأهداف التي أنزلت من أجلها، والتي يمكن أن تكون أساساً لفهم آياتها، ويقول السنباطي: وابن القيّم في ذلك مبتكر لا متّبع(٢) ومجدد لا مقلّد]، ويميل السنباطي إلى أن ابن القيّم في التفسير أكثر دقّة وتنظيماً من أستاذه «ابن تيمية»(٣)، فهو يعرض أفكاره بصورة مبتكرة جذابة

---

(١) النبأ العظيم، ص ١٤٨، ١٤٩ .

(٢) الأولى أن يقال لا متابع .

(٣) هذا الكلام فيه نظر، فإن الإمام (ابن تيمية) رحمه الله متبحّر في علوم شتّى بما فيها التفسير .

جعلته رائداً لمدرسة مازالت تعيش بين ظهرانينا، تلامذتها من كبارالأئمة والعلماء[١] .

كما يرىٰ السنباطي أن حركة التفسير في العصر الحديث قد تأثرت بمدرسة ابن القيِّم، ويرىٰ أن من رجال هذه المدرسة التفسيرية الأستاذ الإمام (محمد عبده) ،وتلميذه الشيخ (محمد رشيد رضا) والشيخ (محمود شلتوت) ، و الشيخ (محمد محمد المدني)، والدكتور (محمد عبدالله دراز)، وهذا من مصر وحدها، أما من تأثر به خارج مصر فمنهم (أبو الأعلىٰ المودودي) في تفسيره لسورة النور، وغيرهم من العلماء.

وقد تعني الوحدة الموضوعية الأهداف والمقاصد للسورة، فقد اشتملت كل سورة من سور القرآن علىٰ غرض أو أغراض متنوعة وبينها من الترابط والتناسق ما يعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. . وسنتحدث عن الوحدة الموضوعية للسورة من خلال السور التالية ، كنماذج لهذه الدراسة.

**١ ـ سورة البقرة:**

سمّيت السورة بذلك؛ لاشتمالها علىٰ قصة البقرة، وذلك أنه قُتِلَ قتيل في بني إسرائيل ولم يُعلم قاتله، فذهب القوم إلىٰ موسىٰ عليه السلام يطلبون منه بيان القاتل، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة، وأن

---

(١) منهج ابن القيم في التفسير من ص ٨٤، ١١٥ .

يضربوا القتيل بجزء منها فُتردّ إليه الحياة، ويقوم فيقول: قتلني فلان[١]، ثم يعود ميتاً، قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢] .

وسورة البقرة مدنيّة: وهي أول سورة نزلت بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وهي من أجمع سور القرآن الكريم؛ فقد احتوت على أصل العقيدة وعلى كثير من أدلة التوحيد؛ كما ذكرت مبدأ خلق الإنسان؛ واشتملت على معظم أحكام التشريعات عبادات ومعاملات.

- وقد ذكر بعض العلماء غرضين أساسيين لسورة البقرة.

- **الغرض الأول:** استدعاه جوار المسلمين لأهل الكتاب في المدينة، فقد صار للمسلمين جوار في المدينة غير جوارهم للمشركين في مكة.

**الغرض الثاني:** أن المسلمين تركزوا جماعة مستقلة لأول دخولهم المدينة، فبنى النبي ﷺ مسجده للصلاة والتعليم والتشاور والتحاكم، وآخى بين المهاجرين والأنصار فصاروا جبهة واحدة، تحتاج إلى تشريع تنظم به شؤنها.

- وبهذين الأمرين نجد أن السورة تهدف في جملتها إلى هذين الغرضين:

---

(١) انظر القصة في تفسير ابن جرير الطبري، جـ ٢، ص ٢٨ ١١ ١٣٢ ، وغيره من التفاسير .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٣.

**الغرض الأول:** توجيه الدعوة إلى بني إسرائيل ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة المحمدية من تشكيك وشبه، وفي سبيل ذلك أخذت تذكّرهم بنعم الله على أسلافهم، وبما انتاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقي دعوة الحق من أنبيائهم السابقين، وارتكبوا من صنوف العناد والتكذيب والمخالفة، واقرأ في ذلك من قوله تعالى في السورة ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(١) إلى آخر آية البرِّ في منتصف السورة تقريباً ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾(٢) إلخ.

هذا هو الغرض الأول الذي استدعاه جوار المسلمين لأهل الكتاب.

**أما الغرض الثاني:** فهو التشريع الذي اقتضاه تكوين المسلمين جماعة متميزة على غيرها في عبادتها ومعاملاتها وعاداتها.

وقد ذكرت السورة من ذلك، القصاص في القتل العمد العدوان، وذكرت الصيام، والوصيّة، والاعتكاف، والتحذير من أكل أموال الناس بالباطل، وذكرت الأهلّة وأنها جعلت ليعتمد الناس عليها في معرفة أوقات العبادة وغيرها، وذكرت الحج والعمرة، وذكرت القتال وسببه الذي يدعو إليه وغايته التي ينتهي إليها، وذكرت الخمر والميسر واليتامى، وحكم مصاهرة المشركين وذكرت حيض النساء والتطهّر

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

منه، والطلاق والعدّة والخلع والرضاع، وذكرت الإيمان، وذكرت الإنفاق في سبيل الله، والربا والبيع، وذكرت طرق الاستيثاق في الديون بالكتابة والاستشهاد والرهن.

وبدأ السياق من قوله تعالىٰ بعد آية البر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾(١) إلىٰ قبيل آخر السورة، وكان يتخلل كل ذلك ـ علىٰ طريقة القرآن ـ ما يدعو المؤمنين إلىٰ التزام هذه الأحكام، وعدم الاعتداء فيها، من قصص ووعد ووعيد، وإرشاد إلىٰ سنن الله في الكون والجماعات، ثم تختم ببيان عقيدة المؤمن علىٰ نحو ما بدأت به في بيان أوصاف المتقين: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾(٢).

وبذلك يؤكد آخرها أولها، ويؤسس أولها لآخرها، وتصير السورة كتلة واحدة؛ لينتفع المسلمون الذين يهتدون بالكتاب بأحد غرضيها في معاملة من يخالطون من أهل الملل الأخرىٰ، وينتفعوا بالغرض الآخر في تنظيم أحوالهم من عبادة ومعاملة.

ويأتي الغرضان في آية البر مجملين «ليس» و«لكن» فتنفي «ليس» أن يكون البر شيئاً مما درج عليه الحرفيون أصحاب المظاهر الجوفاء، الذين يتمسكون بمثل تولية الوجوه قِبل المشرق والمغرب، وتثبت «لكن» أصول الإيمان الحق والعمل الصالح علىٰ أنها هي البر الصحيح والواقع العملي للتقوىٰ والمتقين ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(١) .

ثم يكون الختام الأخير تعليم المؤمنين دعاءً من شأنه أن يغرس في نفوسهم سنة الله في التشريع لهم ، وبناء أحكامه و تكاليفه على اليسر والوسع ودفع الحرج ، ومن شأنه متى أخلصوا فيه أن يأخذ بأيديهم إلى حياة سعيدة سهلة ميّسرة وييسر لهم وسائل المغفرة والنصرة(٢) ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(٣) .

ومن لطائف ما رأيت في الوحدة الموضوعية لسورة البقرة ، ما أورده الدكتور محمد عبدالله دراز ، في كتابه (النبأ العظيم) فقد جاء فيه مايلي :

اعلم أن هذه السورة على طولها تتألف وحدتها من : مقدمة ، وأربعة مقاصد وخاتمة ، على هذا الترتيب :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧ .

(٢) انظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، للفيروز آبادي ، جـ ١ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ (تناسق الدرر) للسيوطي ص ٨٠ ، وتفسير القرآن الكريم ، لمحمود شلتوت ، ص ٥١ ـ ٥٣ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٦ .

**المقدمة:** في التعريف بشأن هذا القرآن ، وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حداً منَ الوضوح لايتردد معه ذو قلب سليم، وإنما يعرض عنه من لا قلب له ،أو كان في قلبه مرض .

**المقصد الأول:** دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام .

**المقصد الثاني** :دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم، والدخول في هذا الدين الحق .

**المقصد الثالث** : في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً .

**المقصد الرابع:** ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها .

**الخاتمة** : في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم[1] .

- ثم بدأ الدكتور دراز في تفصيل ذلك في بيان واضح، وأسلوب أخّاذ.

**٢ - سورة آل عمران:**

سبب تسميتها بذلك :

- تسمى السورة من القرآن بأغرب ما يذكر فيها ، فسورة البقرة سميت بهذا الاسم، لقصة عجيبة الشأن، ذكرت فيها البقرة التي أُمِر بنو

---

(١) النبأ العظيم ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

إسرائيل أن يذبحوها كما تقدّم ، وسورة المائدة سميت بذلك لقصة المائدة التي طلب الحواريون إنزالها من السماء .

وقد جاء ذكر (عمران) في السورة مرتين في آيتين متتاليتين : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[١] .

فذهب فريق من المفسرين إلى أنّ (عمران) الذي سمّيت السورة بآله ، والذي ذكر في الآية الأولى ، هو(عمران) أبوموسى وهارون عليهما السلام، وليس أبا مريم، وكان بين العمرانين ـ فيما يقول الرواة ـ أمد طويل ، يزيد على ألف سنة .

وقد أشار إلى هذا القول (ابن الجوزي) في (زاد المسير)[٢] ونسبه إلى مقاتل، ومال إلى هذا القول (الفيروز آبادي) في كتابه (بصائر ذوي التمييز)[٣] ، كما مال إليه ابن جرير الطبري تلميحاً لا تصريحاً[٤] .

وذهب الفريق الآخر من المفسرين إلى أن (عمران) الذي سمّيت السورة بآله، وذكر في الآية الأولى ،هو (عمران) المذكور في الآية الثانية، وهو أبومريم، وليس أبا موسى وهارون عليهما السلام .

---

(١) سورة آل عمران ،الآية : ٣٣ ـ ٣٥ .

(٢) زاد المسير، ص ٣٧٥، ٣٧٦ .

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، جـ ١، ص ١٥٨ .

(٤) تفسير الطبري، جـ ٦، ص ٣٣٨ .

وقد أشار إلى هذا القول (ابن الجوزي) ونسبه إلى الحسن وبه قال الحافظ بن كثير في تفسيره، قال: «وآل عمران، والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى بن مريم عليه السلام»(١) .

والذي يقوي هذا القول: إن السورة من أولها إلى آخرها لانجد فيها شيئاً غريباً أو هاماً، يتعلق بخصوص موسى وهارون عليهما السلام، ولكن أبرز ما فيها وأغرب شؤونها هو ماعنيت بتفصيله من شأن عيسى وأمه، فالسورة تذكر طبقات من اصطفاهم الله من آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران، لتبيّن للقوم من أول الأمر أنَّ اصطفاء الله آل عمران من عيسى وأمه، ليس إلا كاصطفائه لغيرهما ممن اصطفى، وأنّ ما ظهر على يد عيسى عليه السلام من خوارق العادات التي يتخذونها دليلاً على ألوهيته أو بنوته أو حلول الله فيه، لم يكن إلا أثراً من آثار التكريم الذي جرت به سنّة الله فيمن يصطفي من الأنبياء والمرسلين(٢) .

وسورة (آل عمران) مدنيّة باتفاق جميع المفسرين(٣) .

وقد اشتملت السورة على ركنين هامّين من أركان الدين هما:

**أولاً**: ركن العقيدة الإسلامية، والدلائل والبراهين على وحدانية الله رب العالمين.

**ثانياً**: ركن التشريع الإسلامي، وبخاصة فيما يتعلّق بالمغازي والجهاد في سبيل الله.

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ١، ص ٣٥٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم، للشيخ: محمود شلتوت، ص ٩١.

(٣) بصائر ذوي التمييز، جـ ١، ص ١٥٨.

ومن المقاصد والأهداف العامة للسورة مايلي:

١ ـ تقرير الحق في قضية العالم الكبرى، وهي مسألة الألوهية وإنزال الكتب وما يتعلق بها من أمر الوحي والرسالة، وبيان وحدة الدين عند الله، وذلك في الآيات الأولى من السورة.

وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب، وهم «اليهود»، فإن سورة «آل عمران» قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب وهم (النصارى) الذين جادلوا رسول الله ﷺ.

وقد ذكر أهل التفسير، أن صدراً من سورة آل عمران نزل في وفد (نصارى نجران) قدموا على النبي ﷺ، في ستين راكباً، فيهم العاقب والسيد، فخاصموه في عيسى، فقالوا: إن لم يكن ولد الله، فمن أبوه؟ فنزلت فيهم سورة (آل عمران) في بضع وثمانين آية منها(١).

٢ ـ تقرير العلة التي من أجلها ينصرف الناس في كل زمان ومكان عن التوجه إلى معرفة الحق والعمل على إدراكه والتمسك به، وقد بيّنت أنَّ هذه العلة هي غرور الناس بمالهم من أموال وجاه وسلطان، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾(٢).

---

(١) انظر زاد المسير، لابن الجوزي، جـ١، ص ٣٤٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

٣ ـ في النصف الثاني من السورة نجد دروساً مستفيضة عن أسرار النصر في غزوة أحد قال تعالى : ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١) .

٤ ـ كانت السورة بلسماً شافياً يأسو جراح المسلمين في غزوة أحد، فتحدثت عن الابتلاء والاختبار، وذكرت فضل الشهداء وعاقبة الصابرين الأوفياء(٢) ، وذلك من الآية (١٢١) إلى آخر السورة، حيث يقول الله سبحانه في الآية الأخيرة من السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٣) .

واختتام السورة بهذه الآية مناسب لجوّ السورة وموضوعاتها، وقد جاءت النصوص في مواضعها من السياق متناسقة فيما بينها، متكاملة، لقد نزلت في معمعان المعركة، معركة العقيدة، ومعركة الميدان، المعركة في داخل النفوس والمعركة في واقع الحياة.

وقد تضمّنت ذلك الرصيد الحيّ العجيب، من الحركة والتأثير والإيحاء(٤) .

افتتحت هذه السورة بتقرير التوحيد، وإثبات الرسالة، واشتملت على رسم المعالم والأطر الصحيحة لكثير من أصول العقيدة،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩ .

(٢) التفسير بين الماضي والحاضر، د. عبدالله شحاته، ص ٥٩ بتصرف.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠ .

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب، بتصرف.

والشريعة، وختمت بالنّداء والتوجيه لجماعة المؤمنين لتحمّل مسؤولية الصبر والمصابرة والمرابطة في سبيل الله ، كما اختتمت بالأمر بتقوىٰ الله لترسيخ المهابة في نفوس المؤمنين، ودفعهم للعمل بمنهج الله، فإن التقوىٰ من أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة.

**٣ـ سورة النساء: (مدنيّة بإجماع القراء)** (١).

سميت بسورة النساء، لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلقّ بهن، بدرجة لم توجد في غيرها من السور، ولذا أطلق عليها (سورة النساء الكبرىٰ) في مقابلة (سورة النساء الصغرىٰ) التي عرفت في القرآن (بسورة الطلاق).

ولم تكن هاتان السورتان فقط هما كل ماعرض فيه القرآن لشأن النساء، بل عرض لهن في أكثر من عشر سور، وإن لم تُسمَّ بهذا الاسم، فقد عرض لهن في:

١ـ **سورة البقرة**:وتناولت : النكاح ،والطلاق،والعدة، ، والرضاعة، والحيض وغير ذلك.

٢ـ **وفي سورة المائدة**: بيّن حلّ تزوج المحصنات الكتابيات منهن، وسوّىٰ في حقوق الزوجيّة بينهن وبين المحصنات المؤمنات.

٣ـ **وفي سورة يوسف**: أخبار امرأة العزيز والنساء الأخريات.

٤ـ **وفي سورة النور**: تناولت الحدود، والآداب العامة وغيرها من أحكام النساء.

---

(١) بصائر ذوي التمييز، جـ١، ص ١٩٦.

وفي سورة الأحزاب : ذكرت نساء النبي ﷺ، وهن أمهات المؤمنين، كما ذكرت نساء المؤمنين.

٦ - **وفي سورة المجادلة:** قصة (خولة بنت ثعلبة) مع زوجها، (أوس ابن الصامت) عندما ظاهر منها، وماترتب على ذلك من أحكام الظهار.

٧ - **وفي سورة الممتحنة:** بيان حكم النساء المهاجرات من بلاد الأعداء إلى بلاد الإسلام، وحقوقهن في البيعة على السمع والطاعة وغير ذلك من الأحكام.

٨ - **وفي سورة التحريم:** بيان ماجرى بين زوجات الرسول ﷺ، ويجري بين الزوجات في كل زمان ومكان، وما ورد في آخر السورة من ضرب المثل للنساء الصالحات والنساء الطالحات.

أما الحديث عن الوحدة الموضوعية للسورة : فإنّ لكل سورة من سور القرآن شخصيتها الخاصّة، وملامحها المميزة، ومحورها الذي تشد إليه موضوعاتها جميعاً.

ومن مقتضيات الشخصية الخاصّة أن تجتمع الموضوعات في كل سورة وتتناسق حول محورها في نظام خاص بها، تبرز فيه ملامحها وتتميز به شخصيتها، كالكائن الحيّ المميز السمات والملامح، وهو - مع هذا - واحد من جنسه على العموم[1].

---

(١) انظر (في ظلال القرآن) لسيد قطب، جـ ١، ص ٥٥٥.

وقد عُنيت السورة بتوضيح معالم المجتمع الإسلامي، وتبيين الخطوط المكونة لصورته، والمميزة لملامحه وقسماته، على الوجه الذي يسعده، ويرد عنه غوائل الشر، وعوامل الفساد، فالبناء والاستقرار الداخلي والخارجي من السمات المميزة التي تناولتها السورة.

والاستقرار الداخلي: أساسه صلاح الأسرة التي هي قاعدة المجتمع وركيزته الأولى، وصلاح المال الذي به قوام الحياة، وصلاح الحكم في ظلّ تشريع قوي عادل.

والاستقرار الخارجي: أساسه احتفاظ الأمة بشخصيتها، والاستعداد لمقاومة الشر الذي يطرأ عليها، والعدو الذي يطمع فيها.

ويمكن أن نجمل أهداف سورة النساء في الأمور التالية:

١ ـ إعلان مبدأ المساواة بين الناس تمهيداً لإقامة المجتمع على أساسه.

٢ ـ بناء الأسرة، والتكافل الاجتماعي وذلك من خلال:

* تقرير حقوق النساء واليتامى والسفهاء.

* أحكام الزوجية وما يتصل بها.

* أحكام المواريث.

٣ ـ أسس المجتمع الإسلامي.

٤ ـ التحذير من أهل النفاق والكفر من الأعداء الذين يتربصون الدوائر بالمؤمنين، ويحاربونهم حرباً مادية ومعنوية.

٥ ـ إرسال الرسل شأن إلهي، وليس محمدٌ ﷺ بدعاً من الرسل.

٦ ـ إقامة الحجة على من يزعمون التثليث، وإثبات أن الله تعالى واحد لاشريك له، وأن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله.

٧ ـ الرسالة المحمدية رسالة عامة موجهة إلى الناس أجمعين.

وقد اشتملت السورة على أنواع كثيرة من التكاليف العامة، وتقرير المبادئ العامة في الاعتقاد، والتشريع، والأخلاق.

ـ ومن معالم الوحدة الموضوعية: أن الله تعالى أمر في أوّل السورة بالعطف على الأولاد والنساء والرأفة بهم وإيصال حقوقهم إليهم، وحفظ أموالهم، وختم السورة بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

وفي قوله تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ختام رائع للسورة ومشتملاتها، وصيغة جامعة شاملة، (بكل شيء) من الميراث وغير الميراث، ومن علاقات الأسر وعلاقات الجماعات، من الأحكام والتشريعات، فإمّا اتباع بيان الله في كل شيء، وإما

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

الضلال، طريقان اثنان لحياة الناس لا ثالث لهما : طريق بيان الله فهو الهدىٰ، وطريق من عداه، فهو الضلال ، وصدق الله ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾(١) (٢) .

**٤ـ سورة المائدة:**

وهي مدنيّة بالإجماع ، وما يذكره بعض العلماء من أن قوله تعالىٰ : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾(٣) أنها آية مكية ؛ فلأنها نزلت يوم عرفة في الموقف في حجة الوداع .

والاصطلاح الصحيح في المكي والمدني، أن ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، سواء نزل في مكة أو في غيرها . . وما نزل بعد الهجرة فهو مدنيّ، سواء نزل في المدينة أو في غيرها، كالآية الآنفة الذكر .

وسميت بالمائدة، لاشتمالها علىٰ قصة نزول المائدة من السماء، وهي السورة الوحيدة التي تحدثت عن هذه المائدة التي طلب فيها الحواريون من عيسىٰ عليه السلام أن يسألها ربه ، وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾(٤) .

---

(١) سورة يونس، الآية : ٣٢.

(٢) في ظلال القرآن جـ ٢ ، ص ٨٢٤بتصرف.

(٣) سورة المائدة، الآية : ٣.

(٤) سورة المائدة، الآية : ١١٢ ـ ١١٥ .

وسورة المائدة من أواخر ما نزل من القرآن ، بعد أن قويت شوكة المسلمين، وارتفع شأنهم، ولذلك لم تتحدث السورة كثيراً عن الشرك والمشركين، وإنما تحدّثت عن أمرين بارزين:

**الأول** : تشريع ينظم شؤون المسلمين في خاصّة أنفسهم وفي معاملة من يخالطون .

**الثاني**: إرشادات لطرق المحاجّة والمناقشة وبيان الحق في المزاعم التي كان يثيرها أهل الكتاب، مما يتصل بالعقائد والأحكام .

وجماع هذه السورة يتناول الأحكام التشريعية، وفيها بعض الإرشادات إلى عقائد أهل الكتاب المنحرفة .

ومن أبرز المقاصد التي جاءت في السورة :

١ ـ الوفاء بالعقود والمواثيق .

٢ ـ تفصيل أحكام الطعام، وبيان حلاله وحرامه .

٣ ـ تحريم الخمر والميسر .

٤ ـ بيان محظورات الإحرام في الحج .

٥ ـ حدود المحاربين الذين يفسدون في الأرض .

٦ ـ أحكام الأيمان وكفاراتها .

٧ ـ أحكام خاصة بمعاملة أهل الكتاب، منها : معاملتهم بالعدل والحكم بينهم بالقسط، وإباحة أكل طعامهم، وتزوج نسائهم إلى غير ذلك من الأحكام والمقاصد .

٨ ـ براءة المسيح عليه السلام يوم القيامة ممن جعله إلهاً، وتفويضه الأمر كله لله الحق، سبحانه المتفرّد بالعلم والقدرة والألوهية(١).

والوحدة الموضوعية لهذه السورة تتمثل في تناسق موضوعاتها المتفرقة، وربطها بأهدافها ومقاصدها السامية، التي من أبرزها هداية الإنسانية، وبيان الطريق الموصل إلى الله تعالى: فإنّه جل وعلا صاحب الحكم والإرادة النافذة دون حدود، وهو صاحب القدرة المطلقة في خلقة وتدبيره.

وقد اشتملت الآية الأولى من السورة على الإرادة المطلقة فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (٢)، وختمت السورة بالقدرة الشاملة، والملك العام، فقال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

قال (سيد قطب) ـ رحمه الله ـ في حديثه عن هذه السورة: «نجد في هذه السورة موضوعات شتى، الرابط بينها جميعاً هو هذا الهدف الأصيل الذي جاء القرآن كله لتحقيقه: إنشاء أمة، وإقامة دولة، وتنظيم مجمتع، على أساس من عقيدة خاصة، وتصور معين، وبناء جديد، الأصل فيه إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية، والقوامة،

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز، جـ١، ص ١٧٩، والتفسير بين الماضي والحاضر، للدكتور: عبدالله شحاته، ص ٦١ ـ ٦٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٢٠.

والسلطان، وتلقي منهج الحياة وشريعتها، ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده بلا شريك»(١) .

٥ ـ سورة الأنعام:

وهي مكّية غير بضع آيات، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا(٢) أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الثلاث آيات منها قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: من سرَّه أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣) . شبِّهت هذه الآيات بالصحيفة التي كتبت ثم ختمت فلم يزد فيها ولم ينقص، وهذا يعني أنها من أواخر ما نزل على النبي ﷺ في المدينة.

ـ وقد روي عن ابن عباس، أنها نزلت جملة واحدة بمكة، عدا ست آيات، منها الآيات السابقة(٤) .

وسميت بالأنعام؛ لأنها تعرّضت لذكر الأنعام وأنواعها الثمانية: وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾(٥) .

---

(١) في ظلال القرآن، جـ ٢، ص ٨٢٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥١ ـ ١٥٣.

(٣) رواه الترمذي في سننه، جـ ٨، ص ٢٣١.

(٤) انظر، زاد المسير، لابن الجوزي، جـ ٣، ص ٤.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٤٢ ـ ١١٤.

ووحدة السورة الموضوعية ومحورها يدور حول (العقيدة) و(أصول الإيمان) . . . ، وهي تختلف في أهدافها ومقاصدها وأسلوبها عن السور المدنيّة التي تقدم ذكرها ، كسورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة .

فسورة الأنعام لم تعرض لشيء من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين ، كالصيام والحج وأمور الجهاد ، ومحاربة الخارجين على دعوة الإسلام ، كما لم تتحدث عن أهل الكتاب ولا عن المنافقين ، وإنما تناولت القضايا الكبرى الأساسية لأصول العقيدة وأركان الإيمان وهذه القضايا هي :

قضية الألوهية ، وقضية الوحي والرسالة ، وقضية البعث والجزاء .

ومن أجل تقرير هذه الأصول ، نجد الحديث في هذه السورة واضحاً مستفيضاً ، يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للعقيدة الإسلامية ، ونجد سلاحه في ذلك الحجة الدامغة والبراهين القاطعة ، والأدلة المقنعة لإرغام الخصم وإلزامه بطريق الحجة والبرهان على صدق ما جاء به القرآن .

ومما يلفت النظر ويثير الانتباه في هذه السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين ، لانكاد نجدهما بهذه الكثرة في غيرها من سور القرآن الكريم ، الأول : أسلوب التقرير ، والثاني : أسلوب التلقين .

**أما الأسلوب الأول:** وهو الأسلوب التقريري، فإن القرآن يعرض للأدلة المتعلقة بتوحيد الله جلّ وعلا، والدلائل المنصوبة على وجود الخالق العظيم، المدبر الحكيم، في صورة الشأن المسلَّم، الذي لا يقبل الإنكار أو الجدل، وتضع السورة لذلك ضمير الغائب عن الحس، الحاضر في القلب، الذي تدل آياته على وجوده، ومخلوقاته على بديع صنعه، وأفعاله وآثار قدرته، على حكمته وعظيم سلطانه، والذي لايمتري فيه قلب سليم ولاعقل راشد بأنه جلّ وعلا المبدع للكائنات، المدبّر لشؤون خلقه، ويأتي بعبارة (هو) المشيرة إلى وحدانيته في ملكه وخلقه، اقرأ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً﴾(١) ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾(٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾(٣) ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾(٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾(٥) إلى آخر ما هنالك من أسلوب التقرير.

**أما الأسلوب الثاني: «أسلوب التلقين»**، فإنه يظهر بوضوح في تلقين الرسول الحجة الدامغة ليقذف بها في وجه الخصم العنيد بحيث تأخذ عليه سمعه، وتملك عليه قلبه، وتحيط به من جميع جوانبه فلايستطيع التفلّت منها.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٧٣.

ويأتي هذا الأسلوب بطريق السؤال والجواب، ويسأل ثم يجيب ويركّز الجواب، واستمع إلىٰ قوله تعالىٰ في هذه السورة: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾(١) ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢) ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾(٣).

وهكذا تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج الساطعة، والبراهين القاطعة، ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكيّة ذات شأن عظيم في تركيز الدعوة الإسلامية، تقرر حقائقها، وتثبت دعائمها، وتفنِّد شبه المعارضين لها بطريق التنويع العجيب في المناظرة والإلزام.

ويمكن أن نجمل أغراض السورة في النقاط التالية:

أولاً: توحيد الله تعالىٰ، ويتصل بهذا إقامة الدليل علىٰ وحدة الألوهية، بلفت الأنظار إلىٰ آثار الربوبية، وإلىٰ صفات الله، الخالق المتصرِّف، كما يتصل بها إبطال عقيدة الشرك، وشبهات المشركين، وتقرير أن العبادة والتوجيه والتحريم إنما ترجع إلىٰ الله تعالىٰ، ونلمح ذلك في أول آية من السورة وهي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾(١).

وقد بسط هذا المعنى في الآيات التالية لهذه الآية.

ثانياً: الإيمان برسوله الذي أرسله، وبكتابه الذي أنزله، وبيان وظيفة هذا الرسول، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾(٢).

ثالثاً: إثبات البعث والجزاء، لينال المحسن جزاء إحسانه، والمسيء جزاء إساءته، وقد لوّنت السورة أدلتها لإثبات البعث، وصورت مواقف المشركين وما سيكونون عليه في ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾(٣) إلخ.

رابعاً: ذكرت السورة طرفاً من قصة إبراهيم عليه السلام ومناظرته لقومه لإبطال معبوداتهم، وذلك بالتأمل في ملكوت السموات والأرض، واستدراجهم بالسياسة الجدليّة؛ ليوقعهم في التسليم ببطلان تلك المعبودات، وقد استقرأ معهم النجوم والشمس والقمر التي كانوا يعبدونها من دون الله، وساق لهم الدليل على بطلانها على جهة

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٢، وما بعدها.

الإلزام، ثم ختم جداله معهم بالتوجه إلىٰ الله الذي فطر السموات والأرض(١) .

**خامساً:** اشتمل الربع الأخير من السورة علىٰ عشر وصايا وهي: النهي عن قتل الأولاد، وعن الزنا، وعن قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ثم أمرت الآيات بالإحسان إلىٰ اليتيم، وإتمام الكيل والميزان، كما أمرت بالعدل والوفاء بالعهد والاستقامة.

ـ وقد بدأت هذه الوصايا بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢) (٣) .

ـ وقد جاءت هذه الوصايا في آخر السورة بمثابة التلخيص والإجمال للأسس والمبادئ التي جاءت في مواضع متفرقة من السورة.

ـ ومن العرض الحسن، ما أورده، سيد قطب، في بداية حديثه عن السورة، فقد ذكر أن القرآن المكيّ كان يعالج القضيّة الأولىٰ في هذا

---

(١) انظر الآيات في سورة الأنعام من ٧٤ ـ ٨٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥١ ـ ١٥٣.

(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز، جـ ١، ص ١٨٧ ـ ١٨٨، وظلال القرآن، لسيد قطب، جـ ٢، ص ١٠٤، وتفسير القرآن الكريم، لمحمود شلتوت ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩، (و إيجاز البيان للصابوني ص ٢٤ـ٢٥، والتفسير بين الماضي والحاضر، د. عبدالله شحاته، ص ٦٣ ـ ٦٤.

الدين، وهي قضيّة العقيدة ممثلة في قاعدتها الرئسة: الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة.

ويقول: لقد كان هذا القرآن المكيّ يفسّر للإنسان سرّ وجوده ووجود هذا الكون من حوله، كان يقول له: من هو؟ من أين جاء؟ وكيف جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف؟ ومن الذي جاء به من العدم المجهول؟ من ذا الذي يذهب به؟ وما مصيره هناك؟ وكان يقول له: ما هذا الوجود الذي يحسه ويراه؟ والذي يحس أن وراءه غيباً ولا يراه؟ ومن أنشأ هذا الوجود المملوء بالأسرار؟.

إلى أن يقول: وكانت هذه هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجود الإنسان، وستظل هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجوده على توالي الأزمان[١].

٦ ـ **سورة الأعراف:** نزلت بمكة إجماعاً[٢].

وروي عن ابن عباس وقتادة: أنها مكيّة إلا بضع آيات أولها: ﴿وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾[٣] وهي أول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم، وأطول سورة في المكيّ، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء مع أممهم.

---

(١) في ظلال القرآن، بتصرف يسير، جـ ٢، ص ١٠٠٤.
(٢) بصائر ذوي التمييز، جـ ١، ص ٢٠٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

وقد نزلت بين جملتين من السور المكيّة يكثر في الجملة التي نزلت قبلها: «السور القصيرة» التي تعرف بسور [المفصّل]، ويكثر في الجملة التي نزلت بعدها السور المتوسطة التي تعرف بسور [المثين].

**وسميتْ بالأعراف:** لورود اسم الأعراف فيها، وهو سور مضروب بين الجنَّة والنَّار.. كما قال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾(١) قال اللغويون: الأعراف عند العرب: كل ما ارتفع من الأرض وعلا(٢)، وعلى الأعراف رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا يزالون عليه حتى يقضي الله فيهم بأمره قال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾(٣).

ووحدة السورة الموضوعية، ومحورها الذي تدور عليه: الإنذار بوجوب الإيمان، والبعد عن الكفر والطغيان.

تبدأ السورة بالإنذار في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤) ثم تسلك بهذا المعنى سبلاً شتى، وتتصرف به تصرفات كثيرة وترسم له صوراً متعددة، وتلمس به المشاعر لمسات مختلفة، فتارة يأخذ السياق شكل القصة: قصة آدم مع إبليس، ثم قصص نوح وهود وصالح وشعيب وموسى مع أقوامهم لتنتهي كل قصة بالعذاب والنكال لمن يخالفون أمر الله.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٣.

(٢) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي، جـ ٣، ص ٢٠٤.

(٣) سورة الأعرف، الآية: ٤٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢.

وتارة يأخذ شكل مشهد من مشاهد القيامة، أو مشاهد الاحتضار تتكشف فيه مصائر المكذبين المتكبرين، ومصائر الطائعين لرب العالمين.

ومن مقاصد السورة الرئسة: تقرير أصول العقيدة، بتوحيد الله في العبادة والتشريع، وتقرير البعث والجزاء، وتقرير الوحي والرسالة بوجه عام، وتقرير رسالة محمد ﷺ بوجه خاص، وتلك هي أصول الدعوة الدينية التي كانت لأجلها جميع الرسالات الإلهية[١].

وقد تناولت هذه السورة الكريمة مشهداً حيّاً من مشاهد القيامة، تبدو فيه ألوان جديدة من صور المحاورة والمناظرة، وفي هذا المشهد تجري المحاورة بين فرق ثلاث:

١ـ **فرقة المؤمنين:** أصحاب الجنّة، أهل الهدىٰ والإيمان.

٢ـ **الفرقة الثانية:** الكافرون، أصحاب النار، أهل الضلال والبهتان.

٣ـ **الفرقة الثالثة:** أصحاب الأعراف، الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، فإذا رأوا أصحاب الجنّة طمعوا، وإذا رأوا أصحاب النار فزعوا، واقرأ ذلك المشهد العظيم في سورة الأعراف من الأيات (٤٤ ـ ٥٠).

---

(١) تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت، ص ٤٤٨.

٧ ـ سورة الأنفال:

وهي مدنية بالإجماع[١] ، إلا ماروي عن ابن عباس أن سبع آيات منها مكيّات، أولها قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٢] إلخ الآيات .

وقد عرضت السورة لأول غزوة من غزوات الرسول ﷺ وهي غزوة بدر، وبهذه المناسبة أرشدت إلىٰ ماتستدعيه حالةالحرب من أحكام تتعلق بالقتال نفسه والإعداد له، كماعرضت لأحكام الغنائم والأسرىٰ ،وربطت بين المؤمنين علىٰ اختلاف ألوانهم بولاية الإيمان، كما ربطت بين الكفار بولاية الكفر، وقطعت بذلك ما بين المؤمنين والكفار من موالاة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾[٣] .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾[٤] .

فالوحدة الموضوعية في هذه السورة واضحة ؛ لأنها جاءت لمعالجة بعض النواحي الحربية التي ظهرت إثر بعض الغزوات، وقد تضمنت

(١) زاد المسير لابن الجوزي، جـ ٣، ص ٣١٦، وبصائر ذوي التمييز للفيزو آبادي، جـ ١، ص ٢٢٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الأنفال، الاية: ٧٢.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٧٣.

كثيراً من التشريعات الحربية والإرشادات التي يجب على المؤمنين اتباعها فيما بينهم بعضهم وبعض، وفيمابينهم وبين المحاربين والمسالمين.

بدأت السورة بالحديث عن الأنفال، وهي الغنائم التي يغنمها المسلمون في جهادهم لإعلاء كلمة الله، ثم استمرت السورة في بيان التشريعات، والإرشادات وآثار نعمة الله عليهم بالنصر والتأييد وغير ذلك مما له ارتباط بموضوعات السورة، ثم ختمت السورة، ببيان الوحدة والترابط بين المؤمنين المجاهدين ،وتقوية صلات الرحم؛ لما في ذلك من حفظ المودة والنصر وسلامة المجتمع من التفرق والاختلاف.

فالسورة من أولها إلى آخرها حديث عن الجهاد، وما يلزم جماعة المسلمين من الإعداد له واتخاذ الوسائل والاحتياطات اللازمة له، وفي مقدمتها إخلاص النية لله تعالى ،والصبر، والسمع والطاعة للقيادة وإعداد العدة والثبات في ساحة القتال، والبعد عن التنازع والاختلاف، وعدم الإصغاء للإشاعات والأراجيف التي يبثها الأعداء، وهي مايعرف اليوم بالحرب النفسية، بل إنها من أخطرالأسلحة لفلّ عزيمة الجيوش المقاتلة، ولهذا استخدمها الرسول ﷺ هو وأصحابه ضد أعدائهم، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(١)، وقد نُصر النبي ﷺ بالرعب على عدوّه كما ثبت ذلك في صحيح مسلم وغيره(٢).

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

(٢) صحيح مسلم، جـ ١، ص ٣٧٢.

وقصة أبي دجانة عندما كان يمشي يتبختر بسيفه أمام المشركين فقال ﷺ، «إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن»[١] .

وعند قدومه ﷺ إلى مكة هو وأصحابه في عمرة القضاء، سمع أن قريشاً تقول سيأتيكم محمدٌ وأصحابه وقد أنهكتهم حمّى يثرب، فأمر النبي ﷺ أصحابه عند الطواف حول الكعبة أن يحسر كل منهم عن كتفه الأيمن، وأن يرملوا في الأشواط الثلاثة الأولى وقال: «رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوة»[٢] .

وقد اشتملت السورة على وصف المؤمنين بخمس صفات كريمة هي: وجل القلوب عند ذكر الله، وزيادة الإيمان عند تلاوة آياته، والتوكل على الله وحده، وإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزق الله، ثم بين الله تعالى أنهم بهذه الصفات يكونون أهل الإيمان حقاً وأن لهم عند الله الدرجات العُلا في الجنة.

وقد تصدرت هذه الصفات سورة الأنفال قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[٣] .

---

(١) السيرة النبوية، لابن كثير، جـ ٣، ص ٣٠.

(٢) السيرة النبوبية لابن كثير، جـ ٣، ص ٤٣٠.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢ ـ ٤.

٨ ـ سورة التوبة:

وهي مدنية بالإجماع[١]، سوى الآيتين اللتين في آخرها ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[٢] إلخ، فإنهما نزلتا بمكة وهي من آخر ما نزل كما في صحيح البخاري من حديث البراء قال: آخر سورة نزلت «براءة»[٣]، ولعل هذا يعني آخر سورة نزلت مما اشتمل على الأحكام، ولم ينزل بعدها سورة كاملة إلا سورة «النصر» فقد نزلت بمنىً في حجة الوداع، وقد نزلت سورة التوبة في أواخر السنة التاسعة للهجرة، والسنة التاسعة هي السنة التي خرج فيها النبي ﷺ بالمسلمين إلى تبوك بقصد غزو الروم، وخرج في أواخرها أبوبكر الصديق على رأس المسلمين لحج بيت الله الحرام.

وقد كان للسورة بحكم هذين الحدثين العظيمين ـ في تأريخ الدولة الإسلامية ـ هدفان أصليان:

**أحدهما**: تحديد النظام الأساسي الذي تشاد عليه دولة الإسلام، وذلك بالتصفية النهائية بين المسلمين ومشركي العرب بإلغاء معاهداتهم، ومنعهم من الحج، وتأكيد قطع الولاية بينهم وبين المسلمين، وبوضع الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في جزيرة العرب، وإباحة التعامل معهم.

---

(١) انظر زاد المسير، لابن الجوزي، جـ ٣، ص ٣٨٨.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨ ـ ١٢٩.
(٣) صحيح البخاري، جـ ٣، ص ١٣٤.

ثانيهما: إظهار ما كانت عليه نفوس أتباع النبي ﷺ حينما استنفرهم ودعاهم إلى غزوة الروم، وفي هذه الدائرة تحدثت السورة عن المتثاقلين منهم والمتخلفين والمثبطين، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين وما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد وما قاموا به من أساليب النفاق وألوانه.

وقد عرضت السورة من أولها للهدف الأول، واستغرق ذلك إلى الآية السابعة والثلاثين منها.

كما عرضت للهدف الثاني ابتداءً من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾(١) إلى قوله في آخر السورة: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾(٢).

**اقتران سورة التوبة والأنفال:**

في الوقت الذي ترشدنا فيه سورة التوبة إلى الأحكام والأسس التي لابد منها للمسلمين لحفظ كيانهم الداخلي والخارجي، فإنها تشكل مع سورة الأنفال مايشبه أن يكون صورة تأريخية مجملة لدعوة النبي ﷺ وجهاده إلى أن أقر الله عينه بثمرة ذلك الجهاد وتبليغ تلك الدعوة.

فسورة الأنفال تضع الأوصاف التي بها تتحقق إجابة الدعوة، ثم تشير إلى حالتهم قبل الهجرة: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٧.

﴿الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾(١)، ثم تشير إلى تدبيرهم الذي كان سبباً مباشراً للهجرة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(٢)، ثم تذكر غزوة بدروما بدا من اليهود من نقض العهود: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾(٣) ، ومن المنافقين في التهكم بخروج المؤمنين إلى بدر من قلتهم: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾(٤) .

وبينما نرى سورة الأنفال تشير إلى هذه الأحداث الأولى، نرى سورة «التوبة» تشير إلى مشاهد النصر وتخص منها يوم حنين بالذكر: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾(٥) الآية، ثم تصف صراحة حادث الهجرة ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(٦) الآية، ثم تصف مواقف المشركين وأهل الكتاب، وتصف بالتفصيل مواقف المنافقين، وتذكر غزوة تبوك التي ترشد إلى واقعة مؤتة ، هذه الواقعة التي تذكّر بعهد كتب الدعوة التي وجهها النبي ﷺ إلى ملوك الأرض بعد صلح الحديبية .

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٦ .

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٠ .

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٥٨ .

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٩ .

(٥) سورة التوبة، الآية: ٢٦ .

(٦) سورة التوربة، الآية: ٤٠ .

ولعل قيام السورتين بالإرشاد إلى هذه المراحل كان هو الحكمة في وضعهما مقترنتين في الترتيب المصحفي(١) .

**والوحدة الموضوعية:** في هذه السورة ، أنها من بدايتها إلى نهايتها تقرر أحكام التعامل فيما بين المسلمين من جهة، وبين المسلمين وغيرهم من جهة ثانية، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين وغير ذلك مما يتصل ببناء الدولة الإسلامية وحراسة أمنها الداخلي وتكافلها الاجتماعي.

**٩ ـ سورة يوسف :**

وهي مكية، وقد تناولت جوانب كثيرة من أهداف السور المكية، ومن ضمنها «قصص الأنبياء» قال سيد قطب رحمه الله: والسورة لحمة واحدة عليها الطابع المكي واضحاً في موضوعها وفي جوّها وفي ظلالها وفي إيحاءاتها(٢) .

وقد جاءت السورة مفصلة قصة «يوسف الصديق» وما لاقاه من إخوته من ضروب المحن والشدائد ، و لهذا سميت بسورة «يوسف»، والمقصود بها تسلية النبي ﷺ، بما لاقاه من أذى القريب والبعيد في تلك الفترة الحرجة من حياة النبي ﷺ حيث توالت الشدائد والنكبات ، على الرسول وعلى المؤمنين، واشتد عليهم أذى المشركين، وبوجه خاص عندما فقد عليه الصلاة والسلام نصيريه : زوجه الطاهر الحنون

(١) تفسير القرآن الكريم لمحمود شلتوت، ص ٥٨٥ ـ ٥٨٩ بتصرف.
(٢) ظلال القرآن، جـ ٤، ص ١٩٥ .

«خديجة» التي كانت تخفف عنه الآلام والأحزان وتشجّعه ، وعمه «أباطالب» الذي كان يناصره ويدافع عنه مع أنه لم يدخل في الإسلام ، وبموتهما اشتد الأذىٰ والبلاء علىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ عرف ذلك العام بعام الحزن ، فكأن السورة تقول لمحمد ﷺ : انظر إلىٰ أخيك «يوسف» وتمعّن بما حدث له من صنوف المحن ، وما لاقاه من ألوان المكاره والابتلاء : محنة حسد إخوته له ، ومحنة كيد إخوته له ، ومحنة رميه في الجبّ ، ومحنة الرق ، وهو ينتقل كالسلعة من يد إلىٰ يد ، ومحنة كيد امرأة العزيز بالمراودة والإغراء ، ومحنة السجن بعد رغد العيش ، إلىٰ غير ذلك مما لاقاه من المحن والكوارث ، وهكذا تتوالىٰ النكبات إثر النكبات علىٰ الأنبياء والمرسلين ، والدعاة ، ولكن لابد من الفرج بعد الضيق ، والنصرة بعد الشدة ، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(١) ، هذا هوجوّ السورة وهذه إيحاءاتها تبشر بقرب النصر لمن سار علىٰ طريق الأنبياء والمرسلين .

وحين نستعرض سورة يوسف ، نجد أنها سورة فريدة في نوعها من بين سور القرآن الكريم ، فهناك قصص متعددة مبثوثة في ثنايا سور القرآن كان يكتفىٰ أحياناً بذكر حلقة أو حلقات محدودة من القصة ، كحلقة قصة مولد عيسىٰ عيه السلام ، أو حلقة قصة نوح والطوفان ؛ لأن هذه الحلقات تفي بالمقصود منها .

أما قصة يوسف ، فتقتضي أن تتلىٰ كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها من بدئها إلىٰ نهايتها وصدق الله العظيم : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ

---

(١) سورة غافر ، الآية : ٥١ .

أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾(١) .

قال الإمام القرطبي في تفسيره : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنىً واحد في وجوه مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل(٢) .

فالسورة ذات طابع خاص منفرد في احتوائها على قصة يوسف عليه السلام كاملة، فقد بدأت برؤيا يوسف، وانتهت بتأويلها، بحيث لايناسبها أن تكون حلقة منها أو حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة أخرى.

وقد اشتملت السورة على لفتات ولمسات أخرى في صفحة الكون، وفي أغوار النفس وفي آثار الماضين، وفي ضمير الغيب المطوي الذي لا يدري البشر ما هو مخبوء خلف ستاره الرهيب، وكل هذه العظات المبثوثة في حنايا السورة تتناسب مع القصة، والقصة تتكامل معها، لتحقيق القضية الكبرى التي جاء بها هذا القرآن للبشرية، وجاءت بها رسالات الأنبياء في العصور المتلاحقة.

وقصة يوسف عليه السلام وحدة موضوعية متماسكة، وهي أطول قصة في القرآن الكريم تجتمع حلقاتها كلها في سورة واحدة،

---

(١) سورة يوسف، الآية : ٣.

(٢) تفسير القرطبي، جـ ٩، ص ١١٨.

تلخص فيها الخصائص الفنية البحتة للقصة، خصائص الموضوع وخصائص العرض والأداء وتتوجها تلك الدعوة الصريحة إلى العقيدة السليمة والإيمان بالله على لسان يوسف حين مكث في السجن يدعو إلى الله، ويأخذ بيد الضعفاء ويواسي المحزونين ويفسر الأحلام ويشرح لهم سر معرفته وإيمانه فيقول: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1]، وبذلك نجد السورة تربط بين رسالات السماء جميعها برباط أساسي وهدف مشترك هو الدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشركاء والأنداد، وبيان أن الإيمان بالله هو الطريق الواضح والدين القيّم الذي يسمو بصاحبه ويعصمه من الفتنة، ويمنعه من الرذيلة ويجعله يقف ثابت اليقين، يقاوم الإغراء ويرد المنحرف إلى طريق الصواب.

**١٠ ـ سورة الكهف:**

مكية في قول جميع المفسرين كما ذكره القرطبي وابن الجوزي[2]، وقد نزلت في وقت اشتدت فيه حملة القرآن على المنكرين المكذبين بيوم

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٧ ـ ٤٠.

(٢) انظر تفسير القرطبي، جـ ١٠، ص ٣٤٦، وزاد المسير لابن الجوزي، جـ ٥، ص ١٠٢.

الدين، وقد نزلت قبلها سورة الغاشية وهي سورة تبدأ وتنتهي بحديث الساعة وإياب الناس جميعاً إلىٰ الله ليحاسبهم علىٰ ماقدموا.

ونزلت بعد سورة الكهف سورة النحل وعدة سور تحدثت عن البعث والجزاء، وأثبتت وحدانية الله وقدرته وذكرت عقوبته للمكذبين وأخذه علىٰ يد الظالمين.

لقد كان كفار مكة ينكرون البعث، ويستبعدونه في عناد وإصرار، فتكفل القرآن بمناقشتهم وتفنيد آرائهم، وأثبت قدرة الله علىٰ البعث والجزاء، وقدم الأدلة علىٰ هذه القضية وساق في سورة (الكهف) عدداً من الحجج والبراهين علىٰ حقيقتها، مبرزاً ذلك في صورة واضحة قد اكتملت فيها عناصر القوة والروعة والإفحام.

والقصص هو العنصر الغالب في هذه السورة، ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلىٰ قصة آدم وإبليس، وفي وسطها تجيء قصة موسىٰ مع العبد الصالح، وفي نهايتها قصة ذي القرنين، ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، فهو وارد في إحدىٰ وسبعين آية من عشر ومائة آية.

ومعظم ما تبقىٰ من آيات السورة هو تعليق أوتعقيب علىٰ القصص فيها، وإلىٰ جوار القصص بعض مشاهد القيامة وبعض مشاهد الحياة التي تصور فكرة أو معنىٰ، علىٰ طريقة القرآن في التعبير بالتصوير.

أما المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها، ويدور حوله سياقها، فهو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة.

فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها.

في البدء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾(١) .

وفي الختام: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٢) .

وهكذا يتساوى البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك، وإثبات الوحي، والتمييز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث.

أما تصحيح منهج الفكر والنظر، فيتجلى في استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم، والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان، وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه، وما لا علم له به فليدع أمره إلى الله.

ففي مطلع السورة: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾(٣) .

والفتية أصحاب الكهف يقولون: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾(٤) .

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١ ـ ٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٥.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١٥.

وعندما يتساءلون عن فترة لبثهم في الكهف يكلون علمها لله : ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾(١) .

وفي ثنايا القصة إنكار على من يتحدثون عن عددهم رجماً بالغيب : ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ .

وفي قصة موسى مع العبد الصالح عندما يكشف له عن سر تصرفاته التي أنكرها عليه موسى يقول : « رحمة من ربك وما فعلته عن أمري» فيكل الأمر فيها لله .

فأما تصحيح القيم بميزان العقيدة ، فيرد في مواضع متفرقة ، حيث يردّ القيم الحقيقية إلى الإيمان والعمل الصالح ، ويصغّر ما عداها من القيم الأرضية الدنيوية التي تبهر الأنظار .

وهكذا نجد محور السورة هوتصحيح العقيدة ، وتصحيح منهج الفكر والنظر ، و تصحيح القيم بميزان العقيدة .

ويسير سياق السورة حول هذه الموضوعات الرئسة في أشواط متتابعة ، تبدأ السورة بالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب للإنذار والتبشير ، تبشير المؤمنين وإنذار الذين قالوا : اتخذا الله ولداً ، وتقرير أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والاختبار ، والنهاية الى زوال وفناء ، ويتلو هذا قصة أصحاب الكهف ، وهي نموذج لإيثار الإيمان

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ١٩ .

على باطل الحياة وزخرفها، والالتجاء إلى رحمة الله في الكهف، هرباً بالعقيدة أن تمس.

**ويبدأ الشوط الثاني:** بتوجيه الرسول ـ ﷺ ـ أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وأن يغفل الغافلين عن ذكر الله، ثم تجيء قصة الجنتين تصور اعتزاز القلب المؤمن بالله، واستصغاره لقيم الأرض، وينتهي هذا الشوط بتقرير القيم الحقيقية الباقية.

**والشوط الثالث:** يتضمن عدة مشاهد متصلة من مشاهد القيامة تتوسطها إشارة إلى قصة آدم وإبليس، وينتهي ببيان سنة الله في إهلاك الظالمين، ورحمة الله وإمهاله للمذنبين إلى أجل معلوم، وتشغل قصة موسى مع العبد الصالح الشوط الرابع، وقصة ذي القرنين الشوط الخامس.

ثم تختتم السورة بمثل ما بدأت: تبشيراً للمؤمنين وإنذاراً للكافرين، وإثباتاً للوحي وتنزيها لله عن الشريك[1].

وبهذا يتجلى للناظر في السورة أنها منتظمة النسق، مطردة السياق، واضحة الغرض، قوية الأسلوب، متماسكة في أولها وآخرها وأثنائها، يجول فيها معنىً واحد تلتقي عليه الآيات والأمثال والقصص والوعد والوعيد والتذكير والبيان[2]، ولذلك يقول الله عز

---

(١) انظر في ظلال القرآن لسيد قطب، جـ ٤ ص ٢٢٥٦ ـ ٢٢٥٩.

(٢) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم: د. عبدالله شحاته، ص ٢١٢.

وجل في آية من آياتها : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾(١) .

١١ . سورة النور: وهي مدنية بالإجماع كما ذكره القرطبي (٢) وغيره، نزلت بعد سورة الحشر .

وسميت بهذا الاسم، لكثرة ذكر النور فيها :

كقوله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ﴾(٣) .

وقوله : ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾(٤)

وقوله : ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾(٥) .

وقد ذكر النور في هذه السورة بلفظه متصلاً بذات الله : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ، كما ذكر فيها النور بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح، ممثلة هذه الآثار في الآداب والأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه السورة، وهي آداب وأخلاق نفسية وعائلية وجماعية تنير القلب، وتنير الحياة، وهي مستمدة كلها من ذلك النور الكبير .

والمحور : الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية التي تشتد في وسائلها إلىٰ درجة الحدود، وترقىٰ إلىٰ درجة اللمسات الوجدانية

---

(١) سورة الكهف، الآية : ٥٤ .

(٢) تفسير القرطبي، جـ ١٢، ص ١٥٨ .

(٣) سورة النور ،الآية : ٣٥ .

(٤) سورة النور، الآية : ٣٥ .

(٥) سورة النور ،الآية : ٤٠ .

الرفيعة التي تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة.

وقد بدأت السورة بإعلان حاسم عن تقرير هذه السورة وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف، ومن آداب وأخلاق ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١) .

فيدل هذا البدء الفريد على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية، وفي فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية.

وتدور موضوعات السورة حول محورها الأصيل في خمسة أشواط متتالية، ووحدة موضوعية متناسقة.

**الشوط الأول:** يتضمن الإعلان الحاسم الذي تبدأ به السورة، ويليه بيان حد الزنا، وتفظيع هذه الفعلة، ثم بيان حد الفعلة، ثم بيان حد القذف وعلة التشدد فيه، واستثناء الأزواج من هذا الحد، مع التفريق بين الزوجين بالملاعنة، ثم حديث الإفك وقصته، وينتهي هذا الشوط بتقرير مشاكلة الخبيثين للخبيثات، ومشاكلة الطيبين للطيبات.. وبالعلاقة التي تربط بين هؤلاء وهؤلاء.

**ويتناول الشوط الثاني:** وسائل الوقاية من الجريمة، وتجنب النفوس أسباب الإغراء والغواية، فيبدأ بآداب البيوت والاستئذان على

---

(١) سورة النور، الآية: ١.

أهلهـا، والأمر بـغض البـصـر، والنهي عـن إبداء الزينة لغـير المحـارم، والحض على إنكاح الأيامى، والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء.

وكلها أسباب وقائية لضمان الطهر والتعفف في عالم الضمير والشعور، ودفع المؤثرات التي تهيج الميول الحيوانية، وترهق أعصاب المتحرجين المتطهرين، وهم يقاومون عوامل الإغراء والغواية.

**والشوط الثالث :** يتوسط مجموعة الآداب التي تتضمنها السورة، فيربطها بنورالله، ويتحدث عن أطهر البيوت التي يعمرها وهي التي تعمر بيوت الله، وفي الجانب المقابل الذين كفروا وأعمالهم كسراب من اللمعان الكاذب، أو كظلمات بعضها فوق بعض، ثم يكشف عن فيوض من نورالله في الآفاق في تسبيح الخلائق كلها لله، وفي إزجاء السحاب، وفي تقليب الليل والنهار، وفي خلق كل دابة من ماء، ثم اختلاف أشكالها ووظائفها وأنواعها وأجناسها، مما هو معروض في صفحة الكون للبصائر والأبصار.

**والشوط الرابع:** يتحدث عن مجافاة المنافقين للأدب الواجب مع رسول الله ﷺ في الطاعة والتحاكم، ويصور أدب المؤمنين الخالص وطاعتهم، ويعدهم على هذا الاستخلاف في الأرض والتمكين في الدين، والنصر على الكافرين.

**ثم يعود الشوط الخامس:** إلى آداب الاستئذان والضيافة، في محيط البيوت بين الأقارب والأصدقاء الى آداب الجماعة كلها كأسرة واحدة، مع رئيسها ومربيها رسول الله ﷺ.

وتتم السورة بإعلان ملكية الله لما في السموات والأرض، وعلمه بواقع الناس ، وما تنطوي عليه حناياهم، ورجعتهم إليه، وهوبكل شيء عليم[١] .

**أثر السورة في حفظ المجتمع:**

ويلاحظ أن سورة النور دعوة هادفة إلى إضاءة القلب بنور الله وذكره، وتذكر جلاله وعظمته، وهي سياج للفرد والمجتمع من الانحلال والتردي في الخطئية، فقد أمرت بغض البصر وحفظ الفرج، ونهت عن دخول البيوت بغير إذن وإيذان، ونهت عن قذف المحصنات وبينت عقوبة البهتان وإلصاق التهم الكاذبة بالمستقيمين ، وذمت إشاعة الفاحشة، وأظهرت عجائب صنع الله في إرسال المطر وتفصيل أصناف الحيوان، وحثت على التوبة والإنابة، وبذلك أخذت بيد الإنسان إلى الطريق الصحيح، ورفعت عنه عوامل الإحباط والانتكاس، وبينت أن الله مطلع على كل شي[٢] .

وهكذا تختم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله، وتذكيرها بخشيته وتقواه، فهذا هوالضمان الأخير، وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهي، وهذه الآداب والأخلاق التي فرضها الله في هذه السورة.

---

(١) انظر ظلال القرآن لسيد قطب، ص ٢٤٨٥ ـ ٢٤٨٧ .

(٢) أهداف كل سورة للدكتور عبدالله شحاته، ص ٢٥٨ .

هذه نماذج من سور القرآن الكريم ، تدلنا على مدى ارتباط السور القرآنية في موضوعاتها بوحدة موضوعية متماسكة متناسقة، وقد اشتملت هذه النماذج على سور مكية وسور مدنية .

# الفصـــل الخامـس

## تفسير الموضوعات التالية تفسيراً موضوعياً

سبقت الإشارة في أول هذا الكتاب إلى أن التفسير الموضوعي يعني «جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن الكريم المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية»، وفي هذاالفصل ـ الذي يعتبر صلب هذه الدراسة ـ سنتحدث عن نماذج من التفسير الموضوعي، وذلك باختيار موضوعات متنوعة تحدث عنها القرآن الكريم، وتفسيرها تفسيراً موضوعياً ومن هذه الموضوعات مايلي:

**الموضوع الأول: التوحيد**

ولأهمية هذا الموضوع وكونه أساس العقيدة الإسلامية، فسنرجع إلى ما كتبه العلماء في هذا المجال في ضوء القرآن الكريم، ومن أنفع ما اطلعت عليه مما كتب في هذا الموضوع مذكرة صغيرة للدكتور/ عبدالستار فتح الله السعيد، عالج فيها قضية الوحدانية والتوحيد.

وسنعتمد عليها في تجلية هذا الموضوع بالإضافة إلى مصادر أخرى مستدلين بالآيات القرآنية والسنة النبوية، فالتوحيد له معان لغوية وحقائق شرعية.

يقال في اللغة: (وَحِدَ) بكسر الحاء وضمها أي صار منفرداً، إذ أصل (الوحدة) الانفراد، أو كما يقول الراغب رحمه الله: «هي الشيء الذي لا جزء له ألبتّة»[1].

ويقال: وحَّده توحيداً أي جعله واحداً، أو عَدَّه واحداً.

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني مادة (وحد) ص ٥١٤.

و«الواحد» مشترك لفظي يطلق على الله تعالى وعلى غيره مع ملاحظة الفرق بين الوحدة في الحالين.

فالوحدة في جانب الخلق جميعاً عارضة تقبل التحول، بل قد تكون ادعائية.

كقولهم: فلان «واحدُ دهرِه» أو «نسيجُ وحدِه».

أما الوحدة في جانب الخالق جل شأنه، فهي أصلية غير عارضة، ولا مدّعاة، وهي حقيقة يقينية لا تقبل التحول والانتقال، وقد أحسن الراغب رحمه الله حين قال بعد أن بيّن استعمالات لفظ (الواحد):

«والوحدة في كلها عارضة، وإذا وصف الله تعالى بالواحد فمعناه هو الذي لايصح عليه التجزيء ولا التكثر»[١].

ولفظ «أحد» مشترك لفظي كذلك، لكنه إذا وقع وصفاً فلا يُكون إلالله تعالى؛ لأنه «أكمل من الواحد» كما قال أبو حاتم[٢]؛ وأوفى دلالة على معنى الوحدة.

**الوحدانية والتوحيد:**

(فالوحدانية) صفة ذاتية لله تعالى، و(التوحيد) إيمان المكلف واعتقاده أن الله تعالى متصف بذلك.

ولذلك يقول صاحب القاموس المحيط:

---

(١) المفردات للراغب ص، ٥١٥.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، جـ٢، ص ١٤٣.

«التوحيد الإيمان بالله وحده، والله الأوحد والمتوحد ذو الوحدانية»[١] .

«والوحدانية» : مصدر بمعنى «الوحدة» زيدت عليه ألف ونون للمبالغة في أصل المعنى، ونظيره لفظ : ربانية، وروحانية ، وجسمانية ، في النسبة إلى الرب ، والروح، والجسم، على وجه المبالغة.

وجاء لفظ «الوحدانية» على هذا البناء، للدلالة على اتصافه تعالى بالوحدة المطلقة البالغة غاية الكمال، والثابتة له سبحانه قبل أن يكون الخلق جميعاً كما قال تعالى : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾[٢] .

وكما قال ﷺ : **(كان الله ولم يكن شيء غيره)**[٣] .

**أما (التوحيد) شرعاً فهو:**

الإيمان الجازم بتفرد الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، وألوهيته، ونفي الشركاء عنه سبحانه اعتقاداً وعملاً، على الوجه الذي جاء به الوحي الإلهي على ألسنة الرسل عليهم السلام.

ويتلخص من هذا:

أن (الوحدانية) هي صفة لله تعالى، وهي حقيقة قائمة بذاته جل شأنه، سواء اعترف بذلك الناس أو لم يعترفوا.

---

(١) القاموس المحيط ، باب الدال، فصل الواو.

(٢) سورة الحديد، الآية : ٣.

(٣) رواه البخاري عن عمران بن حصين في (بدء الخلق).

(والتوحيد) هو اعتقاد المكلفين بهذه الصفة على وجهها الشرعي، فهو تكليف من الله لعباده ابتداءً، وهو امتثال من العباد لهذا التكليف انتهاءً.

ولا يتحقق «التوحيد» إلا إذا امتثل العباد لما كلفهم به ربهم على الوجه المشروع.

**صفات الله تعالى وأسماؤه:**

وقد علّمنا الوحي الإلهي أن لله تعالى صفات كثيرة: كالعلم، والقدرة، والإرادة، و (الوحدانية) من هذه الصفات الجليلة.

وعلمنا أن لله الأسماء الحسنى مثل: الخالق، الرازق، المصور، (والواحد) من هذه الأسماء الحسنى[١] .

وقد عني الوحي الإلهي أبلغ العناية ببيان وتقرير كل ما يتعلق بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وجعل ذلك رأس الإيمان، ولب الاعتقاد، خاصّة صفة (الوحدانية) باعتبارها الصفة الجامعة لكل كمال يليق بالله تعالى[٢] .

وإذا أردنا أن نعرف الطريق التي دعا إليها القرآن الكريم في إثبات وجود الله تعالى وجدناها تنحصر في طريقين، كما ذكرهما الفيلسوف ابن رشد في كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة»[٣] .

---

(١) جاء ذلك في حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي.

(٢) الوحدانية والتوحيد في ضوء القرآن للدكتور عبدالستار السعيد.

(٣) ص ٦٥.

**الطريق الأول:** طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله، ولنسم هذا **دليل العناية**.

**الطريق الثاني:** مايظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقل، ولنسم هذا **دليل الاختراع** .

ثم قال ابن رشد: ولذلك كان واجباً على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء، ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾(١) .

وكذلك أيضاً من تتبع معنى الحكمة في وجود موجود، أعني معرفة السبب الذي من أجله خلق، والغاية المقصودة به كان وقوفه على دليل العناية أتم، فهذان الدليلان هما دليلا الشرع.

وقد ذكر ابن رشد أن الآيات الواردة في القرآن، المنبهة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع سبحانه تنحصر في هذين الجنسين من الأدلة ـ يعني بذلك ـ دليل العناية، ودليل الاختراع، ثم قال: وذلك بيِّن لمن تأمل الآيات الواردة في الكتاب العزيز في هذا المعنى، وذلك أن الآيات التي في الكتاب العزيز في هذا المعنى إذا تُصُفِّحَت وُجدتْ على ثلاثة أنواع:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥ .

**١ ـ آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية .**

**٢ ـ آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع .**

**٣ ـ آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعاً .**

فأما الآيات التي تتضمن دلالة العناية فقط فمثل قوله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ إلىٰ قوله : ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾[(١)]، ومثل قوله : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾[(٢)] ومثل قوله تعالىٰ : ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾[(٣)] الآية، ومثل هذا كثير في القرآن .

وأما الآيات التي تتضمن دلالة الاختراع فقط، فمثل قوله تعالىٰ : ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾[(٤)] ، ومثل قوله تعالىٰ : ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[(٥)]، ومثل قوله تعالىٰ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[(٦)] ، ومن هذا قوله تعالىٰ حكاية عن قول إبراهيم : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[(٧)] إلىٰ غير ذلك من الآيات التي لا تحصىٰ .

---

(١) سورة النبأ، الآية : ٦ ـ ١٦ .
(٢) سورة الفرقان، الآية ٦١ .
(٣) سورة عبس، الآية : ٢٤ .
(٤) سورة الطارق، الآية : ٥ ، ٦ .
(٥) سورة الغاشية، الآية : ١٧ .
(٦) سورة الحج، الآية : ٧٣ .
(٧) سورة الأنعام، الآية : ٧٩ .

وأما الآيات التي تجمع الأمرين من الدلالة فهي كثيرة أيضاً، بل هي الأكثر مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾ إلى قوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١).

فإن قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾ تنبيه على دلالة الاختراع وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ تنبيه على دلالة العناية، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(٣)، وأكثر الآيات الواردة في هذا المعنى يوجد فيها النوعان من الأدلة، ثم يبين ابن رشد أن هاتين الطريقتين ـ يعني دلالة العناية ودلالة الاختراع ـ هما بعينهما طريقة الخواص، كما هي طريقة الجمهور، وفسر الخواص بالعلماء، ومعروف أن الجمهور: العامة من الناس، ثم قال: «وإنما الاختلاف على ماهو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس، وأما العلماء فيزيدون على مايدرك من هذه الأشياء بالحس ما يدرك بالبرهان، أعني من العناية والاختراع، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الذي أدركه العلماء من معرفة أعضاء الإنسان والحيوان هو قريب من كذا وكذا آلاف منفعة، وإذا كان هذا هكذا فهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية والطبيعية، وهي التي جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب، والعلماء لا يفضُلون الجمهور في هذين الاستدلالين من قبل الكثرة

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١، ٢٢.

(٢) سورة يس، الآية: ٣٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

فقط، بل ومن قبل التعمق في معرفة الشيء الواحد نفسه، فإن مثال الجمهور في النظر إلى الموجودات مثالهم في النظر إلى المصنوعات التي ليس عندهم علم بصنعتها، فإنهم إنما يعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط وأن لها صانعاً موجوداً، ومثال العلماء في ذلك مثال من نظر إلى المصنوعات التي عنده علم ببعض صنعتها وبوجه الحكمة منها، ولاشك أنّ من حاله من العلم بالمصنوعات هذه الحال هو أعلم بالصانع من جهة ماهو صانع، من الذي لا يعرف من تلك المصنوعات، إلا أنها مصنوعة فقط، أما مثال الدهرية الذين جحدوا الصانع سبحانه وتعالى في هذا، فمثالُ من أحسّ مصنوعات فلم يعترف بأنها مصنوعات، بل ينسب ما رأى فيها من الصنعة إلى الاتفاق والأمر الذي يحدث من ذاته»(١) .

ولقد جاء القرآن الكريم بالأدلة الكونية في الأنفس والآفاق، شاهدة بوجود الله تعالى، متمثلة في إبداع وأحكام تصريفه لشؤون خلقه، جاءت واضحة في نظام الكائنات وسائر المخلوقات، وقد وجدت هذه الكائنات على هيئة صالحة لاستخدام الإنسان لها وتذليلها له، وتسخيرها للانتفاع بها.

كما أنّ خلق الإنسان نفسه في تركيب بدنه وأجزائه وعجائب تكوينه على هيئة تدعو إلى الدهشة والحيرة، كلها تدل على أن هذه العناية والدقة في سائر المخلوقات محال أن تكوّن نفسها بنفسها، ومحال أن تكون على سبيل المصادفة العمياء، ومن غير حكيم وصانع مبدع أفاض عليها من عنايته وحكمته، وهو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ص ٦٩ ـ ٧٠ بتصرف.

ولقد استخدم القرآن الكريم لجدله وبراهينه على إثبات الصانع تعالى ما في عالم الحيوان من عجائب في خلقه، وتكوينه، وأجهزته الدموية والهضمية والعصبية والتنفسية، ونظام التوالد وتنوعه إلى حيوانات برية وبحرية وهوائية طائرة ميكروبية، وحيوانات طويلة العمر، وأخرى قصيرة الأجل، وحيوانات تبيض، وأخرى تلد، وحيوانات للأكل والحمل والألبان ومنافع أخرى كثيرة، ولو ذهبنا ننظر إلى كل هذا التنوع وكيفيات أخرى من التنوع، كاختلاف الألوان والأصوات، وطريقة الحياة، وتناول الطعام، ونظام المعيشة، لأدركنا أن ذلك التخصص والتمايز والتنوع، لم يكن عفوياً ولا مصادفة، بل كان بصنع فاعل حكيم مختار ليس من جنس الحوادث، بل هو خالق كل شيء سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٣).

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٣) سورة هود، الآية: ٦.

وقال تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾(٢) .

واستخدم القرآن الكريم لجدله وبراهينه لإثبات الصانع ما في عالم النبات من عجائب وسنن ونواميس تحار فيها العقول ، كيف توضع الحبة في الأرض الرطبة فلا تتلفها الرطوبة والعفونة ، كما يظن بادئ الرأي ، ولكنها تربو وتنتفخ وتنشق من أسفل عن جذور تمتد إلى باطن الأرض ، ومن أعلى عن ساق يصعد إلى أعلى شاقاً لنفسه طريقاً من بين التراب ، وكيف يتنوع عالم النبات ، ويختلف شكلاً ونوعاً وطعماً ومذاقاً ولوناً ورائحة وتختلف كذلك الثمار والفواكه ، بعضها يؤكل ظاهره ، ويرمى باطنه ، وبعضها يؤكل باطنها ويرمى ظاهره ، وإلى هذه المعاني تشير الآية الكريمة في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ (٣) ، وقوله في سورة فاطر : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾(٤) ، وقوله في سورة الرعد : ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾(٥) .

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٧٩.
(٢) سورة الملك ، الآية : ١٩ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٤١ .
(٤) سورة فاطر ، الآية : ٢٧ .
(٥) سورة الرعد ، الآية : ٤ .

ونظر القرآن في برهانه على وجود الله الخالق إلى عالم الكواكب والنجوم وما فيه من عجائب، كيف أنها رفعت بلا عمد، أو جبال، تسير في الفضاء بدقة ونظام في سيرها، لا يرتطم بعضها ببعض، نعلم من حركاتها عدد السنين والحساب والأيام والليالي والشهور، ونعرف بسبب سيرها الفصول السنوية من صيف إلى شتاء إلى ربيع إلى خريف، وكثيراً ما يشير القرآن الكريم في غير ما موضع إلى هذه المعاني كما في سورة الرعد ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1]، وقوله في سورة الأنعام: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾[2]. وقوله في سورة النحل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[3]. ويوجه القرآن في برهانه على وجود الله الأنظار إلى الرياح وتنوعها إلى حارة ورطبة وشمالية وجنوبية وشرقية وغربية وبطئية في سيرها وعاصفة وعقيم لا سحاب فيها وممطرة تحمل السحاب والماء، وإلى حمل الرياح مادة التلقيح من ذكور النبات إلى إناثه، وإلى جريان الفلك في البحار بواسطتها قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَمِن

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٧.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٢٢.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

آياته الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾(١) .

ثم وجه القرآن الأنظار إلىٰ مايتبع الرياح والهواء، ويتفاعل معه من السحاب والمطر والرعد والبرق، وأنّ كل ذلك عجيب الصنع، دقيق الحصول، متنوع في كمه وكيفه، وفي الآثار المترتبة عليه وفي سبب حصوله وتكونه، وفي انتفاع العباد والبلاد به وما يتبع ذلك من اختلاف درجات الحرارة والبرودة، وتأثير ذلك علىٰ سائر الموجودات فوق الغلاف الأرضي. لو نظرنا إلىٰ كل ذلك بتمعن لأدركنا أن فاعل ذلك لابد أن يكون حكيماً عليماً كما أشارت إلىٰ ذلك سورة النور حيث يقول تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾(٢) .

وقوله تعالىٰ في سورة الرعد: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾(٣) .

---

(١) سورة الشورىٰ، الآية: ٣٢ ـ ٣٤.

(٢) سورة النور، الآية: ٤٣ ـ ٤٤.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٢ ـ ١٣.

ثم وجه القرآن أنظار المكابرين إلىٰ الأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال ووديان وصحارىٰ وصخور ومعادن ومستخرجات من باطنها ومستخرجات من قشرتها السطحية ، وإلىٰ ما في الماء من عذوبة وملوحة وجزر ومد وتيارات سطحية وسفلية وأمواج كالجبال وأخرىٰ هادئة ، وإلىٰ صلاحية الأرض للحياة عليها والتقلب في مناكبها لطلب المعائش ، فلا هي بالرخوة بحيث يغوص الناس فيها ولا هي بالصلبة ، بحيث يستعصي علىٰ الناس حفرها للانتفاع بما في باطنها ، ولا هي باردة يتجمد الناس فوقها ، ولا ملتهبة بحيث تنصهر المخلوقات فوقها ، بل جعلها الله تعالىٰ مهاداً وبساطاً للعباد ، بين ذلك القرآن في أكثر من موضع ، ولو نظرنا إلىٰ ذلك بإنصاف ، لعرفنا بداهة أن هذا التنوع لايمكن أن يكون مصادفة واتفاقاً(١) .

وإلىٰ هذه المعاني يشير القرآن الكريم في مثل قوله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٢) .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣) .

---

(١) دراسات في علوم القرآن للدكتور عبدالغني الراجحي بتصرف .

(٢) سورة فاطر ، الآية : ٢٧ ـ ٢٨ .

(٣) سورة الرعد ، الآية : ٣ .

وقوله تعالى : ﴿أنزلَ منَ السَّماء ماءً فسالَتْ أوْديَةٌ بقَدَرِها فاحْتَمل السَّيْلُ زَبَدًا رَّابيًا ومِمَّا يُوقدُونَ عَلَيْه في النَّار ابْتغَاءَ حلْيَة أوْ متَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطلَ فَأمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾(٥) .

كل هذه الآيات بتنوع أساليبها واختلاف موضوعاتها تلفت الأنظار إلى أن هذا الكون ومايحتويه لم يكن وليد المصادفة والاتفاق، وإنما هو مخلوق عن علم عليم وقدرة قادر وهو الله تبارك وتعالى(٦) .

---

(١) سورة الرعد، الآية : ١٧ . (٢) سورة الحجر، الآية : ١٩ ـ ٢٠ .

(٣) سورة النمل، الآية : ٦١ . (٤) سورة فاطر، الآية : ١٢ .

(٥) سورة فصلت، الآية : ٩ ـ ١٠ .

(٦) انظر مباحث التوحيد بتوسع في كتابي (مناهج الجدل في القرآن الكريم) من ص ١٣٣ إلى ٢٧٦ الطبعة الثالثة .

**وجود الله حقيقة مسلّمة:**

فالله تعالىٰ متصف بصفة «الوجود» وهو متفرد بوجوب هذا الوجود، ومن المقرر الثابت أن عامة الأمم كانت تسلم بوجوده سبحانه وتعالىٰ، ولا تماري في ذلك قط لما يأتي:

أولاً: لأن الله تعالىٰ علّم أباهم آدم الأسماء كلها، ثم علمهم أبوهم آدم أول حقائق العلم وهو وجود الله تعالىٰ.

ثانياً: لأنّ الله تعالىٰ أخذ علىٰ بني آدم العهد والميثاق أنّه ربهم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾(١).

ثالثاً: لأن الرسل جميعاً ترادفوا بين الأمم علىٰ كلمة واحدة في الدعوة إلىٰ الإيمان بالله تعالىٰ.

رابعاً: لأنّ الله تعالىٰ فطر الناس علىٰ أنّ لهم رباً وخالقاً، وكلٍ مولود يولد علىٰ هذه الفطرة كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾(٢).

ومن هنا اجتمعت دلائل الخلق، والعهد، والعلم، والعقل، والوحي علىٰ التسليم بوجوده سبحانه وتعالىٰ تسليماً مطلقاً، وشاع ذلك بين الناس منذ درجوا علىٰ الأرض.

وقد أفاض القرآن الكريم في تقرير هذه الحقيقة البيّنة، وبيان شيوعها وذيوعها بين الأمم من أقدم عصور التأريخ.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

قال تعالىٰ: علىٰ لسان قوم نوح: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾(١).

وقال تعالىٰ معرّضاً بعاد وثمود: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾(٢).

ولم ينكر وجود الله تعالىٰ في الأمم السابقة إلاّ صنفان:

**الأول:** «الدهريون» وهم قلة قليلة في كل أمة، كانوا ينسبون الأفعال إلىٰ الدهر وطبائع الأشياء، وقد قص القرآن مقالتهم، وجهلهم، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾(٣).

الثاني: «المكابرون» أصحاب اللجاج المحض، والحجاج الباطل الذي لا يخرج عن نطاق الهذيان والهزل، وغالباً مايكون في مواقف الخصومة والجدال مع الرسل عليهم السلام، ومثال ذلك محاورة إبراهيم عليه السلام للنمرود، ومواقف موسىٰ عليه السلام مع فرعون.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾(٤).

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٣ـ١٤.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٥٨.

وفي هذ الموقف أيضا قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(١) .

فلم يكن النمرود ولا فرعون يجهلان وجود الله تعالى، وإنما جادلا بالباطل حفاظاً على الملك والسلطان واستتباع الناس لهم، وقد تكرر ذلك بين طواغيت الأمم، كما قال تعالى عنهم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾(٢) .

ولهذا لم يتوسع القرآن كثيراً في هذه القضية لكونها حقيقة مسلّمة عند عامة الأمم، وإنما عرض لهافي إيجاز رداً على الملحدين والمكابرين كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾(٣) .

**ضلال بعض البشر في عقيدة التوحيد:**

ومع اعتراف الأمم بوجود الله تعالى انحرفوا في أمر التوحيد، وضلوا فيه ضلالاً مبيناً، فأشركوا مع الله تعالى غيره، وجعلوا معه آلهة أخرى، واتخذوا من دونه أنداداً يحبونهم كحب الله. وقد لقن الشيطان أتباعه فرية خبيثة، فزعموا أن الله تعالى قد أعطى لبعض «القوى» في الكون تفويضاً وسلطاناً، وجعل لهم نفوذاً وتأثيراً، لذلك

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٣.
(٢) سورة غافر، الآية: ٥.
(٣) سورة الطور، الآية: ٣٥ـ٣٦.

يتقرب إليهم الناس ليكونوا واسطة بينهم وبين الله تعالىٰ في الشفاعة لهم، أو دفع الضر عنهم، أو جلب النفع لهم، وتدرجوا حتىٰ عبدوا من دون الله كل ماسولته لهم أوهامهم وشياطينهم، ابتداءً من الملائكة وبعض الرسل، وانتهاءً بالجن والكواكب والملوك والكهان، بل لم يزل الشيطان يستخف من اتبعه من الغاوين حتىٰ هوىٰ بهم إلىٰ أسفل سافلين فعبدوا الشجر والحجر، والحشرات والبقر، والشمس والقمر وغير ذلك من المخلوقات التي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، ولا تملك موتاً ولا حياة ولانشوراً.

### موقف القرآن من الوحدانية والتوحيد:

وقد وقف القرآن موقفاً شاملاً في هذا الباب، و عُني بأمر الوحدانية والتوحيد غاية العناية، وأبرزهما في الآيات المكية والمدنية جميعاً، وموقف القرآن في هذا الجانب واسع مستفيض، يحتاج إلىٰ مجلدات تفرد له، ولكننا في باب (التفسير الموضوعي) نأخذ جوامع الآيات الكريمة التي تجلي لنا هذا الموقف الشامل، والذي نلخصه في الفقرات التالية:

### أولاً: سر الاهتمام البالغ:

لأن الوحدانية صفة جامعة من صفات الله تعالىٰ: والتوحيد عقيدة ملزمة لايقبل عمل العبد إلا إذا قام بها علىٰ وجهها الشرعي. ولأن «التوحيد» هو العقيدة التي كثر فيها انحراف البشر عن حقائق

الفطرة التي خلقوا عليها، وعن حقائق الوحي الإلهي الذي جاء على ألسنة الرسل جميعاً عليهم السلام كما سنبين بعد قليل إن شاء الله.

**ثانياً: جوامع الألفاظ:**

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه القضية الكبرى (الوحدانية والتوحيد) بألفاظ شتى تدور حول تقريرها وتأكيدها بطريق الإثبات أو النفي لأضدادها مثل لفظ: الواحد، والأحد، والرب، الإله، ومثل الشرك والشركاء والشفعاء والأولياء، والدعاء، والعبادة وغير ذلك كثير، وعلى سبيل المثال:

فقد ورد لفظ (واحد) وما تفرع منه في القرآن الكريم في ثمانية وستين موضعاً [١] منها ثمانية وعشرون موضعاً وصفاً لله تعالى، وتقريراً لوحدانيته مثل ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[٢].

ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾[٣].

وقد ورد لفظ (أحد) في القرآن الكريم خمساً وثمانين مرة[٤].

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (وحد) ص ٧٤٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٣.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٥.
(٤) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (أحد) ص ١٥.

ومن العجيب أنه جاء منها (مرة واحدة) وصفاً لله تعالىٰ وهو قوله تعالىٰ في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وكأن هذا نوع من التأكيد لأحديّة الله تعالىٰ من حيث اللفظ والمعنىٰ والعدد جميعاً.

وقد ورد لفظ (أحد) بصيغ أخرىٰ ـ غير الوصف ـ بالله تعالىٰ بوجه ما، مثل ردّ الأحدية إليه عن طريق الاستثناء قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ﴾(١).

ومثل نفي الشركاء مطلقاً قال تعالىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾(٢)، ﴿وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾(٣)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾(٤)(٥).

**ثالثاً: أصل الأصول جميعاً:**

فالقرآن العظيم يتحدث عن (الوحدانية) باعتبارها الصفة الإلهية الجامعة لكل صفات الكمال، فهو سبحانه واحد في ذاته.

وهو سبحانه واحد في صفاته فلا يشاركه أحد في علمه ولا في قدرته أو إرادته أو حكمته، أو أي صفة من صفاته جلَّ شأنه.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩. (٢) سورة الجن، الآية: ٢٦.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٦. (٤) سورة فاطر، الآية: ٤١.
(٥) لفظ (أحد) في سورة الإخلاص وصف له سبحانه وتعالىٰ وأما «أحد» في غيرها فهو بمعنىٰ إنسان، أوشخص واحد.

وهو واحد في أفعاله سبحانه فلا يشاركه أحد في خلقه، ولا رزقه كما قال تعالى في كلمة جامعة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١).

والقرآن الكريم يتحدث عن (التوحيد)، باعتباره رأس الإيمان والأصل الذي ينبغي أن يتقرر في النفس والقلب قبل كل شيء، ثم في العمل والسلوك؛ لأنه مقياس كل شيء بعده، فلا يقبل عمل بدونه، ولاتقبل شفاعة، ولا تُعطى مغفرة لمن أخلّ به قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(٢).

**رابعاً: أساس دعوة جميع الرسل عليهم السلام:**

فقد قرر القرآن الكريم أن الأساس الذي قامت عليه دعوة الرسل هو تقرير وحدانية الله تعالى، وتنزيهه عن الشركاء والأنداد والأبناء والآباء، وصرف وجوه العباد له وحده في العبادة والطاعة والذكر والدعاء والاستعانة، والاستغاثة، والتوكل ونحو ذلك من كل ما لا يليق إلا به سبحانه وتعالى.

**وقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى وأكده بطريقين:**

**الأول: الطريق الإجمالي:**

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٣).

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

فهذا تعميم على سبيل الحصر بأن كل رسول قد أوحي إليه أن الله تعالى متصف بالوحدانية (لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا) مستحق للتوحيد من العبيد (فَاعْبُدُون) وقال تعالى في هذا المعنى أيضاً: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(١).

والآية الكريمة تقرر أن الأمم جميعاً بعث في كلٍ منها رسول، وكان أول دعوة كل رسول في كل أمة أن اعبدوا الله ولا تشركوا به الطواغيت، (والطواغيت كل ماعبد من دون الله تعالى) وهو مشتق من الطغيان.

**الثاني: الطريق التفصيلي:**

وهو الذي يذكر فيه القرآن الرسل بأسمائهم، وكيف كان التوحيد هو رأس دعوتهم جميعاً ومن ذلك:

١ ـ ما جاء في قصة نوح عليه السلام، وهو أول رسول إلى أهل الأرض بعد أن حدث الشرك في بني آدم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(٢).

٢ ـ وقال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(٣).

٣ ـ وبالألفاظ نفسها قال تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(٤).

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٦٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٧٣ ـ ٦١.

٤ ـ وهي التي جاءت على لسان شعيب عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(١).

٥ ـ أما إبراهيم عليه السلام، فقد تحدث القرآن بتفصيل وافر عن دعوته إلى التوحيد بشتى الصيغ والأساليب في المواقف المتعددة وفي الأحوال المختلفة.

ولعل السر في توسع حديث القرآن عن إبراهيم عليه السلام أنه أبو الأنبياء الكرام الذين جاؤا بعده ﷺ، وكان اليهود والنصارى والعرب يعترفون بنبوته وأبوته لهم، بل ويعتزون بالانتساب إليه عليه السلام.

ومن هنا توسع القرآن في الحديث عن إسلامه، ودعوته البليغة إلى التوحيد، ونبذ الشرك وعن محاوراته المفحمة للمشركين، وموقفه العملي الصارم من الأصنام: سخرية منها، وتحطيماً لها، وتبكيتاً لعبّادها، وبذلك تقوم الحجة على المنتسبين إليه من اليهود، والنصارى ومشركي العرب الذين حرفوا جميعاً دين الحق، ووقعوا في ضروب من الوثنية الطامسة الدامسة، وبذلك تسقط دعواهم أنهم على دين إبراهيم كما قال تعالى رداً عليهم مجتمعين: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٥ وهود الآية: ٨٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

ويقول تعالىٰ عنه وعن المؤمنين معه : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾(١) .

وسيأتي الكثير من حديث القرآن عن دعوة إبراهيم عليه السلام إلىٰ التوحيد الخالص .

٦ ـ وعن موسىٰ عليه السلام يقول تعالىٰ : ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾(٢) .

٧ ـ وعن عيسىٰ عليه السلام يقول تعالىٰ : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(٣) .

٨ ـ أما محمد ﷺ ، فقد بعث بالدعوة العالمية الشاملة ، وبالتقرير الأوفىٰ ، وبالبيان الأعلىٰ في شأن الدين كله عامة ، والتوحيد منه خاصة ، وقد أمده القرآن العظيم بأتم الحجج والبراهين ، وسجل أقاويل الكفار وردود الوحي عليها ، حتىٰ تكون حجة الله بالغة باهرة إلىٰ يوم الدين ، وحتىٰ لاتكون للناس علىٰ الله حجة بعد ختم النبوة ؛ لأن القرآن هو صوتها الممدود ، ودعاؤها الموصول ، وفيه أكمل حديث عن

(١) سورة الممتحنة ، الآية : ٤ .

(٢) سورة طه ، الآية : ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٧٢ .

التوحيد تقريراً ، وإثباتاً ، ورداً على المشركين والملحدين ، وإبطالاً للشرك وكل ضروب الوثنية والانحراف عن التوحيد .

ويكفي مثالاً لهذا ما أمره الله تعالى أن يقول للناس في كلمات جامعة : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .

فهذه السورة الكريمة ، على وجازتها ، جامعة لكل ما يليق بالله تعالى وحده من صفات الكمال توحيداً وتنزيهاً له عن الشركاء ، والأشباه ، ثم هي مصححة لضلالات المشركين وأهل الكتاب في باب الاعتقاد .

إن الآية الأولى تثبت (الوحدانية) لله تعالى على أبلغ الوجوه ؛ لأن لفظ (أحد) أكمل من الواحد كما تقدم ، ولذلك لايوصف به إلا الله تعالى ، والآية الثانية : بيان لأسباب أحديته ؛ إذ أنه هو وحده السيد الكامل في جميع صفاته وأفعاله ، وهو المقصود في جميع الحوائج وهو الغني عن كل شيء بل كل شيء محتاج إليه .

والآيتان الثالثة والرابعة تقرير لهذه الأسباب أيضاً ؛ لأنه سبحانه منفرد عن الأصول والفروع ، ومايلزمهما من الصاحبة أماً أو زوجاً ، «ومنفرد عن الشبيه والمماثل وإن لم يكن أصلا أو فرعاً»[1] .

**خامساً: الربوبية والألوهية وصلتهما بالتوحيد:**

وقد تحدث القرآن الكريم طويلاً عن الربوبية والألوهية ، وأبطل كل ادعاء لأحدهما من دون الله تعالى : وأثبت أنه لا ربّ ولا إله بحق

(١) انظر تفسير الآية الكريمة في تفسير البيضاوي والخازن ، وأبي مسعود .

إلا الله تعالىٰ، وأوجب سبحانه وتعالىٰ على عباده أن يفردوه بهما في التوحيد.

والرب: شرعاً يطلق علىٰ معانٍ أجمعها:

(أ) المربي الذي تعهد خلقه بالتنشئة والتربية وقضاء الحاجات، علىٰ معنىٰ أنه هو المتصف بكل صفات التأثير من خلقٍ، ورزقٍ، وملك، وإحياء وإماتة وتدبير، وهداية.. إلخ.

(ب) السيد المطاع النافذ الحكم.

والإله: يطلق علىٰ معان أجمعها:

(أ) المعبود الذي يستحق وحده أقصىٰ غايات التذلل و الخضوع من صلاة، وذكر، وحب، وخوف، وتوكل، ودعاء، ونذر، وقسم به سبحانه وتعالىٰ.. إلخ.

(ب) المستعلي علىٰ عباده الخليق بالطاعة فيما أمر ونهىٰ.

**وصفان لا يفترقان:**

ومن هنا يتضح التلازم التام بين الربوبية والألوهية، وأنهما لا ينفصلان من حيث الواقع، لما يأتي:

**أولاً:** لأنهما وصفان لذات واحدة، لا يوجدان في غيرها ولايجتمعان في سواها، ولا يتحققان بمعناهما الصحيح إلا (لله) الواحد الأحد.

ثانياً: لأنهما يجتمعان في معنىً مشترك بينهما وهو المعنى (ب) السابق وإن اختص كل منهما بمعنىً خاص.

**الوحدانية والتوحيد مجموع الأمرين:**

ومن هنا يتضح أيضاً أن:

(الوحدانية) تعني وجوب إفراده سبحانه وتعالى بالأمرين جميعاً فلا يقال: (توحيد الربوبية) هو كذا.. ولا يقال (توحيد الألوهية) هو كذا إلا على سبيل البيان والتعليم.

أما من حيث الحقيقة الشرعية، فالتوحيد هو أن يؤمن العبد بأن الله تعالى هو وحده صاحب كل صفات التأثير والكمال، وأنه لذلك مستحق للعبادة والطاعة.

فإذا أقرَّ العبد بأحدهما، لم يكن موحداً حتى يقر بالآخر، وإنما هو مقرّ أو معترف بأحدهما، ولكن لايصح أن يسمى (موحداً)؛ لأن التوحيد هو مجموع الأمرين جميعاً.

ولهذا لم يطلق القرآن على الكفار أنهم (موحدون) توحيد الربوبية حين أقروا أن الله تعالى هو الخالق، المالك، الرازق[1]، وإنما سماهم

---

(١) كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ سورة يونس الآية ٣١.

كفاراً، ومشركين[١] ؛ لأنهم لم يأتوا بحقيقة التوحيد الجامعة، وإنما أقروا بشيء منها والتوحيد لا يقبل التجزئة أصلاً، فمن أشرك في شيء فقد أشرك الكل.

ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٢].

والقرآن الكريم يورد هذين الوصفين على أربعة وجوه:

**الوجه الأول:** استعمال اللفظ في معناه الخاص به فقط.

مثال الربوبية: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[٣] فالخلق من أخص معاني الربوبية الذي وقع وصفا للفظ «الرب».

مثال الألوهية: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٤] فالإله هنا بمعنى المعبود.

**الوجه الثاني:** استعمال اللفظ في معناه الخاص به مع جمعها في مكان واحد:

---

(١) يقول تعالى بعد الآية السابقة: ﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ سورة يونس، الآيات ٣٣، ٣٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٣) سورة العلق، الآية: ١.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾(١) أي هو (ربي) خالقي ومالكي ورازقي.. إلخ.

و﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي المعبود الذي لا معبود سواه.

فلكل لفظ معناه الخاص به، وجمع بينهما لبيان حقيقة التوحيد الجامعة للمعنيين جميعاً، لذلك جاءت آيات أخرى تبين المعنى المقصود عقب كل لفظ منهما مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾(٢).

فالخلق متصل بمعنى (الرب)، واستنكار الانصراف عن عبادته متصل بمعنى (الإله) الحق. وقد جاء المعنيان صراحة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾(٣).

وهو من النوع المعروف في البديع باللف والنشر المرتب.

**الوجه الثالث:** استعمال اللفظين في المعنى المشترك بينهما وهو (السيد المطاع) قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٤). فسياق الآيات يدل على أن المراد (بالرب) هنا السيد المطاع في أمره ونهيه المفهوم من قوله تعالى قبلها: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الآيات وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٠.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾(١) .

وربوبية الأحبار والرهبان بمعنى طاعتهم طاعة مقدسة في أمور الحلال والحرام، ومعنى عبادة الإله الواحد في قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي ليطيعوا سيداً واحداً لهم؛ لأن المقام عن الطاعة في التشريع كما جاء في حديث عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، **فقال: ياعدي اطرح عنك هذا الوثن،** وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(٢) **قال أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلّوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرّموه)** رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب(٣) .

**الوجه الرابع:استعمال كل لفظ مكان الآخر.**

وذلك لما قلنا من التلازم التام بينهما، فإذا ذكر أحدهما دل على الآخر، باعتبارهما وصفين منفردين لذات واحدة، ولا يليق أحدهما إلا بالله تعالى: فإذا ذكر (الرب) فهم منه أنه المستحق للعبادة والطاعة وحده، وإذا ذكر (الإله) فهم منه أنه الخالق الرازق المالك؛ لأنه لا يكون (إلهاً) إلا بهذه الصفات.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٣)سنن الترمذي، جـ ٢، ص ٢٤٨.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾(١) .

فالسؤال في أول الآية وقع عن أشياء تتصل بالخلق، والرزق، والقدرة، والتدبير وغيرها من صفات التأثير التي هي معنى لفظ (الرب) فكان المقام يقتضي سؤالهم في آخر الآية ذلك فيقال: (أرب مع الله)؟ ولكن وقع السؤال بقوله: (﴿أإله مع الله﴾؟ ؛ لأن اللفظين متلازمان لا فرق بينهما من حيث الواقع، وإن كان استعمال كلمة (إله) هنا قد جاء لحكمة عظيمة لأنه سألهم عن محل النزاع مباشرة والمعنى: أرب يخلق ويرزق مع الله فيستحق التأليه معه؟ ولما كان الخلق والرزق والتدبير ليس محل نزاع كثير، وإنما النزاع في عبادة غير الله لذلك عاجلهم باستنكار إتخاذ آلهة مع الله تعالى .

والمثال الثاني قوله تعالى : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾(٢) .

والمقام يقتضي أن يقول : اعبدوا الله إلهي وإلهكم، ولكن استعمل كلمة (الرب) مكان (الإله) للتلازم التام بين الكلمتين كما قلنا.

والحكمة هنا ـ والله أعلم ـ أن ذكر (الرب) فيه تصريح بعلة العبادة وهي ما يتضمنه الرب من معاني الخلق والرزق. . إلخ، والمعنى اعبدوا الله الذي خلقكم ورزقكم وتولاكم في سائر أموركم.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٧٧.

سادساً: التوحيد عقيدة شاملة:

ومما تقدم يظهر جلياً أن [التوحيد] الذي أمرنا الله تعالى به إنما هو عقيدة شاملة تستوجب يقين القلب، وإسلام الوجه لله تعالى قولاً وعملاً، وإفراده سبحانه وتعالى وحده بالعبادة كالصلاة والدعاء، وبالطاعة في شؤون الحياة أي في تشريعات الحلال والحرام.

فالتوحيد ليس قضية كلامية، أو جدلية، وإنما هو التزام شامل بدين الله تعالى في كل نواحي الحياة الإنسانية.

لذلك قص علينا القرآن الكريم كيف جعل الرسل جميعاً على رأس دعوتهم اجتناب ـ الطواغيت ـ التي تعبد من دون الله قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(١).

ولذلك جعل الرسُل جميعاً مدخلهم إلى تغيير حياة أهل الجاهليات هو (التوحيد)؛ لأن التوحيد يعني رد الحكم والتشريع إلى الله تعالى في العقائد والأخلاق، والعبادات والمعاملات، فإذا فعل الناس ذلك سهل تغيير ماهم عليه من فساد وضلال.

يقول تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾(٢)، فالآية الكريمة ترتب على التوحيد وجوب الالتزام بشريعة الله في التجارة والتصرفات المالية.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٢) سورة هود، الآية: ٨٤.

ويقول صالح عليه السلام لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾(١) .

فقد رتب النهي عن طاعة أوامر الزعماء الضالين على تقوى الله وطاعة الشرع الذي جاءهم به عليه السلام من عند الله .

ويقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾(٢) .

فقد جعلت الآية الكريمة التوحيد أو النهي عن الشرك رأس الأمر فيما بعده من الأوامر والنواهي .

فتقرر إذاً اختصاص الله تعالى وحده بالطاعة في التشريع ، كما اختص بالعبادة وحده ، وهذا هو معنى التوحيد في شموله وسعة مدلوله .

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز ـ رحمه الله ـ بعد كلام طويل عن سورة البقرة :

**الخطوة الأولى:** تقرير وحدة الخالق المعبود .

**الخطوة الثانية:** تقرير وحدة الآمر المطاع .

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٥٠ ـ ١٥٢ .

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥١ .

وهو ركن من عقيدة التوحيد في الإسلام، فكما أن من أصل التوحيد ألاّ تتخذ في عبادتك إلـهاً من دون الرحمن الذي بيده الخلق والرزق، كذلك من أصل التوحيد ألاّ تجعل لغيره حُكْماً في سائر تصرفاتك، بل تعتقد ألا حكم إلا له، وأنّ بيده وحده الأمر والنهي، والحلال ما أحله الله، والحرام ماحرمه الله، ومن استحلّ حرامه، أو حرّم حلاله فقد كفر(١).

**سابعاً: أساليب القرآن في الحديث عن الوحدانية والتوحيد:**

جاءت أساليب القرآن في هذا الباب على غاية التفنن والإبداع، تلطفاً في استدعاء الناس إلى التوحيد، وتأليفاً لقلوبهم، ولفتا لأسماعهم وأبصارهم، وإقامة للحجة عليهم بكل الأساليب ومن ذلك:

١ ـ أسلوب الخبر المجرد بياناً للحق، وإعلاماً للخلق كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢)، ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾(٣).

٢ ـ أسلوب الخبر المؤكد:

والمؤكدات التي جاء بها القرآن في شأن الوحدانية والتوحيد كثيرة متنوعة ومنها:

(أ) التأكيد بإنّ.

(ب) التأكيد باللام.

(جـ) التأكيد بالقسم.

---

(١) راجع هذا البحث القيم في كتاب النبأ العظيم ص ٢١٧ ومابعدها.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٣.

ومثالها جميعاً قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾(١) .

(د) التأكيد بأساليب القصر :

كأسلوب النفي والاستثناء ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾(٢) .

وأسلوب القصر (بإنما) ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾(٣) .

وأسلوب القصر بالتقديم والتأخير ﴿إياك نعبد﴾، فتقديم المفعول (إيّاك) أفاد قصر العبادة على الله تعالى وحده.

وأسلوب القصر بتعريف طرفي الجملة ﴿اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٤)، فتعريف الخبر (ربي) أفاد أنه مقصور على المبتدأ، أي الربوبية مقصورة على الله تعالى، وكذا تقديم [عليه] على الفعل يعني قصر التوكل عليه، وكذا تقديم [إليه] على الفعل يعني قصر الإنابة إليه وحده.

٣ ـ أسلوب الطلب كالاستفهام التقريري، أو الإنكاري قال تعالى: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٥) .

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١ ـ ٥.

(٢) سورة طه، الآية: ١٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٤) سورة الشورى، الآية: ١٠.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٣٩.

وقال تعالىٰ ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١) .

ومن هذا النوع الطلبي فعل الأمر مثل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، فإن نظرت إلىٰ أول الجملة كانت إنشائية طلبية لصدارة فعل الأمر (قل) وإن نظرت إلىٰ مضمون الجملة أو مقول القول كانت خبرية، وفي الحالين هي إثبات للوحدانية، وأمر بالتوحيد علىٰ أبلغ الوجوه وأوفاها، ولذلك كانت السورة المصدّرة بهذه الآية الكريمة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الحديث الصحيح(٢) .

**أسلوب الأمثال:**

وهو باب في القرآن الكريم، يقصد به تقرير المعاني في نفس السامع، وتصويرها في صورة محسوسة ملموسة عن طريق التشبيه، أو الاستعارة أو غيرهما من أساليب البيان، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾(٣) .

فقد ضرب الله تعالىٰ مثلاً للذين يستنصرون بآلهة غير الله، صوّرهم فيه بأنهم يستنصرون بأضعف شيء، وكأنهم العنكبوت في

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٣.

(٢) انظر صحيح البخاري، جـ ٣، ٢٣٠، فضائل القرآن.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤١ ـ ٤٣.

بيته الهش الذي تمزقه الريح، وتقتحمه الحشرات، ويعبث به الصبيان فلا يغني عن أهله شيئاً.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فيه شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

فهذان مثلان: للمشرك في تخبّطه وحيرته، وللموحد في راحته وسلامته، ولا يستويان أبداً كما لا يستوي عبد مملوك لعدد من السادة يسومه سادته سوء العذاب، وعبد مملوك لمالك واحد لا يشق عليه بكثرة الأوامر واختلاف المذاهب.

**٥ ـ أسلوب المحاورة:**

وهو الذي يورد فيه الحديث عن التوحيد من خلال حوار يجري بين طرفين أو أكثر، فيتقرر في النفس أكثر من الخبر المجرد.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾(٢).

**٦ـ أسلوب القصة:**

وهو أسلوب من أوسع أساليب القرآن في التوحيد وغيره، وقد عُني القرآن الكريم بهذا الأسلوب، وأكثر منه؛ لما للقصة من تأثير في النفوس وسهولة في الحفظ، وانتشار وذيوع بين الناس، وأوضح مثال

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٩.

(٢) سورة مريم، الآية: ٤١ ـ ٤٢.

لذلك قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه وأصنامهم وتحطيمه لها، وتقريره للتوحيد من خلال المشاهد المتتابعة التي جرت بينه وبين قومه كما قص الله علينا ذلك في عديد من سور القرآن الكريم كالشعراء، والصافات، والأنبياء ومنها: أنه بعد أن حطم الأصنام سألوه عليه السلام فسخر منهم، وأحالهم إلى الأصنام فرجعوا إلى أنفسهم يتلاومون، ثم كان ما قصه القرآن الكريم ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١) .

وفي هذا تقرير للتوحيد بأبلغ أسلوب وأقواه، ونفي للشرك على أتم وجه وأوفاه، فضلاً عما فيه من تحقير للأصنام، وسخرية بالغة بعبّادها ، الذين ألغوا عقولهم، وخروا عليها صماً وعمياناً.

**ثامناً: الاستدلال القرآني:**

الدليل هو ما يتوصل به إلى معرفة صحة الشيء وصدقه، وإثبات هذه الصحّة بطريق من طرق الإثبات.

ولقد جاء القرآن الكريم يقرر مبادئ وتعاليم، ويقيم عليها دلائل صدقها وصحتها، ويحث الناس على طلب الدليل، وفهم البراهين.

وقد استوعب القرآن الكريم الاستدلال على صحة عقيدة التوحيد، وأنها الحق المبين، وأن كل شريك أو معبود مع الله تعالى هو كذب وافتراء، بل كلها أصنام وأوهام لا حق فيها، بل لا حقيقة لها في

---

(١) سورة الأنبياء، ٦٤ ـ ٦٧.

باب الألوهية كما قال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾(١) .

والمعنى أن هذه التي تسمونها آلهة ليس لها من حقيقة الألوهية أدنى نصيب، وإنما هي أسماء على غير حقائق كالغول، والعنقاء، وغيرهما من الأشياء المتوهمة، ولذلك يقول القرآن متحدياً المشركين : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾(٢) .

والمعنى : أن الله تعالى رقيب وعليم بكل شيء، وقد جعل له المشركون شركاء لا حقيقة لهم وإنما عبدوها بظنون من القول، وأوهام من الفكر باطلة.

ويقول تعالى منددا بالمشركين الذين يعبدون الأوهام المطلقة، تحت هذه الأسماء المخترعة : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٣) .

لذلك لم يترك القرآن دليلاً يصلح لخطاب البشر إلا أورده، على أتم الوجوه حتى لنقول : إنه لم يسق الدليل عل صحة الوحدانية أو

---

(١) سورة النجم، الآية : ١٩ ـ ٢٣ .

(٢) سورة الرعد ، الآية : ٣٣ .

(٣) سورة يونس، الآية : ١٨ .

وجوب التوحيد فقط، وإنما أوجب على الناس أن يتدبروا هذه الأدلة، وأن يفهموها ويحصّلوها ـ ولو إجمالاً ـ، حتى يكونوا على بينة في أعظم حقائق الوجود، وحتى يكون إيمانهم على غاية الاستقرار، ولذلك نوّع الأدلة في هذا تنويعاً عجيباً، حتى تلائم جميع الناس على اختلاف مستوياتهم وعصورهم.

**أنواع الأدلة القرآنية:**

وسنتحدث عن ثلاثة أنواع منها على سبيل الإيجاز:

**النوع الأول :الأدلة الحسية:**

وهي التي يستخدم فيها القرآن الكريم الكائنات للتدليل على وجود الله تعالى ووحدانيته، وسعة قدرته وعظيم حكمته.

والقرآن الكريم يتخذ كل شيء في الكون دليلاً عليه، وبخاصة وجود الكون من العدم، وانتظامه على قوانين مطردة، ونواميس محكمة، وقيامه على غاية التدبير، والتكامل بين أجزائه والعناية بما فيه من عجائب الأشياء والأحياء.

وفي كل هذا يتجه القرآن الكريم إلى الإنسان مخاطباً قلبه وفكره، ومطالباً أن يتأمل بحسه هذه الموجودات؛ لينتقل من ملاحظتها في أوضاعها المختلفة إلى ما وراءها، وليدرك من هذه المقدمات الحسية البدهية نتائجها القاطعة؛ فيعلم أن لهذا الكون ربا، موجداً، وإلهاً واحداً مطلق القدرة، والإرادة واسع العلم والحكمة.

وبذلك يدور الدليل بين السمع والبصر، والفكر والنظر، والمقدمات البدهية القريبة، والنتائج السهلة المسلّمة.

وهذا النوع، على سهولته ويسره، هو أقوى أنواع الأدلة، وأقربها إلى القلوب والنفوس، وأعظمها في التأثير والاقناع، لدلالته على المطلوب بذاته ومن أقصر سبيل، بخلاف أدلة الفلاسفة والمتكلمين التي تدل على المطلوب دلالة ناقصة، وتحتاج مقدماتها إلى برهنة ـ واستدلال في الغالب، بل قد تحتاج النتائج نفسها إلى دليل آخر خارج عنها، مما يعقد الاستدلال، لطول مقدماته، وكثرة وسائطه، وصعوبة طرقه، على أكثر الناس وذلك كاستدلالهم بحدوث العالم على أن له محدثاً، ويستدلون على حدوث العالم، بتقسيمه إلى جواهر وأعراض، ثم يثبتون حدوث كل منها بمقدمات طويلة، وكل هذا ينتهي إلى أن للعالم محدثاً، وهذه نتيجة ناقصة؛ لأنها لم توصلنا إلى من هو المحدث؟ وهذا يحتاج إلى دليل آخر لإثباته.

ولكن القرآن العظيم يطوي هذا الشتات، ويضع الإنسان أمام حقائق الكون مباشرة، ليوقن بنفسه أن الذي أبدع هذا الكون ونظمه إله واحد، هو الله رب العالمين، الذي صدّق المرسلين فيما بلغوه عنه جل شأنه.

ولذلك يحض سبحانه وتعالى عباده على النظر في الكون جملة:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾(١). ويأمر سبحانه بالنظر في دقائق هذا الكون: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٢).

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠١.

ويلفت حواسهم وقلوبهم إلىٰ عجائب هذا الكون الكلية، والجزئية: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾(١).

والآيات في هذا النوع كثيرة جداً، ومن أراد المزيد فليقرأ عجائب هذا الاستدلال في سورة الرحمن، والواقعة، والملك، والمرسلات، والنبأ، وعبس، والغاشية، والشمس، وغير ذلك في القرآن المجيد.

**النوع الثاني:الأدلة النفسية:**

وهي التي تعتمد في انتزاع الدليل علىٰ الوحدانية من داخل الإنسان لا من خارجه، ومن أعماق شعوره الداخلي، ووجدانه الباطني، لا من مدركات حواسه المعروفة.

وهذا الدليل بالغ الأهمية للإنسان، وفي قضية الإيمان نفسها حتىٰ يخاطبه من خارجه ومن داخله جميعاً، فتمتلئ نفسه يقيناً لا يتسرب إليه ريب ولا قلق.

وكم من إنسان امتلأ عقله بالمعارف، والأرقام، وفنون الإحصاء، وامتلأت حواسه بعجائب هذا الكون، ولكنه يمضي متبلد الإحساس، بسبب تعطل وجدانه الداخلي كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(٢).

---

(١) سورة ق، الآية: ٦ ـ ١٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

ومن هنا اهتم القرآن العظيم ببيان هذا الدليل النفسي، وساق الآيات تذكيراً للناس بهذا الجانب الفذ الذي أهملوه وعطلوه، ودفنوه تحت ركام من الشبهات والشهوات التي رانت على قلوبهم فأظلمتها وأماتتها.

يخبرنا الله تعالى أنّ المشركين الذين يعطّلون التوحيد، ويشركون مع الله آلهة أخرى في كل شؤون حياتهم، ويجادلون غاية الجدل دفاعاً وحمية عن أوثانهم، يخبرنا الله تعالى أن هؤلاء يحملون في أعماق نفوسهم دليل الوحدانية، ومع ذلك فإنهم يمضون صماً وعمياناً عنه في الرخاء، حتى إذا مستهم شدة جائحة، انتفض الدليل في صدورهم حيّاً نابضاً حين لا تغني الأصنام أو الأوهام عن أصحابها شيئاً هم في أشد الحاجة إليه.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾(١).

ويسألهم القرآن سؤال تقرير عن حقيقة يعلمونها وإن كابروا فيها، ثم يكررها لهم زيادة في التقرير والتأكد فيقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾(٢).

وينتزع لهم القرآن من حياتهم صورة واقعية حية، تعتمد على هذا المعنى الذي تتجه فيه النفوس إلى مالك القوى والقدر اتجاه شعور وفطرة، وخضوع ودعاء، وتنسى ما عداه سبحانه حين تكتنفها الأخطار

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٠ ـ ٤١.

الماحقة: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(١) .

**النوع الثالث: الأدلة العقلية:**

وهي الأدلة التي تعتمد على عمليات نظرية فكرية، كترتيب المقدمات واستخراج نتائجها حسب ضوابط وقوانين وراء بداهة الحس، ومشاعر النفس، وإن كان الإدارك في الجميع راجعاً إلى العقل والأدلة العقلية أوسع مدى من أشكال المنطق اليوناني وضروبه، لذلك لم يستخدم القرآن العظيم هذا النمط الفكري، وإنما جاء على نمط خاص في الاستدلال العقلي هو ضرب من إعجازه.

وقد استخرج العلماء منه أنواعاً كثيرة منها:

**١ ـ الدليل البدهي:**

وهو الذي يقوم على استخدام الحقائق المشهورة، والبديهات المستقرة في ابتناء الدليل عليها، فيذعن الخصم للدليل إذعاناً إن كان منصفاً، وقد لايظهر ذلك لكبرٍ أو غيره.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾(٢) .

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠١.

فحيث تقرر أن الولد لا يكون من غيرأم ، فقد بنى القرآن الكريم على هذه الحقيقة المسلّمة دليل بطلان ما نسبوه إليه من الولد؛ لأنه ليس له صاحبة فمن أين يأتي الولد؟! .

والدليل كما نرى سهل واضح يشبه الدليل الحسي في كونه يدل على المطلوب مباشرة، ولايحتاج إلى مقدمات تنظم على وجه مخصوص، ولابد من دليل على النظري منها .

٢ - **دليل التمانع**: وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(١) ، ومن قوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ إلى قوله : ﴿وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٢) .

وتقرير هذا الدليل أن يقال :

لو كان للعالم صانعان، لكان تدبيرهما لايجري على نظام، ولكان العجز يلحقهما أوأحدهما .

وذلك لأنه لو أراد أحدهم إحياء جسم وأراد الآخر إماتته، فحينئذ : إما أن تنفذ إرادتهما معاً فيتناقض لاجتماع الضدين .

وإما ألا تنفذ إرادتهما معاً فيؤدي إلى عجزهما، أولاتنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه والإله لا يكون عاجزاً، فبطل ما أدى إليه وهو افتراض التعدد ، وثبت نقيضه وهو(الوحدانية) الموجبة لاعتقاد (التوحيد).

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢ .

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩١ .

٣ ـ دليل التسليم:

وهو الذي يسلم فيه بوقوع المستحيل تسليماً جدلياً، ثم يستدل على عدم فائدة هذا المحال على تقدير وقوعه ومثاله قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١) .

ومعنى الآية الكريمة:

ليس معه من إله، ولو سلم جدلاً أن معه إلهاً، للزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الإثنين بما خلق، واستعلاء بعضهم على بعض؛ فلا يتم في العالم أمر، ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله، والواقع المشاهد خلاف ذلك، ففرضُ إلهين فصاعداً محال، لما يلزم عليه من المحال(٢) .

**الشرك ظنون وأوهام:**

وفي ختام هذا الاستدلال على صحة التوحيد، يبرز القرآن العظيم وجهاً آخر من وجوه الاستدلال، حين يطالب المشركين ويتحداهم أن يقيموا دليلاً واحداً ـ من أي نوع ـ على صحة عقيدتهم فلا يستطيعون، بل لا يملكون إلا التعلق بالظنون والأوهام، والاحتجاج بفعل آبائهم الذين قال عنهم القرآن: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾(٣) .

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩١ .

(٢) راجع كتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (النوع الثامن والستين) جـ ٢، ص ٣٦، ومابعدها، وفيه تفصيلات عديدة من هذه الأدلة .

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٠ .

ومن هذا التحدي الشامل قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١) .

أي إنّ الآلهة التي تعبدونها لم تخلق شيئاً في الكون، وليس عليها دليل من كتب الله المنزلة، ولا بقية من أثر علمي صحيح، وان ادعيتم شيئاً من ذلك فأثبتوه إن كنتم صادقين. ولما كانوا عاجزين عن ذلك، بيّن القرآن الكريم حقيقة عقائدهم، وأنها مجرد ظنون فاسدة، قال تعالىٰ : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾(٢) .

ويقول عن أصنامهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾(٣) .

فالحمد لله الذي جاءنا بهذا الهدىٰ، وعلّمنا الحق الذي قامت علىٰ صحته أدلة الحس والنفس، والعقل والنقل، ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وليكونوا علىٰ غاية اليقين بوحدانية رب العالمين، وبأن دينه هو الحق المبين، والصراط المستقيم(٤) .

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٤ .

(٢) سورة ، آل عمران، الآية: ١٥٤ .

(٣) سورة النجم، الآية: ٢٣ .

(٤) الوحدانية والتوحيد في ضوء القرآن ، للدكتور عبدالستار السعيد .

**الموضوع الثاني: الملائكة المكرمون:**

ستتحدث في هذا الموضوع عن أهم أوصاف الملائكة، ووظائفهم في ضوء القرآن الكريم.

والإيمان بالملائكة من أركان الإيمان قال الله تعالى في صفة عقيدة المؤمنين ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(١).

وقد بين الله ضلال من يكفر بالملائكة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾(٢).

ولقد جاء الحديث مستفيضاً عن الملائكة في القرآن الكريم في مناسبات متعددة، في نحو خمس وسبعين آية من نحو ثلاث وثلاثين سورة.

وجاء في كثير من أحاديث الرسول ﷺ التنصيص على أن الإيمان بالملائكة جزء من أركان العقيدة الإسلامية، كما في حديث جبريل المشهور ومنه «فأخبرني عن الإيمان، قال: **أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(٣).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(٣) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، جـ ١، ص ٣٧.

فمن أنكر وجود الملائكة فهومكذب لكلام الله ورسوله، كافر لا محالة إذ لا مجال للتأويل ، فالنصوص واضحة صريحة قاطعة، والعلم بوجود الملائكة مما هو معلوم من الدين بالضرورة .

## خَلْقُ الملائكة:

لا نستطيع أن نعرف من حقيقة الملائكة إلا ماجاءنا عن رسول الله ﷺ؛ لأننا بحسب العادة لا نتصل بهم عن طريق الحس اتصالاً يفيد العلم اليقيني، حيث نكشف حقيقتهم ونحدّ تكوينهم، وحسبنا في العقيدة أن نقتصر على ماوردت به النصوص دون أن نجري وراء التكهنات ، فطبيعة خلقهم لا يعلمها إلا الله، قال تعالى في ذم المشركين الذين يقولون في الملائكة ما لا يعلمون: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾(١).

أما مادة خلقهم التي خلقوا منها:

فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «**خلقت الملائكة من نور وخلق الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»(٢) .

**ـ متى خلقوا؟**

إننا لا ندري متى خلقوا، فالله تعالى لم يخبرنا بذلك، ولكننا نعلم أن خلقهم سابق على خلق آدم أبي البشر عليه السلام، فقد أخبرنا

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ١٩ .

(٢) صحيح مسلم، جـ ٤، ص ٢٢٩٤ .

الله أنه أعلم الملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١) .

والمراد بالخليفة آدم عليه السلام وذريته، وأمرهم بالسجود له حين خلقه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(٢) .

ومن أبرز خصائص الملائكة أنهم عباد مكْرمون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون .

**ـ عظَمُ خلقهم :**

قال تعالى في وصف ملائكة النار : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(٣) .

ويمكن أن نجمل الحديث عن الملائكة في النقاط التالية :

**١ ـ الملائكة قادرون:** على [التمثّل] بأمثال الأشياء و[التشكل] بالأشكال الجسمانية .

كما في قصة نزول جبريل عليه السلام على مريم، وقد انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، وتمثله لها بشراً سوياً، قال الله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ

(١) سورةالبقرة ،الآية : ٣٠ .
(٢) سورة الحجر ،الآية ٢٩ .
(٣) سورة التحريم، الآية : ٦ .

حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾(١).

وكمافي قصة ضيف إبراهيم عليه السلام كما ورد في سورة الذاريات قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾(٢).

**٢ ـ للملائكة قدرات خارقة:** بماوضع الله فيهم من القدرات العجيبة فمنهم، من يحمل عرش الرحمن كما قال تعالى: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾(٤)، ومنهم من ينفخ نفخة يصعق لها من في السموات والأرض إلامن شاء الله. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾(٥).

**٣ ـ للملائكة أجنحة:** كما أخبر الله بذلك في سورة فاطر فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي

---

(١) سورة مريم، الآية: ١٦ ـ ١٩.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٢٤ ـ ٢٥.
(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٦ ـ ١٧.
(٤) سورة غافر، الآية: ٧.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١) .

٤ ـ **جمال الملائكة:** خلقهم الله على صور جميلة كريمة قال تعالى في جبريل: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾(٢) .

قال ابن عباس: [ذُو مِرَّةٍ] ذو منظر حسن، وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن، وقيل: ذو قوّة ولا منافاة بين القولين، فهوقوي وحسن المنظر.

وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح، ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملَك، انظر ما قالته النسوة في حق يوسف الصديق عندما رأينه: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾(٣) .

**٥ ـ لايوصفون بالذكورة والأنوثة ولاتقاس أفعالهم بمقاييس البشر:**

من أسباب ضلال بني آدم في حديثهم عن عوالم الغيب أن بعضهم يحاول إخضاع هذه العوالم لمقاييسه البشرية الدنيوية، فنرى البعض منهم يكتب في بعض الصحف، ويستغرب من أن جبريل كان يأتي الرسول ﷺ بعد ثوانٍ من توجيه السؤال إلى الرسول ﷺ يحتاج إلى جواب من الله، فكيف يأتي بهذه السرعة الخارقة، والضوء يحتاج إلى ملايين السنين الضوئية ليصل إلى بعض نجوم السماء؟!

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١ .

(٢) سورة النجم، الآية: ٥ ـ ٦ .

(٣) سورة يوسف، الآية: ٣١ .

ومادرىٰ هذا المسكين أن مثله كمثل بعوضة تحاول أن تقيس سرعة الطائرة بمقياسها الخاص، لو تفكر في الأمر لعلم أن عالم الملائكة له مقاييس تختلف تماماً عن مقاييسنا نحن البشر.

ولقد ضلّ في هذا المجال مشركوا العرب الذين كانوا يزعمون أن الملائكة إناثاً، واختلطت هذه المقولة المجافية للحقيقة عندهم بخرافة أعظم؛ وأكبر، إذ زعموا أن هؤلاء الإناث بنات الله، وناقشهم القرآن الكريم في هاتين القضيتين، فبين أنّهم فيما ذهبوا إليه ـ لم يعتمدوا علىٰ دليل صحيح، وأنّ هذا القول قول متهافت، ومن عجب أنهم ينسبون لله البنات وهم يكرهون البنات، وعندما يبشر أحدهم بأنه رزق بنتاً يظل وجهه مسوداً وهو كظيم، وقد يتوارىٰ من الناس خجلاً من سوء ما بشر به!

وقد يتعدىٰ هذا المألوف طوره فيدس هذه المولودة في التراب، ومع ذلك كله ينسبون لله الولد، ويزعمون أنهم إناث وهكذا تنشأ الخرافة وتفرّخ في عقول الذين لا يتصلون بالنور الإلهي[١].

استمع إلىٰ الآيات التالية تحكي هذه الخرافة وتناقش أصحابها: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا

(١) انظر عالم الملائكة الأبرار للشيخ عمر سليمان الأشقر ص ١٤.

تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

وقد جعل الله قولهم هذا شهادة سيحاسبهم عليها، فإن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾(٢).

٦ - **لا يأكلون ولا يشربون:** فقد أخبرنا الله تعالى أن الملائكة جاؤا إلى إبراهيم عليه السلام في صورة بشر، فقدم إليهم الطعام، فلم تمتد أيديهم إليه، فأوجس منهم خيفة، فكشفوا له عن حقيقتهم، فزال خوفه واستغرابه قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾(٣).

وقال في آية أخرى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾(٤).

٧ - **لايملّون ولا يتعبون:** فالملائكة الكرام يقومون بعبادة الله وطاعته وتنفيذ أوامره، بلا كلل ولا ملل، ولا يدركهم ما يدرك البشر

(١) سورة الصافات، الآية: ١٤٩-١٥٧.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ١٩.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٢٤-٢٨.

(٤) سورة هود، الآية: ٧٠.

من ذلك، قال تعالىٰ في وصف الملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾(١) .

ومعنىٰ لايفترون لا يضعفون، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾(٢) .

٨ ـ عددهم: الملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾(٣) .

٩ ـ أصناف الملائكة ووظائفهم: وقد دلت النصوص الشرعية أن الملائكة أصناف، كما ثبت أن لكل منهم وظائف وفيما يلي طائفة من ذلك:

(أ) أكابر الملائكة، ومنهم جبريل وميكائيل «ميكال» قال الله تعالىٰ في التنويه بهما: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾(٤) .

أما جبريل عليه السلام فهو صاحب الوحي إلىٰ الأنبياء والرسل عليهم السلام، قال تعالىٰ منوهاً بوظيفته هذه وأمانته فيها ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾(٥) .

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٨.

(٣) سورة المدثر، الآية: ٣١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ١٩٢ ـ ١٩٤.

كما بين تعالى أفضليته، إذ شرفه فخصه بالذكر، وقدمه في الترتيب على سائر الملائكة في القرآن الكريم، وجعله ناصراً لرسوله في معرض تهديد نساء الرسول إذ تظاهرن عليه فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾(١). وسماه الله روح القدس (أي خلاصة الطهارة وأصلها وسرها)، وذلك تكريماً له فقال تعالى ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾(٢).

ومدحه الله بست صفات في معرض تبليغه نص القرآن لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾(٣).

فهو: رسول، وفي ذلك اصطفاء له بهذه المهمة من بين الملائكة، وهو كريم، وفي ذلك تشريف عظيم له، وهو: ذو قوة، وهو: مكين عند الله، أي: ذو مكانة عالية، وهو مطاع بين الملائكة وهذا يدل على رياسته، وهو أمين في تبليغ رسالات ربّه القولية والعملية.

أما ميكائيل [ميكال] فقد ورد أنه صاحب أرزاق العباد الموكل بها، قال الحافظ ابن كثير في كتابه [البداية والنهاية]: ميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الديار، وله أعوان يفعلون مايأمرهم به بأمر ربّه(٤).

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٧.

(٣) سورة التكوير، الآية: ١٩ ـ ٢١.

(٤) البداية و النهاية، جـ ١، ص ٥٠.

ومن جملة أكابر الملائكة الذين وردت أخبارهم (إسرافيل وعزرائيل).

أما إسرافيل: فقد ورد أنه صاحب الصور[١]، الذي ينفخ فيه بأمر الله النفخة الأولىٰ فيهلك من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله واستثناءهم من الموت بهذ النفخة، لأن الله يتولىٰ قبض أرواحهم بدون وساطة نفخة الصور، ثم ينفخ فيه النفخة الثانية للبعث إلىٰ الحياة بعد الموت، وقد جاء اسمه صريحاً في دعاء رسول الله ﷺ في قوله **(اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطرالسموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)**[٢].

قال تعالىٰ في بيان ذلك: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[٣].

**أما عزرائيل:** فهو ملك الموت كما جاء في بعض الأخبار المأثورة، والظاهر أنه رئيس ملائكة الموت، ولم يصرح بذكر اسمه في القرآن الكريم ولا في الأحاديث الصحاح، ولكن جاءت تسميته في بعض الآثار بعزرائيل[٤].

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير، جـ ١، ص ٤٩.

(٢) صحيح مسلم جـ ١، ص ٥٣٤، كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٤) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ١، ص ٥٠.

وقد صرح القرآن بوجود ملك للموت فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾(١).

(ب) حملة العرش: قال تعالىٰ: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾(٢).

(جـ) الحافّون من حول العرش: ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣).

(د) ملائكة الجنة: قال تعالىٰ في وصف أهل الجنة: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾(٤).

(هـ) ومنهم من يمدّ الله بهم المجاهدين في سبيله، ويثبتهم بهم كما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١١.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٦ ـ ١٧.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٥.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٣ ـ ٢٤.
(٥) سورة الأنفال، الاية: ٩.

وقال تعالى : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾(١) .

(و) ملائكة النار : واسمهم الزبانية ، وقد وصف الله سقر مبيناً أن المشرفين على العذاب فيها تسعة عشر من الملائكة فقال تعالى : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً﴾(٢) وقال في تسمية ملائكة التعذيب بالزبانية مهدداً بهم الكافر المتعنّت ﴿كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾(٣) .

ورئيس ملائكة النار وخازنها اسمه [مالك] ، والدليل على ذلك قوله تعالى حكاية لما يقوله أهل النار وهم مقيمون في العذاب : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾(٤) .

(ز) الملائكة الموكلون ببني آدم : وهؤلاء أصناف ، ولكل صنف منهم وظائف وفيما يلي طائفة منهم وردت بهم النصوص .

١ ـ فمنهم الموكلون بنفخ الأرواح في الأجنّة ، وكتابة مستقبل أعمالها وآجالها وأرزاقها وسعادتها أوشقاوتها ، ففي الصحيحين عن

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ١٢ .

(٢) سورة المدثر ، الآية : ٢٧ ـ ٣١ .

(٣) سورة العلق ، الآية : ١٥ ـ ١٨ .

(٤) سورة الزخرف ، الآية : ٧٧ .

عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات: فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، إلى آخر الحديث»(١) .

٢ ـ منهم الملائكة الموكلون بمراقبة أعمال المكلفين، وحفظها، وتسجيلها وكتابتها في صحف الأعمال، وعندهم القدرة على علم جميع ما يفعله الناس من خير وشر، فيحصون إحصاءً تاماً دونما غفلة عن شيء منه أو نسيان. ولكل إنسان موكلان من الملائكة بمراقبة أعماله وتسجيلها، وهؤلاء الملائكة الملازمون لنا هم معنا، ولكنهم غائبون عن إحساسنا، فنحن نؤمن بهم كما ثبت في نصوص الشريعة دون أن نزيد على ذلك شيئاً من تخيلاتنا، مالم يرد به نص شرعي ثابت، فلا نبحث في كيفية كتابتهم ولا في الصحف الخاصة بهم لتسجيل أقوالنا وأفعالنا، ولا في الصحف التي يستخدمونها، كما لا نبحث في كيفية ملازمتهم لنا ، لأنها أمور من الغيب تتفق مع أوضاع الملائكة وأحوالهم المغيبة عن مجالات إحساساتنا المادية.

وقد أثبت القرآن الكريم هذا الصنف من الملائكة فقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٢) .

---

(١) انظر صحيح البخاري، بحاشية السندي، جـ ٢، ص٢١١ وصحيح مسلم كتاب القدر جـ ٤، ص ٢٠٣٦.

(٢) سورة ق، الآية: ١٧ ـ ١٨.

وقال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدِّين ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾(١) .

٣ ـ ومنهم المعقبات الحفظة الذين يحفظون الناس بأمر الله من شر كل ذي شر خفي أوظاهر، فلايصيب الإنسان شيء منها إلا إذا كان فيه قضاء وقدر من الله تعالى ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾(٢) ، وقال تعالى مشيراً إلى هذا الصنف من الملائكة: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾(٣) .

٤ ـ ومنهم ملائكة الموت الموكلون بقبض الأرواح، وقد جاء التعبير عن هذا الصنف من الملائكة في القرآن الكريم بأنهم رسل الله تعالى للقيام بهذه الوظيفة فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾(٤) .

كما جاء التعبير عن الموكل بالإماتة في القرآن أيضاً بأنه ملك الموت فقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾(٥) .

وقد تقدم بأن رئيس هذا الصنف من الملائكة عزرائيل كما ورد في الأثر(٦) .

---

(١) سورة الانفطار، الآية: ٩ ـ ١٢ .
(٢) سورة التوبة، الآية: ٥١ .
(٣) سورة الرعد، الآية: ١١ .
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦١ .
(٥) سورة السجدة، الآية: ١١ .
(٦) انظر ص ٢٢٩ من هذا الكتاب.

وقد قسّم الله ملائكة الموت إلى قسمين: النازعات، والناشطات، قال المفسرون: النازعات الملائكة التي تنزع أرواح الكافرين بشدة وعنف وتعذيب، والناشطات الملائكة التي تأخذ أرواح المؤمنين برفق ولين قال تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾(١) .

(٥) الملائكة الموكلون بأمور أخرى في هذا العالم الدنيوي وقد يكون من هذا الصنف: الصافات، والزاجرات، والتاليات ذكراً، والذاريات والحاملات وقراً، والجاريات يسراً، والمقسمات أمراً، إذا فسّرت بأنها زمرٌ من الملائكة، كما أورد ذلك طائفة من المفسرين(٢) في قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾(٣) .

وقال تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾(٤) . والمقسمات أمراً هي الملائكة(٥) .

### تلخيص عام عن الملائكة:

من خلال ماسبق من نصوص واستدلالات، نستطيع أن نأخذ وصفاً جامعاً للملائكة حسب مادلت عليه النصوص الشرعية، فالملائكة

---

(١) سورة النازعات، الآية: ١ ـ ٢.

(٢) انظر تفسير ابن جرير الطبري، ج-٢٣، ص ٣٣.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١ ـ ٣.

(٤) سورة الذاريات، الآية: ١ ـ ٤.

(٥) انظر تفسير الطبري، جـ ٢٦، ص١٨٧.

مخلوقات غيبية عنا ، ذات أجسام نورانية لطيفة ، لانراهم في الحالات العادية ، وهم قادرون على التشكل بالأشكال الجسمانية المختلفة المرئية لنا ، ذوو قدرات خارقة ، لاحصرلهم ، مقربون إلى الله ، طائعون ، لايعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون مايؤمرون ، ولا يتناكحون ولا يتناسلون ، ولا يأكلون ولا يشربون ، إنما هم عباد مكرمون ، يحملون رسالات ربهم في العالمين ، ويؤدون وظائفهم في الأكوان بحسب مجرى الأقدار ، على مراد الله العزيز الجبار(١) .

**الموضوع الثالث: الأنبياء والمرسلون:**

الإيمان بالأنبياء والمرسلين ركن من أركان العقيدة : كما هو معلوم ، وقد نص القرآن الكريم على عقيدة الرسل والمؤمنين جميعاً فقال تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(٢) .

وجاء في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ عندما سئل عن الإيمان قال : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . . إلى آخر الحديث»(٣) .

فعقيدة الإيمان بالله لاتنفك عن الإيمان برسله ؛ لأن من مقتضى الإيمان بالله تصديق المؤيدين بتأييد الله لهم بالبراهين والمعجزات ، ثم إنّ

---

(١) انظر العقيدة الإسلامية وأسسها للشيخ : عبدالرحمن حبنكة الميداني ، جـ ٢ ، ص ٦ ـ ٢٢ ، وكتاب عالم الملائكة الأبرار لعمر سليمان الأشقر ، ص ١٠ ـ ٥٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان باب (٣٧) .

الإيمان بواحد من الرسل لاينفك عن الإيمان بجميع الأنبياء والرسل الصادقين، فموجب الإيمان في الكل واحد.

**معنى النبوّة لغة:** مأخوذة من النبأ، أي الخبر قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾(١) .

أو من النَّباوَة: وهي الشيء المرتفع (٢) يقال: نبأ الشيء إذا ارتفع.

وفي الاصطلاح الشرعي: اصطفاء الله عبداً من عباده بالوحي إليه.

- **معنى الرسالة:** في اللغة هي التوجيه بأمرٍ مّا، فالرسول هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه.

وفي الاصطلاح الشرعي: هي تكليف الله نبياً من أنبيائه بتبليغ شريعته للناس.

- **الفرق بين النبي والرسول:**

**النبي هو:** إنسان من البشر أوحى الله تعالى إليه بشرع، ولكنه لم يكلف بالتبليغ.

**أما الرسول فهو:** إنسان من البشر أوحى الله إليه بشرع، وأمره بتبليغه، فالرسالة إذاً أعلى مرتبة من النبوة؛ لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً(٣) .

---

(١) سورة النبأ، الآية: ١ـ٢.

(٢) انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، جـ ٥، ص ٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير جـ ٥، ص ٤.

**ـ بداية الرسل:** آدم عليه السلام هو أبو البشر، وهو مكلف باتباع منهج الله والاهتداء بهديه، وقد أودع الله عنده من المعلومات ما ينير له ولأولاده الطريق، ويهديهم الصراط المستقيم ويقيم لهم الحياة على منهاج واضح سليم، وقد حصل الجدل في وجود آدم عليه السلام حتى من الملائكة: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾(١).

وقد فُضِّل آدم عليه السلام على الملائكة بما أودع الله عنده من أصول المعلومات فقال تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾(٢).

وسؤال الملائكة لم يكن من قبيل الاعتراض على حكمة الله في وجود آدم أو الحسد لآدم وذريته كما حصل من إبليس لعنه الله، بل سؤال الملائكة من قبيل الاسترشاد والتأمل في خلق الله وبدائع صنعه، ولهذا سلموا لأمر الله وحكمته وأرجعوا الأمر لله وحده ﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾(٣).

وللتدليل على تفوق آدم عليه السلام في علمه على الملائكة أمره الله بإظهار ذلك بقوله: ﴿**قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٢.

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾(١) .

وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام، وجعل فطرته سويّة يعبد الله ولا يشرك به شيئاً، واستمر الأمر على ذلك ردحاً من الزمن وعقيدة التوحيد صافية نقية، حتى حدث الشرك في بني آدم، وانحرف بعضهم عن فطرة الله التي فطر الناس عليها من الإيمان به وتوحيده واتباع شرعه وهداياته.

فاقتضت حكمة الله أن يجدد للناس دينهم الخالص، ويبعث فيهم من يهديهم صراطه المستقيم ويعيدهم إلى دين الفطرة وهو التوحيد، فكانت رسالة نوح عليه السلام، فهو أول الرسل بعد حدوث الشرك في بني آدم. والله تعالى يقرر هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾(٢) .

وقد ورد في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (**كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**)(٣) .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٣) هذا الأثر رواه الحاكم في المستدرك جـ ٢، ص ٥٤٦ـ٥٤٧، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وذكر الحافظ بن كثير في البداية والنهاية جـ ١، ص ١١٠، أنه في صحيح البخاري ولكنني فتشت عنه فلم أجده فالله أعلم.

ومعنى هذا أنّ أولاد آدم وذريته قبل زمن نوح عليه السلام كانوا على التوحيد والفطرة السويّة، قال ابن كثير رحمه الله: وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن [قابيل] وبنيه عبدوا النار(١) .

واعلم أن أول الرسل نوح عليه السلام كما ثبت في حديث الشفاعة(٢) ، والأوليّة هنا نسبية، أي أول رسول إلى أهل الأرض بعد حدوث الشرك في بني آدم وليست أولية مطلقة؛ فإن آدم عليه السلام نبي رسول.

فقد روى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر قال: قلت: يارسول الله كم الأنبياء؟ قال **(مائة الف وأربعة وعشرون ألفاً)**، قلت: يارسول الله كم الرسل منهم؟ قال: **(ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير)**، قلت: يارسول الله من كان أولهم؟ قال: **آدم، قلت يارسول الله نبي مرسل؟ قال: نعم، خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً)**(٣) .

وجاء في ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث عليه السلام من حديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ ( إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف، على شيث خمسين صحيفة)(٤) .

---

(١) البداية والنهاية جـ ١، ص ١١٠.

(٢) انظر صحيح البخاري بحاشية السندي جـ ٤ ، ص ٢٧٩.

(٣) قصص الأنبياء، لابن كثير، ج-١، ص ٨١.

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير، جـ ١، ص ٨٤.

فآدم وشيث وإدريس عليهم السلام أنبياء رسل، وكلهم قبل نوح عليه السلام، قال تعالى في حق إدريس عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾(١) .

ولكن رسالتهم تأكيد لدين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ورسالاتهم محدودة بقدرمايحتاجه البشر آنذاك من الهداية والتوجيه، فلما حدث الشرك وظهرت الوثنية، أرسل الله نوحاً عليه السلام إلى قومه بالإنذار والتخويف من عذاب الله كما قال تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢) .

وبدأت الخصومة بين الأنبياء وأممهم في تقرير العقيدة، وهي الدين الخالص لله رب العالمين.

وأيدّ الله رسله بالبينات والحجج الدامغات والبراهين الساطعة، فكانت بعثة الأنبياء رحمة للإنسانية تنيرلهم الطريق وتهديهم صراط الله المستقيم.

إن من واجبنا أن ننظر إلى النبوة والأنبياء من خلال القرآن الكريم، وبمنظار القرآن ، ونستعرض كتاب الله الحكيم لنعرف مداها وآفاقها الواسعة ، وأعماقها الغائرة وجذورها العميقة في الحياة الإنسانية، وسيطرتها على العقول والنفوس، والأخلاق والميول، وتأثيرها في تكوين السّير ،وتشكيل المجتمعات وقيادتها للمدنيات، بل تأسيسها لحضارة خاصة متميزة في كل شيء(٣) .

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥٦ ـ ٥٧ .

(٢) سورة نوح، الآية: ١ .

(٣) انظر النبوة والأنبياء لأبي الحسن الندوي، ص ٧.

- الحكمة من إرسال الرسل:

من رحمة الله بعباده ومن جميل لطفه بهم وإحسانه إليهم، أن بعث إليهم الأنبياء والمرسلين مبشرين ومنذرين، ليكونوا منارات للهدىٰ، وأعلاماً للفضيلة، ونجوماً زاهرة في سماء الإنسانية، تضئ للعالم طريق الخير، وترشدهم إلىٰ السعادة، وتنقذهم من براثن الشرك والوثنية، وتسمو بهم إلىٰ مدارج العز والكمال.

وقد جرت سنة الله في خلقه ألاّ يعاقب أمة قبل أن يبعث إليها رسولاً يدعوهم إلىٰ الخير والبر، وينهاها عن السوء والشر؛ وذلك حتىٰ لايدع لأحد من البشر عذراً، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(١)، ولئلا يقول الناس يوم القيامة: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ﴾(٢) أو يتخذوا منها ذريعة لعدم الإيمان، أو حجة علىٰ الله تعالىٰ في عدم استحقاقهم للعذاب ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾(٣).

وقال تعالىٰ: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(٤).

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٩.

(٣) سورة طه، الآية: ١٣٤.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

فكانت حكمة الله ورحمته بعباده أن يقيم لهم موازين الحق والعدل، ويفتح أعينهم على الهدى والرشاد، وينصب لهم الدلائل والبراهين حتى تقوم الحجة وتتضح المحجّة.

**ـ وظائف الأنبياء والرسل:**

وهي كثيرة ولكننا نوجز منها مايلي:

**أولاً:** دعوة الخلق جميعاً إلى عبادة الله وحده وترك ما يعبد من دونه، وهذه هي الوظيفة الأساسية للرسل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٢).

**ثانياً:** تبليغ رسالات الله إلى البشر، وقد مدح الله أنبياءه بقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾(٣).

وقال في حق سيد الأنبياء محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

ثالثاً: هداية الناس، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم قال تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾(١) .

وقال عن نبينا محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾(٢) .

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣) .

رابعاً: ليكونوا قدوة حسنة وأسوة صالحة للبشر قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(٤) .

وقال تعالى بعد ذكر مجموعة من الأنبياء: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(٥) .

خامساً: التذكير بالنشأة والمصير، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥ .
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥ـ٤٦ .
(٣) سورة الشورى، الآية: ٥٢ .
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢١ .
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩٠ .

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾(١) .

سادساً: تحويل اهتمام الناس من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية، وهي الدار الآخرة: وليس معنى هذا أن يتركوا أسباب العيش، وماجعله الله قواماً لحياتهم الدنيا، فإنّ الإسلام جاء بمطالب الروح والجسد معاً، ولكن المراد من هذا صرف أنظار المؤمنين إلى أن هذه الحياة محدودة مؤقتة ستزول وتبقى الدار الآخرة هي دار القرار، فلمثل هذا فليعمل العاملون، وليتسابق في الدرجات العلى في الآخرة المتسابقون.

وقد وردت نصوص كثيرة تبين هذا المعنى قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٢) .

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾(٣) .

سابعاً: وأخيراً لئلا يبقى للناس على الله حجة بعد الرسل(٤) كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(٥) .

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠ ـ ١٣١ .

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤ .

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٠ .

(٤) النبوة والأنبياء لمحمد علي الصابوني، بتصرف .

(٥) سورة النساء، الآية: ١٦٥ .

هذه أهم وظائف الرسل عليهم الصلاة والسلام، متمثلة في تبليغ رسالات الله وقيادة البشرية إلى المثل العليا، ودلالتها على الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة.

- صفات الأنبياء:

إذاتتبعنا القرآن الكريم، واستعرضنا آياته التي تتحدث عن الأنبياء والرسل الكرام، نجد فيها الذكر العاطر والثناء الحسن لهؤلاء الصفوة المختارة من عباد الله الصالحين، الذين أكرمهم الله بالنبوة واصطفاهم لحمل الرسالة، واختارهم من بين سائر الخلق ليكونوا حملة الهداية والإصلاح، وقادة ركب الإنسانية إلى السعادة، فهم الصفوة المختارة من خلق الله وهم المثل العُليا للبشرية.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(١).

وكلّ نبي يكون من علية قومه نسباً وشرفاً، كما في صحيح البخاري وغيره «فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها»(٢).

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام - وإن كانوا من البشر - يأكلون ويشربون، ويصحون ويمرضون، وينكحون النساء، ويمشون في الأسواق، وتعتريهم العوارض التي تمر على البشر من ضعف

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(٢) صحيح البخاري، جـ ١، ص ٨ بدء الوحي.

وشيخوخة وموت، إلا أنهم يمتازون بخصائص، ويتصفون بأوصاف عظيمة جليلة، هي بالنسبة لهم من ألزم اللوازم، ومن أهم الضروريات، وهذه الصفات نلخصها فيما يلي:

أولاً: الصدق: وهذه الصفة ملازمة للنبوة، وهي وإن كانت ضرورية للبشر، إلا أنها بالنسبة لدعوة الأنبياء صفة لازمة.

ولهذا يقول الله تعالى في حق النبي الكريم ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾(١).

ثانياً: الأمانة: وهي أن يكون أميناً على الوحي يؤديه دون زيادة أونقص أو تحريف أو تبديل:

فالأنبياء مؤتمنون على الوحي وقد وصفهم الله بإبلاغ هذا الوحي ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾(٢)، وقال كل نبي لقومه: ﴿أَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وقال عن نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(٣).

ثالثاً: التبليغ: وهذه صفة ملازمة للرسالة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(٤).

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٤٤ ـ ٤٨.

(٢) سور الأحزاب، الآية: ٣٩.

(٣) سورة النجم، الآية: ٣ ـ ٤.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

فكل رسول مكلف بالتبليغ ، وقد بلغوا رسالات الله ، وكل نبي بلغ قومه، ومنهم نوح وصالح وهود، وشعيب، وغيرهم ممن أهلك الله أقوامهم لعدم استجابتهم للدعوة، وكل من هؤلاء يقول لقومه ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾(١) .

رابعاً: الفطانة : وهي الذكاء والنباهة، فلم يبعث أحد من الأنبياء إلا وكان على جانب عظيم من النباهة والذكاء، مع كمال العقل والرشد ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(٢) .

وإذا كان البشر يعتريهم النقص وتضعف قواهم العقلية، وربما وصل بعضهم إلى حالة [الخرف] عند بلوغ سن الشيخوخة. . فإن الأنبياء الكرام يظلون في القمة العليا من رجاحة العقل وقوة التفكير، مهما امتدت أعمارهم، لأن الله أحاطهم بعنايته وحفظهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

خامساً: السلامة من العيوب المنفرة: فإنه لا يمكن أن تكون فيهم عيوب خَلْقيّة أو خُلُقيّة، تنفّر الناس من الاجتماع بهم أو اتباعهم والسماع لدعوتهم، كما أن الأمراض المنفرة كالبرص والجذام والتشويه الجسدي لايكون في أحد من الأنبياء عليهم السلام، وما روي في شأن [أيوب عليه السلام] من أنّه مرض واشتد به المرض حتى تعفّن جسده

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

وأصبح الدود يخرج من بدنه حتىٰ عافه الجليس وأفرد في ناحية من البلد ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه، فإنّ هذا من الأباطيل والأكاذيب التي نقلت عن (الإسرائيليات) ولايصح تصديقها أو الاعتقاد بها، لأنها تتنافىٰ مع صفات الأنبياء، ومدار هذه الروايات علىٰ وهب بن منبه وهو ينقل كثيراً من أخبار بني إسرائيل دون تمحيص وقد أشار ابن كثير في تفسيره إلىٰ رواية وهب بن منبه في قصة بلاء[ أيوب] عليه السلام، وقال: «وفيها غرابة»(١) .

وقال محمد جمال الدين القاسمي في تفسيره عند ذكر بلاء [أيوب] عليه السلام ما نصه : «وقد روىٰ المفسرون ههنا في بلاء [أيوب] روايات مختلفات، بأسانيد واهيات، لايقام لها عند أئمة الأثر وزن، ولاتعار من الثقة أدنىٰ نظر، نعم يوجد في التوراة سفر (لأيوب) فيه من شرح ضره، بفقد كل مقتنياته ومواشيه وآل بيته، وبنزول مرض شديد به، عدم معه الراحة ولذة الحياة، غرائب إلا أنها مما لا يوثق بها جميعها، لما داخلها من المزيج، وتوسع بها في الدخيل، حتىٰ اختلط الحابل بالنابل، وإن كان يؤخذ من مجموعها بلاء فادح ومرض مدهش، ولو علم الله خيراً في أكثر مما أجمله في تنزيله الحكيم، لتفضل علينا بتفصيله ، ولذا يوقف عند إجماله فيما أجمل، وتفصيله فيما فُصّل. . أ. هـ(٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٣، ص ١٨٨ .

(٢) محاسن التأويل، جـ ١١، ص ٤٢٩٨ .

والقرآن الكريم لم يذكر لنا نوع الضر الذي أصابه وإنما ذكر لنا أنه أصابه الضر، فدعا ربه ـ بعد أن اشتد الكرب والضر ـ فكشف الله عنه ما أصابه من كرب وبلاء، قال تعالىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾(١) .

وقال تعالىٰ في سورة (ص) : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾(٢) .

وإنما نسب ما جاءه من الضر إلىٰ الشيطان؛ لأن الشيطان كان يوسوس إليه، ليتخلىٰ عن صبره ورضاه بما قدرالله عليه من الضر والبلاء، ولكنه سد علىٰ الشيطان جميع المنافذ وصبر علىٰ البلاء واحتسب ذلك عند الله، لهذا قال تعالىٰ عنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٣) .

وظاهر الآيات أن الضر الذي أصابه كان في جسمه وأهله، وهذا النوع من الضر يلحق البشر ويلحق الأنبياء، فإن المرض يعتري الأنبياء كما يعتريهم الموت، وليس في ذلك شيء ينقص من قدرهم أو يزري بمقامهم.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٨٣ـ ٨٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٤١.

(٣) سورة ص، الآية: ٤٤.

سادساً: العصمة: سميت العصمة عصمة؛ لأنها تمنع من ارتكاب المعصية.

وأما في الشرع: فالعصمة: هي حفظ الله لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصي، وارتكاب المنكرات والمحرمات، فالعصمة ثابتة للأنبياء عن جميع الصغائر والكبائر عمداً.

والصحيح الذي عليه المعول من أقوال العلماء هو: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون عن المعاصي [الصغائروالكبائر] بعد النبوة باتفاق، وأما قبل النبوة فيحتمل أن تقع منهم بعض المخالفات اليسيرة التي لا تخل بالمروءة ولاتقدح بالكرامة والشرف(١).

**عدد الأنبياء والرسل:**

لانعرف عدداً معيناً لجميع الرسل بطريق القطع؛ لأن الله تعالىٰ قص علىٰ نبيه ﷺ بعض الرسل، والبعض الآخر لم يقصص أخبارهم عليه كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (٢).

ولكن ورد في بعض الآثارعن النبي ﷺ أن الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً، وفي رواية مائة وعشرون الفاً، أما الرسل فهم قلة، وقد ورد أيضاً: أنهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وهذه الأحاديث ذكرها ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد في مسنده(٣).

---

(١) انظر تفسير القرطبي وكلامه عن عصمة الأنبياء جـ ١، ص ٣٠٨.

(٢) سورة غافر، الآية: ٧٨.

(٣) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٥ ص ٢٦٦، وقصص الأنبياء لابن كثير جـ ١ ص ٨١.

ويجب الإيمان بالأنبياء والرسل إجمالاً، كمايجب الإيمان بمن ذكر اسمه منهم في القرآن تفصيلاً، وعدد الأنبياء والرسل الذين ذكروا في القرآن الكريم خمسة وعشرون وهم على الترتيب:

١ ـ آدم ٢ ـ إدريس ٣ـ نوح ٤ ـ هود ٥ـ صالح ٦ـ إبراهيم ٧ـ لوط ٨ـ إسماعيل ٩ـ إسحاق ١٠ ـ يعقوب ١١ ـ يوسف ١٢ ـ شعيب ١٣ ـ موسى ١٤ ـ هارون ١٥ ـ داود ١٦ ـ سليمان ١٧ ـ أيوب ١٨ ـ ذو الكفل ١٩ ـ يونس ٢٠ ـ إلياس ٢١ ـ اليسع ٢٢ ـ زكريا ٢٣ ـ يحيى ٢٤ ـ عيسى ٢٥ ـ محمد ـ عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وقد ورد ذكر ثمانية عشر منهم في سورة واحدة، هي سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(١).

والسبعة الباقون ورد ذكرهم في آيات متفرقة من كتاب الله تعالى، وقد أشير إلى أسماء هؤلاء الرسل في بيتين من الشعر، تسهيلاً للحفظ وهما:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٣ ـ ٨٦.

في تلك حجتنا منهم ثمانية  من بعد عشر ويبقى سبعة وهُمُوا
إدريس ،هودٌ شعيبٌ صالح،وكذا  ذوالكفل، آدم، بالمختار قد ختموا

كما نظم أسماء الرسل مرتبة حسب إرسالهم الشيخ محمد الدمنهوري المتوفى سنة ١٢٨٨هـ فقال :

ألا إنّ إيماناً برسلٍ تحتّما  وهم آدم، إدريس، نوحٌ، على الولا
وهودٌ، وصالحُ، لوطٌ مع إبراهيم أتى  كذا نجله إسماعيل، إسحاق، فضلا
ويعقوب ، يوسف، ثم يتلو شعيبهم،  وهارون، مع موسى، وداود، ذو العلا
سليمان، أيوبٌ، وذو الكفل، يونسٌ  وإلياس،أيضا واليسع ،ذاك فاعقلا
كذا زكريا، ثم يحيى، غلامه،  وعيسى، وطه، خاتماً قد تكملا
وقد تم نظمي جمع رسلٍ مرتباً  لهم حسب إرسالٍ كما قاله الملا(١)

### الفارق الأساسي بين الأنبياء والمرسلين، والحكماء والمصلحين:

إنّ أول وأهم مايمتاز به معشر الأنبياء ، أنّ العلم الذي ينشرونه بين الناس ، والعقيدة التي يدعون إليها ، والدعوة التي يقومون بها ؛ لا تنبع من ذكائهم ، أو حميّتهم ،أو تأملهم بالوضع المزري الذي يعيشون فيه ، أو من شعورهم الدقيق الحساس ، وقلبهم الرقيق الفياض ، أوتجاربهم الواسعة الحكيمة ، لاشيء من ذلك ، إنمامصدره الوحي والرسالة التي يُصطفون لها ، ويكرمون بها ، فلايقاسون أبداً على الحكماء أو

(١) انظر مجموع المتون، ص ٤٥ .

الزعماء، أو المصلحين وجميع أصناف القادة الذين جربتهم البشرية وتأريخ الإصلاح والكفاح الطويل، والذين هم نتيجة بيئتهم، وغرس حكمتهم، وصدىٰ محيطهم، ورد فعلٍ لما كان يجيش به مجتمعهم من فساد وفوضىٰ، والقول الفصل في ذلك قول القرآن علىٰ لسان سيد الرسل ﷺ: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(١)، وقول الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢)، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾(٣).

وقوله بعد ماذكر من بعد الرسل عن البيئة التي حدثت فيها هذه الحوادث والوقائع التي يحكيها لقومه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٤)، ويقول القرآن عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل، وعن مبدئها ومصدرها: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾(٥).

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٦.

(٢) سورة الشورىٰ، الآية: ٥٢.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨٦.

(٤) سورة القصص، الآية: ٤٦.

(٥) سورة النحل، الآية: ٢.

لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية أوحوداث وقتية خارجية، ولايدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع، وشاء المجتمع، وقد قال الله تعالىٰ عن رسوله الكريم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(١)، ولايستطيع أن يحدث تغييراً أو تبديلاً أوتحويراً أو تعديلاً في رسالته وأحكام الله، وقد قال الله لرسوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٢)، ونفىٰ الله عنه المداهنة، وعصمه عنها فقال: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾(٣)، وقد أنذره بالعقاب الأليم المخزي إذا تجنىٰ علىٰ الله أو قال ما لم يقله، أو زاد أو نقص شيئاً من وحيه وكلامه فقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾(٤)، وقد أمره بتبليغ الرسالة بنصها وفصها، وبرمتها وجملتها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٥).

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية المميزة بين الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ وبين القادة والزعماء، والذين تكون رسالتهم وكفاحهم

(١) سورة النجم، الآية: ٣ ـ ٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٥.

(٣) سورة القلم، الآية: ٩.

(٤) سورة الحاقة، الآية: ٤٣ ـ ٤٧.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

وحي بيئتهم، وثقافتهم ومشاعرهم، واستجابة للقلق الذي يساور المجتمع، ويساور النفوس الواعية، والذين يلاحظون دائماً البيئة والمجتمع والظروف والأحوال، ويراعون المصلحة والسياسة ويخضعون لها في كثير من الأحوال، فيتنازلون عن أشياء كثيرة، وقد يتساومون مع الأحزاب ويتبادلون معها المنافع، ومبدأ كثير منهم الذي يأخذون به: «درْ مع الدهر كيف دار».

**الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء وفي التشريع:**

وليس معنى ذلك أن الأنبياء لايراعون الحكمة والمصلحة مطلقاً، ولايراعون طبائع الناس واستعدادهم، ولا يتحرون لدعوتهم المكان الصالح والزمان الصالح، ونشاط النفوس وإقبال القلوب، ولايراعون التدريج والتيسير، كلا! إنّ كل ذلك مما تقتضية تعاليم الدين السمحة، وحكمة الله البالغة، وفطرة الأنبياء الحكيمة، ونطقت به الآثار، وشهدت به الحوادث، وزخر به تأريخ التشريع وسيرة الرسول ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾(١)، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(٢)، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(٣)، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(٤)، وقد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالتيسير والتبشير، وقد

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٤) سورة الحج، الآية: ٧٨.

قال رسول الله ﷺ لمعاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: «**يسرا ولاتعسرا، ويشرا ولاتنفّرا**» [١] ، وقال لأصحابه: «**إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**»[٢]، وقد كان يرجئ تطبيق شيء فيه مصلحة جزئية لأجل مصلحة كلية هي أعظم وأهم منها، فقال لعائشة رضي الله عنها:

لو لا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت، ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام[٣] ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام، كراهة السآمة علينا)[٤] ، وعن جابر بن عبدالله: (كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي ﷺ، ثم يرجع فيؤم قومه، فصلى العشاء، فقرأ بالبقرة، فانصرف الرجل، فكان معاذ ينال منه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «**فتان فتان فتان**» ثلاث مرات[٥] ، وعن أبي مسعود قال: قال رجل يارسول الله: إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها، فغضب رسول الله ﷺ مارأيته غضب في موضع كان أشد غضباً منه يومئذ، ثم قال: (**ياأيها الناس إن منكم منفرين، فمن أم منكم الناس فليتجوّز، فإن خلفه الضعيف والكبير وذا**

(١) صحيح البخاري، جـ ٣، ص ٧٢.
(٢) صحيح البخاري، جـ ١، ص ٢٥.
(٣) صحيح البخاري، جـ ١، ص ٢٦٧.
(٤) صحيح البخاري، جـ ١، ص ٢٤.
(٥) صحيح البخاري، جـ ١، ص ١٢٩.
(٦) صحيح البخاري، جـ ١، ص ١٣٠.

الحاجة)[٦] . والنصوص في ذلك والشواهد أكثر من أن تحصى[١]، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته ﷺ، مفروض في سيرة الأنبياء السابقين ، للحكمة التي وصفهم الله بها : ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[٢] .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾[٣]، ولكن كل هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعداد النفوس، إنما هو في التعليم والتربية وفي المسائل الجزئية، وكله بوحي من الله وأمره ، ومما ليس من العقائد وغيرها من أصول الدين، أما ما كان من العقائد والمبادئ والفرائض ، ومايفرق بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله، فالأنبياء عليهم السلام ـ على اختلاف عصورهم ـ أصلب فيه من الحديد، وأثبت عليه من الجبال، لايعرفون تنازلاً ولا هوادة، ولا يرضون مساومة[٤] .

هذه لمحة موجزة عن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وقد جعلهم الله رحمة للإنسانية وهداية خير ورشد على امتداد رحلة البشر، وقد ختم الله الرسل والرسالات بسيدنا محمد ﷺ ورسالته الجامعة الخالدة ، فالحمد لله على ما أكمل به من الدين وأتم به من النعمة .

---

(١) اقرأ الفصل النفيس : باب التيسير في حجة الله البالغة لشيخ الإسلام ولي الله بن عبدالرحيم الدهلوي، جـ ١، ص ٢٣٣ .

(٢) سورة ص، الآية: ٢٠ .

(٣) سورة الأنعام ،الآية: ٨٩ .

(٤) انظر النبوة، والأنبياء في ضوء القرآن لأبي الحسن الندوي ، بتصرف يسير ص، ٣٤ـ٣٩ .

**الموضوع الرابع: الكتب المنزلة:**

والإيمان بالكتب المنزلة، أصل من أصول الإيمان، نزلت بذلك الآيات وتظافرت النصوص من الكتاب والسنة على وجوب الإيمان بالكتب التي أنزلها الله على أنبيائه جملة فيما أجمل، وتفصيلاً فيما فصل، فأركان العقيدة الإسلامية الإيمانية ستة، كما هو معلوم، ومنها الإيمان بكتب الله المنزلة على أنبيائه ، وهي كمايلي :

**أولاً: القرآن الكريم:**

وسنجعل القرآن الكريم أساساً للحديث عن الكتب السماوية السابقة لكونه الكتاب المنزل المصون الذي سلم من التحريف والتغيير، فهو محفوظ بحفظ الله له ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١) .

وكون القرآن الكريم منزّل من عند الله على سيدنا محمد ﷺ حقيقة مسلمة عند كل مسلم، وقد ثبت ذلك بالدليل العقلي والنقلي.

أما الدليل العقلي: فهو ماتضمنه من وجوه الإعجاز، وبحيث لا تتطاول القدرات الإنسانية مجتمعة أو مفترقة إلى الإتيان بمثله، مهما تعاقبت العصور وتوالت الدهور.

وإن الإعجاز بجميع صوره وأشكاله كامنٌ في كتاب الله إلى قيام الساعة، وليس أدل على ذلك من حاجة الإنسانية المتجددة يوماً بعديوم إلى مايدعو إليه من قيم ومبادئ تتفق مع الفطرة الإنسانية السّوية، وربما

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩ .

نظر كثير من الباحثين إلىٰ القرآن الكريم من زاوية الإعجاز العلمي فوجدوا فيه العجب العجاب بما يبشر بتحول كبير في مسيرة الإنسانية عندما تبلغها الدعوة القرآنية علىٰ حقيقتها ، ويوجد الدعاة المؤهلون للدعوة للانتشار في الآفاق بهذا النور الإلهي .

فهذا البقاء والترقي والسمو في كل زمان، مع السلامة من التناقض والاختلاف من أكبر الأدلة العقلية علىٰ أنه من عند الله .

**أما الدليل النقلي**: فهو ماثبت بالتواتر القطعي الدلالة كابراً عن كابر إلىٰ رسول الله ﷺ ، وما ثبت في آيات القرآن نفسه بأنه من عند الله وليس من كلام محمد ﷺ كما قال تعالىٰ : ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾(٢) .

وقد عمت هذه الحقيقة المجتمع الإسلامي في كل عصر ومصر ، حتىٰ صارت من العقائد المعلومة من الدين بالضرورة التي من أنكرها فقد كفر ، فنحن نؤمن بالقرآن كله إجمالاً ، كما نؤمن به تفصيلاً ، فنؤمن بكل آية من آياته المثبتة فيه ، علىٰ أنها من عند الله تعالىٰ ، نقلت إلينا بالتواتر القطعي الذي لا يترك عذراً لمرتاب .

---

(١) سورة غافر ، الآية : ١ ـ ٢ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١٩٢ ـ ١٩٤ .

وقد أخبرنا القرآن بأخباره القاطعة أنّ الله تعالى قد أنزل قبل القرآن كتباً سماوية يصدق القرآن بها على ما كانت عليه يوم أنزلت ، لا على ماهي عليه الآن بعد أن حرّفت ، قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾(١) . فنحن بالتسليم المطلق نؤمن بكل كتاب أنزله الله سواء عرفنا اسمه أو لم نعرفه ، وسواء عرفنا الرسول الذي أنزل عليه أو لم نعرف ، وهذا هو معنى الإيمان الإجمالي بالكتب ، وإيماننا بها تصديق لخبر الله في القرآن الكريم الذي ثبت عندنا بطريق القطع أنه من عند الله .

كما نؤمن تفصيلاً بالكتب والصحف التي أشار إليهاالقرآن بشيء من التفصيل ، وبالقدر الذي فصله القرآن لانزيد على ذلك ولاننقص .

أما ما أخبرنا عنه القرآن الكريم من الكتب السماوية بشيء من التفصيل ، فيتلخص في أربعة كتب منها ما كان على شكل صحف معدودة ، ومنها ما أخذ شكل كتب كبيرة لها شأن ، وهي مايلي :

**الأول: صحف إبراهيم عليه السلام:** وهي أول ما أنزل الله من كتب مما لدينا به علم يقيني .

وقد أخبرنا القرآن الكريم بأخباره الصريحة عن الصحف الأولى ، وذكرمنها صحف إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى : ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾(٢) .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٤٨ .

(٢) سورة الأعلى ، الآية : ١٩ .

ولكن هذه الصحف مفقودة، فلا يعرف منها شيء بطريق يقيني إلا ماتضمنه القرآن الكريم من الحديث عن دعوة إبراهيم عليه السلام، وتقريره لأصول الدين وفق الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها. ومما ورد في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام ما قصه الله تعالى في سورة النجم بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾(١).

ونحن نؤمن إيماناً جازماً بأنّ الله تعالى أنزل على إبراهيم عليه السلام صحفاً ومنها ما قصه الله في كتابه العزيز.

**ثانياً: التوراة:**

وهو الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام، وهو ثاني ما أنزل الله من كتبٍ مما لدينا به علم يقيني.

وتتضمن التوراة ـ على الأرجح ـ الصحف التي أنزلت على موسى عليه السلام، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الصحف بقوله: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾(٣).

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٦ ـ ٥٤.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٩.

(٣) سورة النجم، الآية: ٣٦.

كما يتضمن الألواح التي جاء بها موسى بعد مناجاته لربه في جانب الطور كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾(١).

ولفظ (التوراة) لفظ عبراني معناه (التعليم أو الشريعة).

والقرآن الكريم جاء مصدقاً للكتب السماوية السابقة ومهيمنا عليها ومنها التوراة والإنجيل قال تعالى: ﴿الم ۝ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾(٢).

فالإيمان (بالتوراة) التي أنزلها الله على موسى أصل من أصول الإيمان، لأنهما من كتب الله المنزلة التي ذكرها القرآن الكريم وأمرنا بالإيمان بها.

وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض ماجاء في التوراة، فنحن نؤمن بأنه مما تضمنته التوراة، لأنه جاءنا به علم يقيني قاطع وهو القرآن الكريم ومن ذلك الأمور التالية:

١ ـ مجموعة من الأحكام والشرائع الربانية التي شرعها الله لبني إسرائيل، يشهد لذلك قول الله تعالى خطاباً للرسول ﷺ: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١ ـ ٤.

بالْمُؤْمنينَ ﴿٤٣﴾ إنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا للَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾(١) .

وقد ذكر القرآن الكريم نماذج من الأحكام الشرعية التي وردت في التوراة، فمن ذلك ما أشار إليه في قوله تعالىٰ في معرض الحديث عن التوراة : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٢) .

فقد تضمنت هذه الآية أن من أحكام التوراة التي كتب الله فيها علىٰ بني إسرائيل هذه الجملة من أحكام الجنايات، وهي تتعلق بشرعية القصاص، وأحكام القصاص من الأحكام الثابتة المستمرة التي لم تنسخ برسالة محمد ﷺ، بل أثبتها القرآن، وشرع القصاص، وبيّن أنه حياة وأمنٌ واستقرارٌ للمجتمعات فقال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣) .

وقال تعالىٰ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾(٤) .

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٣ ـ ٤٤ .

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥ .

(٣) سورة البقرة ، الآية: ١٧٩ .

(٤) سورة البقرة ،الآية: ١٧٨ .

٢ ـ من جملة ما تضمنته التوراة البشارة بمحمد ﷺ وذكر بعض صفاته، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

٣ ـ من جملة ماتضمنته التوراة صفة أصحاب محمد ﷺ يشهد لذلك قول الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾(٢).

٤ ـ ومن جملة ما تضمنته التوراة الحث على الجهاد بالنفس والمال، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٣)، فهذه الآية تنص على أن الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال مما حثت عليه (التوراة) بني إسرائيل.

ولذلك فنحن نؤمن إيماناً جازماً بأن التوراة الأصل كتابٌ ربّاني أنزله الله على موسى عليه السلام.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١١.

**ماهي التوراة التي صدق بها القرآن الكريم؟**

التوراة التي صدق بها القرآن الكريم هي الأصول التي أنزلها الله تعالىٰ علىٰ موسىٰ عليه السلام، أما (التوراة) الحالية الموجودة عند أهل الكتاب، فليس لها سند متصل يصحح نسبتها إلىٰ موسىٰ عليه السلام، كما دخل إليها التحريف والتبديل من غير تمييز بين الأصل والمحرّف لذلك لا يصح أن يوثق بها، وسنتحدث في ختام هذا الموضوع عن تحريف أهل الكتاب للكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل كما نص القرآن الكريم علىٰ ذلك.

**ثالثا: الزبور:**

وهو الكتاب الذي أنزله الله علىٰ داود عليه السلام.

والزبور: لغة، هو الكتاب المزبور[1]، أي المكتوب وجمعه زُبُر كرسول ورُسُل، وكل كتاب يسمىٰ زبوراً، قال تعالىٰ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾[2] أي مسجل في كتب الملائكة[3] وصحفهم، ثم غلب الزبور علىٰ صحف داود عليه السلام كما قال تعالىٰ: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾[4].

---

(١) انظر ترتيب القاموس المحيط جـ ٢، ص ٤٣٠.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥٢.

(٣) انظر تفسير ابن كثير جـ ٤، ص ٢٦٨.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٦٣.

فهذه الآية تنص على أن الله تعالى قد أنزل على داود كتاباً سماوياً اسمه «الزبور» وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(١) .

والزبور : يقال فيه ما قيل في التوراة، فالقرآن صدّق بما أنزل على داود عليه السلام، لا مادخل فيه من التحريف من عمل اليهود .

**رابعاً :الإنجيل:**

وهو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام، وقد ورد ذكره في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾(٢) .

**ماهو الإنجيل الذي صدق به القرآن ؟**

الإنجيل الذي صدق به القرآن الكريم إنما هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام بأصوله الصحيحة الأولى، أما الأناجيل الحالية الموجودة عند أهل الكتاب، فلا يعرف لها سند متصل يصحح نسبتها إلى عيسى عليه السلام، ومعظمها لايصح بحال من الأحوال نسبته إليه، وأحسن مايقال في هذه الأناجيل إنها مصنفات تأريخية حول سيرة المسيح وبعض وصاياه ومواعظه ومعجزاته، ولكن فيها الكثير من

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥ .

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٦ ـ ٤٧ .

الأغلاط والمتناقضات والتحريف كما سنوضح جانباً من ذلك في نهاية هذا البحث.

وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض ما جاء في الإنجيل، فنحن نؤمن بأنه مما تضمنه الإنجيل؛ لأنه جاءنا بطريق صحيح وهو القرآن الكريم.

ومن ذلك الأمور التالية:

١ ـ تضمن الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام الهدى والنور والتصديق بالتوراة والموعظة للمتقين.

كما في الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾(١).

٢ ـ تضمن الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام مجموعة من الأحكام والشرائع الربانية، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٢).

ويظهر أن الأحكام الموجودة في الإنجيل بعضها مكمّل وبعضها معدل للأحكام الموجودة في التوراة، يدل على ذلك المهام التي جاء بها

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٧.

عيسى عليه السلام، ومنها أن يحل لبني إسرائيل بعض الذي حرّم عليهم، قال تعالى في حكاية كلام عيسى لقومه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(١) .

٣ ـ تضمن الإنجيل البشارة بمحمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(٢) .

٤ ـ ما تضمنه الإنجيل من صفة أصحاب محمد ﷺ، يشهد لذلك قول الله تعالى في معرض الحديث عن أصحاب محمد ﷺ: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾(٣) وغير ذلك مما اشتمل عليه الإنجيل مما ذكر في القرآن، مثل الجهاد.

### موقف العقيدة الإسلامية من كتب العهدين [القديم والجديد]

عرفنا فيماسبق موقف العقيدة الإسلامية من الكتب الربانية التي أنزلها الله على رسله، وأن الإيمان بها من أركان العقيدة الإسلامية. أما موقف العقيدة الإسلامية من كتب العهدين القديم والجديد التي يزعم أهل الكتاب أنها هي الأصول الصحيحة «للتوراة والإنجيل» فيمكن تلخيصها فيما يلي:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٠ .

(٢) سورة الصف، الآية: ٦ .

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩ .

١ ـ لايصح الاعتقاد بأي كتاب من كتب العهدين القديم والجديد على أنه كتاب من عند الله؛ لأنها تفقد وسائل صحة النسبة إلى الله، وفق المنهج العلمي المعتمد عقلاً وشرعاً.

٢ ـ إن مضمون كل نص من نصوص كتب أهل الكتاب الحالية سواء كان خبراً تأريخياً أو حقيقة علمية أو حكماً شرعياً، إن صدقه القرآن أو صدقته السنة الصحيحة فهو مقبول عندنا يقيناً، وإن كذبه القرآن أوكذبته السنة فهو مردود عندنايقيناً، وإن سكت القرآن أو سكتت السنة عن تصديقه أو تكذيبه فإننا نسكت عنه فلا نصدق ولا نكذب لاحتمال الصدق والكذب فيه[١]، إلا إذا دلت دلائل العقل أو دلائل الواقع على تصديقه أو تكذيبه، فإننا نتبع حكم هذه الدلائل من تصديق أوتكذيب، وفيما سكتت الشريعة الإسلامية عن تصديقه أو تكذيبه ينطبق عليه الحديثان النبويان التاليان:

قول النبي ﷺ: **«لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»**[٢].

قول النبي ﷺ: **«لقد جئتكم بها بيضاء نقية،لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به،والذي نفسي بيده لوأن موسى كان حياً ماوسعه إلا أن يتبعني»**[٣].

---

(١) انظر مقدمة تفسير ابن كثير، ج ـ ١، ص ٤.
(٢) صحيح البخاري، جـ ٢، ص ١٠٩.
(٣) مسند الإمام أحمد جـ ٣، ص ٣٣٨.

وأما قوله ﷺ : «**حدثوا عن بني إسرائيل ولاحرج**»[١] ، فإن المراد بذلك ـ والله أعلم ـ الأخبار والقصص التي لم يرد بطلانها في القرآن أوالسنة الصحيحة ، فلا مانع من الاستشهاد بها في مجال الأخبار والقصص ، دون العقائد والأحكام الشرعية ؛ لأن العقائد والأحكام لا تثبت إلا بطريق صحيح وليس لدينا علم يقيني بصحتها في الجملة .

٣ ـ من الثابت عندنا في العقيدة الإسلامية أن أهل الكتاب حرّفوا في كتبهم ، فبدّلوا بعض نصوصها ، وأخفوا طائفة منها ، ونسوا حظاً مما ذكروا به .

وفيمايلي لمحة عن التحريف في كتب أهل الكتاب :

ولقد أخذ التحريف في كتب أهل الكتاب مظهرين :

**الأول:** التحريف المعنوي ، وذلك بتغيير مدلولات الألفاظ وترجمتها إلى مايوافق تحريفهم .

**الثاني:** التحريف اللفظي ، ويكون هذا التحريف اللفظي بأحد ثلاثة وجوه : بالتبديل ،أو الزيادة ، أوالنقصان .

وقد وصف القرآن الكريم أهل الكتاب من يهود ونصارى بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، وبأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به ، وبأنهم يبدون من كتبهم شيئاً ويخفون كثيراً ، قال تعالى في الكلام على بني إسرائيل : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ

---

(١) صحيح البخاري، جـ ٢ ، ص ٢٥٨ .

عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(١) .

وقال في الكلام على النصارى بعد الآية السابقة : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(٢) .

وقال تعالى مخاطباً أهل الكتاب عامة : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾(٣) .

وقد تتبع المحققون في كتب أهل الكتاب، فوجدوا فيها الشيء الكثير من التحريفات التي يشهد العقل بداهة أنها تحريف لاشك في ذلك، وكشفوا جملة كثيرة من المتناقضات والأغلاط التي ملئت بها هذه الكتب المحرفة .

وقد أورد الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق مئة شاهد على التحريف اللفظي والمعنوي في كتب العهدين القديم والجديد(٤) .

ومن البدهي أن المضللين من أهل الكتاب إذْ سهل عليهم الكذب على الله في أصل العقيدة فقالت طائفة من اليهود : عزير ابن الله، وقال

---

(١) سورة المائدة، الآية : ١٣ .

(٢) سورة المائدة، الآية : ١٤ .

(٣) سورة المائدة، الآية : ١٥ .

(٤) انظر إظهار الحق، جـ ١ من ص ٣٣٨ ـ ٤٣٢ .

بعض النصارىٰ: إن الله هو المسيح ابن مريم، وقال بعضهم إن الله ثالث ثلاثة، وقال بعضهم: إن المسيح هو ابن الله، وقال بعضهم: إن عيسىٰ وأمه إلهان من دون الله، إلىٰ غير ذلك من أقوال باطلة خالفوا فيها أصول العقل والدين والكتب السماوية، وإن هؤلاء إذ سهل عليهم كل ذلك في أصول العقيدة فلابد أن يكون الكذب عندهم فيما وراء ذلك من أحكام ونصوص وأخبار أهون وأسهل، متىٰ كان لهم في الكذب منافع وشهوات ومصالح دنيوية(١).

وخلاصة القول أنّ الإيمان بكتب الله المنزلة علىٰ أنبيائه عليهم السلام ركن من أركان العقيدة الإسلامية، فنؤمن بما أنزل الله علىٰ أنبيائه إيماناً مطلقاً، وأما الكتب التي بأيدي اليهود والنصارىٰ حالياً، فقد علمنا يقينا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أنهم غيروا وبدّلوا فيها، فمصدر حكمنا عليها بالقبول أو الرد هو القرآن والسنة كما تقدم تفصيل ذلك والله أعلم.

### الموضوع الخامس :الإخلاص:

مادة (خَلَصَ) الخاء، واللام، و الصاد، أصل واحد مطّرد، وهوتنقية الشيء وتهذيبه، يقولون: خَلَصْتُه من كذا، وخَلَصَ هو.

وخُلاصة السمن: ما ألقي فيه من تمر أو سويق ليخلص به (٢) من اللبن والشوائب.

---

(١) انظر هذا المبحث بتفصيلات أكثر في كتاب العقيدة الإسلامية، لعبدالرحمن حبنّكه جـ ٢، ص ٢٥٧، وما بعدها.

(٢) معجم مقاييس اللغة: لابن فارس جـ ٢، ص ٢٠٨.

ويقول صاحب المصباح المنير الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠هـ:

(خَلَصَ) الشيء من التلف خلوصاً من باب (قَعَدَ) وخَلاَصاً وَمَخْلصاً، سَلِمَ ونجا.

وخَلَصَ الماء من الكدر صفا وخلّصتُه بالتثقيل ميّزته من غيره.

وخُلاصةُ الشيء بالضم ما صفا منه مأخوذ من خلاصة السمن، وهو مايلقى فيه تمر أو سويق ليخلص به من بقايا اللبن، وأخلص لله العمل.

وسورة الإخلاص إذا أطلقت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وسورتا الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾[1].

ويقول الزمخشري في كتابه أساس البلاغة، مادة (خَلَصَ):

خَلَصَ الشيء خلوصاً، فهو خالص.

وخلَّصتُه: صفيتُه.

**ومن المجاز:** أخلص له المودةَ، وأخلص لله دينَه، وخَلَصَ من الورطة خلاصاً: سلم منها سلامة الشيء يصفو من كدره، وخَلَصَ من القوم: اعتزلهم، وخَلَصَ إليهم: وصل: انتهى.

**وكلمة الإخلاص:** وردت في القرآن الكريم على أربعة أوجه حسب الاستقراء، وإن كان الذين بحثوا في الوجوه والأشباه والنظائر لم

---

(١) المصباح المنير، ص ٢٤٢ مادة خلص.

يذكروا هذا مثل ابن الجوزي المتوفى ٥٩٧هـ في كتابه القيّم (نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر)، وابن العماد المتوفى ٨٨٧هـ في كتابه [كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر]، والفقيه الدامغاني في القرن العاشر الهجري في كتابه [إصلاح الوجوه والنظائر]، و [تحصيل نظائر القرآن] للحكيم الترمذي الذي توفي تقريباً في (٣٢٠هـ).

**وهذه الأوجه الأربعة كما يلي:**

**١ - الإخلاص بمعنى الاصطفاء:** قال تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾(١) . أي اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين(٢) ، فأفردناهم بمفردة من خصال الخير: فكأن الأصطفاء المذكور في هذه الآية مفسر للآية التي قبلها ومنه قول الشاعر:

**لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطةُ والفضول**

وقال الأصمعي: الصفايا ما يصطفيه الرئيس لنفسه دون أصحابه مثل [الفَرسِ](٣) .

**٢ - الإخلاص بمعنى الخلوص من الشوائب:** قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾(٤) .

---

(١) سورة ص، الآية: ٤٧ _ ٤٧ .

(٢) انظر زاد المسير لابن الجوزي، ج- ٧ ص ١٤٦ .

(٣) المصباح المنير، ص ٤٦٨ .

(٤) سورة النحل، الآية: ٦٦ .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: إذا استقر العلف في الكرش، طحنه، فصار أسفله فرثاً، وأعلاه دماً وأوسطه لبناً، والكبدُ مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، ويبقى الفرث في الكرش(١).

والمعنى (لبناً خالصاً) أي صافياً من حمرة الدم وقذارة الفرث: ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾(٢) أي الصافي من شوائب الشرك والبدع والمعاصي.

### ٣ ـ الإخلاص بمعنى الاختصاص أوالخصوصية:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣) أي خاصة بك دون غيرك.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾(٤) أي أجعله خالصاً لي لا يشركني فيه أحد.

---

(١) انظر زاد المسير جـ ٤، ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٠.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٥٤.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١) أي خاصة بكم دون غيركم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾(٢) أي خاص بالذكور دون الإناث، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٣) أي خاصة بهم دون المشركين، ومن هنا نعلم أنّ الدنيا مزرعة الآخرة، وأنّ متعلق هذه الخصوصية الإيمان في هذه الحياة الدنيا.

**٤ ـ والإخلاص بمعنى التوحيد:** وبمعنى التطهير على بعض القراءات والإخلاص بمعنى التوحيد هو الغالب في آيات الإخلاص في القرآن ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾(٤). أي موحدون مفردون العبادة خالصة من الشرك.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٩.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٣٩.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٤٥ ـ ١٤٦.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾(١) .

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٢) ، ومثله قوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(٣) .

وفي سورة لقمان: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾(٤) .

ومنه في سورة غافر: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(٥) وفي سورة غافر أيضا: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٦) ، وفي سورة البيّنة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾(٧) .

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٢.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.
(٤) سورة لقمان، الآية: ٣٢.
(٥) سورة غافر، الآية: ١٤.
(٦) سورة غافر، الآية: ٦٥.
(٧) سورة البينة، الآية: ٥.

**ومن مجيء آيات الإخلاص بمعنى التطهير على بعض القراءات**

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾(١) ، قرأ ابن كثير وأبوعمرو بن العلاء وعبدالله بن عامر بكسر اللام والمعنى الذين أخصلوا دينهم لله، وهذا يرجع للمعنى الأول، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح اللام أرادوا: من الذين أخلصهم الله من الأسواء والفواحش بمعنى طهرهم وحماهم منها(٢) .

وفي سورة الصافات ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾(٣) .

**معنى الإخلاص:** في الاصطلاح الشرعي: أن يقصد الإنسان بقوله وعمله وجهاده وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته.

**دعوة الإسلام إليه:** لقد دعا الإسلام إلى الإخلاص ورغب فيه فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٤)، وقد أمر الله تعالى به فقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾(٥)، وجعل قبول الأعمال رهناً به ووقفا عليه.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

(٢) انظر زاد المسير، جـ ٤، ص ٢١٠.

(٣) سورة الصافات، آيات: ٤٠، ٧٤، ١٢٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢.

(٥) سورة البينة، الآية: ٥.

روىٰ ابن أبي حاتم عن طاووس أن رجلاً قال: يارسول الله إني أقف المواقف، أريد وجه الله، وأحبُّ أن يرىٰ موطني! فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتىٰ نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[(١)] .

**والإخلاص دليل كمال الإيمان:**

فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»[(٢)] ، والله ينظر إلىٰ القلوب ولا ينظر إلىٰ المظاهر والأشكال. ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم،ولكن ينظر إلى قلوبكم**»[(٣)] . وجاء في بعض الآثار، فأروا الله من أنفسكم خيراً.

**متى يكون العمل خيراً ؟**

لايعتد بالعمل في أبواب الخير إلا إذا كان عن نية طيبة خالصة لوجه الله، فتكون وجهة الإنسان في الحياة إرادة الخير لنفسه وللناس جميعاً.

وفي الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ**

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠. وانظر تفسير ابن جرير الطبري جـ ١٦، ص ٤٠.
(٢) رواه أبوداود في سننه جـ ٤، ص ٢٢٠ وانظر مسند الإمام أحمد جـ ٣، ص ٤٣٨.
(٣) صحيح مسلم جـ ٤، ص ١٩٨٧.

**مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو أمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»**(١) رواه البخاري ومسلم .

**قيمة الإخلاص في الفرد والمجتمع:**

والإخلاص ، والنية الطيبة تبلغ بالإنسان الذروة من السمو والرفعة ، وتنزله منازل الأبرار .

والإخلاص في العمل نجاة لما يتعرض له المرء من محن ومخاطر ، يشهد لذلك حديث الثلاثة النفر الذين آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فدعوا الله بصالح أعمالهم ففرج الله عنهم وانزاحت الصخرة فخرجوا (٢) .

والاتصاف بصفة الإخلاص والصدق يكسب الفرد النجاح والظفر .

والجماعة التي تتألف من أفراد مخلصين تتجه إلى الخير وتتنزه عن الدنايا وتترفع عن الشهوات الهابطة ، وتسير إلى غاياتها تظللها المحبة ويعمها الأمن والسلام .

ولقد كان التحلي بحلية الإخلاص سبباً في تطهير أنفس الصحابة من الرياء والنفاق والكذب ، فاندفعوا إلى غاياتهم الكبرى ينشدون إقامة العدل والحق ويبتغون وجه الله وإعلاء كلمته فمكّن الله لهم في الأرض وجعلهم قادة الدنيا وسادة العالم ، ومن رحمة الله بعباده

---

(١) انظر صحيح البخاري ، جـ ١ ، ص ٦ وصحيح مسلم جـ ٣ ، ص ١٥١٥ .
(٢) انظر صحيح البخاري ، جـ ٢ ، ص ٣٥ .

وفضله عليهم أنّ الأعذار التي تحول بين المرء وبين ممارسة الأعمال الصالحة، لاتنقص من مكانته عند الله مادام مخلصاً: فقد روى موسى ابن أنس بن مالك عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**لقد تركتم بالمدينة أقواماً ماسرتم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه**، قالوا: يارسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ **قال حبسهم العذر**»(١) .

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**ما من امرئ تكون له صلاة بليل يغلبه عليها نوم، إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه عليه صدقة**»(٢) .

وعن سهل بن حُنيف أن النبي ﷺ قال: «**من سأل الله الشهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»(٣) .

**ومن نواقض كمال الإخلاص: الرياء وسوء النية:**

وهو مرض يهبط بصاحبه إلى أسفل الدركات، لأنه صفة من صفات المنافقين الذين لايثبتون على مبدأ ولايتقيدون بعقيدة صالحة.

**الإعجاب بثناء الناس لا ينافي الإخلاص:**

إذا عمل المرء العمل وأخلص فيه، ثم اطلع عليه الناس دون قصد

---

(١) رواه أبو داود في سننه جـ ٣، ص ١٢ وأصله في الصحيحين بألفاظ مختلفة انظر صحيح البخاري كتاب الجهاد، ص ٢٢٨، موسوعة الحديث الشريف.

(٢) سنن أبي داود جـ ٢، ص ٣٤.

(٣) رواه الدارمي في مسنده كتاب الجهاد جـ ٢، ص ٢٠٥ رواه أبو داود بلفظ آخر في كتاب الجهاد باب (٤٠) جـ ٣، ص ٢١.

منه، وأعجبه ثناؤهم عليه وحمدهم له، فهذا لايحبط العمل ولاينافي الإخلاص. روى الترمذي عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يارسول الله الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه ذلك؟فقال رسول الله ﷺ له أجران: «**أجرالسّر، وأجر العلانية**»(١)، بل قد يكون ثناء الناس من المبشرات المعجّلة له في الدنيا. فعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ قال: «أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير فيحمده الناس عليه؟ قال ﷺ: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»رواه مسلم(٢).

**اتقاء الرياء:**

عن أبي موسى الأشعري قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «**ياأيها الناس: اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل** فقال رجل: وكيف نتقيه؟قال: **قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لانعلمه**»(٣) رواه أحمد. هذا هوالإخلاص، وإنما استطردنا في إيضاح جوانب الإخلاص ونواقضه بما ورد في السنة، لأن السنة موضحة ومبينة ما أجمل في آيات القرآن الكريم ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤).

---

(١) سنن الترمذي جـ٧، ص ١١٥ الزهد وهو ضعيف كما في ضعيف الجامع ٤٧٩٠.
(٢) صحيح مسلم، جـ٤، ص ٢٠٣٤.
(٣) مسند الإمام أحمد جـ٤، ص ٤٠٣.
(٤) سورة النحل، الآية: ٤٤.

**الموضوع السادس:الإيمان بالغيب وأثره في حياة المجتمع:**

**الغيب في اللغة:** ماغاب واستتر عن الأعين :

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : الغين والياء والباء أصل صحيح ، يدل على تستر الشيء عن العيون ، ثم يقاس من ذلك الغيب : ما غاب مما لايعلمه إلا الله ، إلى أن قال : «ووقعنا في غَيبة وغيابة ، أي هابطة من الأرض يغاب فيها ، قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿وأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾(١) . والغِيبةُ : الوقيعة في الناس من هذا ، لأنها لا تقال إلا عن غَيْبة»(٢) .

**وفي الاصطلاح الشرعي:** هو ما اختص الله بعلمه ، أو أطلع عليه بعض عباده دون بعض من أمور الوحي .

والغيب أنواع ثلاثة :

١ ـ نوع استأثر الله بعلمه ومن ذلك أمر الروح ، وقيام الساعة ، كما قال تعالى : ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾(٣) ، وقوله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٤) ، وقال تعالى : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾(٥) .

٢ ـ نوع قد يطلع الله عليه من شاء من عباده كالملائكة والرسل ، كما قال تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(٦) .

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ١٠ .
(٢) معجم مقاييس اللغة مادة (غَيَبَ) .
(٣) سورة النمل ، الآية : ٦٥ .
(٤) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥ .
(٥) سورة الأنعام ، الآية : ٥٩ .
(٦) سورة الجن ، الآية : ٢٦ ـ ٢٧ .

٣ـ نوع من قبيل علم الغيب المؤقت، و قد يعلم عن طريق الوسائل والكشوف العلمية المتطورة، كمعرفة بعض الكواكب وبعض الميكروبات الدقيقة والجنين بعد التخليق وغيرها مما لايدرك إلا بوسائل متطورة.

ومن أخص صفات المؤمنين التي افتتح الله بها سورة البقرة، أنهم يؤمنون بالغيب، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(١).

ويلاحظ أن آية البقرة هي الآية الوحيدة في القرآن التي تحدثت عن الإيمان بالغيب، أما بقية آيات الغيب في القرآن فهي مقررة بأن علم الغيب عند الله، وأنه علاّم الغيوب.

وقد ذكر ابن الجوزي وغيره من أصحاب كتب الأشباه والنظائر أن الغيب ورد في القرآن على أحد عشر وجهاً، كما ذكره بعض المفسرين وهي كما يلي:

**الوجه الأول:** الله عز وجل، والحساب، والصراط، والجنة، والنار، وهو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾(٢).

**الوجه الثاني:** الوحي: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١ ـ ٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣.

(٣) سورة التكوير، الآية: ٢٤.

**الوجه الثالث:** حوادث القدر: ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾(١) .

**الوجه الرابع:** الظن: ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾(٢) .

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾(٣) .

**الوجه الخامس:** المطر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾(٤) يعني المطر وخزائنه.

قلتُ: والتعميم هنا أولى، لا سيما وقد ورد تفسير النبي ﷺ لهذه الآية عندما سئل عن مفاتح الغيب فقال: «**مفاتح الغيب خمس** ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٥) .

**الوجه السادس:** موت سليمان عليه السلام: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾(٦) .

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٢.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٥٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٥) آخر سورة لقمان، الآية: ٣٤ وانظر صحيح البخاري، ج-٣، كتاب التفسير ص ١٧٤ سورة لقمان.
(٦) سورة سبأ، الآية: ١٤.

«قال المفسرون في هذه الآية، كانت الإنس تقول: إن الجن تعلم الغيب الذي يكون في غدٍ، فوقف سليمان في محرابه يصلي متوكئاً على عصاه، فمات فمكث كذلك حولاً والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة، ولا تعلم بموته حتى أكلت الأَرَضُ ـ جمع أَرَض، وهو دويبة تأكل الخشب ـ عصا سليمان فخرّ فعلموا بموته، وعلم الإنسان أن الجن لاتعلم الغيب، وقيل إن سليمان سأل الله تعالى أن يُعمّي على الجن موته فأخفاه الله عنهم حولاً»(١) .

والمِنسَأة: العصا، قال الزجاج سميت منسأة؛ لأنه ينسأ بها، أي يطرد ويزجر.

**الوجه السابع:** اللوح المحفوظ ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾(٢) .

قال ابن عباس في رواية عنه: أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أفي الجنة هو أولا؟ وفي رواية أخرى: أنظَرَ في اللوح المحفوظ؟(٣) واطلع: مأخوذ من قولهم: اطلع الجَبَلَ إذا ارتقى إلى أعلاه(٤)، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾(٥) .

---

(١) انظر زاد المسير، ج ٦، ص ٤٤١.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧٧ ـ ٧٨.

(٣) زاد المسير، جـ ٥ ص ٢٦١.

(٤) انظر فتح القدير للشوكاني، جـ ٣، ص ٣٤٩.

(٥) سورة الطور، الآية: ٤١.

الوجه الثامن: حال الغيبة، ومنه قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾(١) ، وقال تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾(٢) . أي حافظات لما غاب عنه الزوج من ماله ومن أنفسهن.

الوجه التاسع: وقت نزول العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(٣) . يعني وقت نزول العذاب.

قلت والتعميم هنا أولى كما مر في الوجه الخامس.

الوجه العاشر: القعر، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾(٤) .

الوجه الحادي عشر: أسماء من يؤمن من الكفار، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾(٥) .

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الجن، الآية: ٢٦.

(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.

وانظر هذه الوجوه في نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي، ج-٢، ص ٦٧ واصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم للدامغاني ص ٣٤٤، وقد أوردتها هنا بتصرف يسير مع بعض الإضافات القليلة.

## العالم غيبي ومشهود

ينقسم العالم إلىٰ مادي مشهود، وغيبي [ميتافيزيك] أو ما يسمىٰ بما وراء الطبيعة: وبيان ذلك، إن الأشياء كلها التي اتصلت بها حواسنا هي في عرفنا أشياء مادية، لأننا نشاهدها شهوداً حسياً، ولايشك بوجودها إلا فاقد الحس.

ولكن العالم مشحون بالأشياء الكثيرة العجيبة التي لم نتصل بها عن طريق حواسنا، وهي أشياء موجودة حقاً نؤمن بوجودها وإن كانت غائبة عنا، ونسمي هذه الأشياء بعرفنا أموراً غيبيةً، أي غائبة عن عالم الحس فينا، وقد تكون بواقع حالها أشياء مادية من نوع آخر، ويمكن شهودها لو توفرت لدينا الحاسة المناسبة التي نتمكن بواسطتها من كشف صورها والإحساس بذواتها.

**ونضرب مثلين على ذلك:**

الأول: أرواحنا السارية في أجسامنا، لانسمعها ولانلمسها ولا نراها، ومع ذلك فهي موجودة فينا حقاً، نؤمن بها ونحرص عليها كل الحرص، فهي وإن لم نحس بها ظاهراً، فقد آمنا بها استدلالاً من آثارها فينا، بل علمنا بها أمر بَدَهِي لايحتاج إلىٰ دليل.

والمثال الثاني: قطعتان من حديد متشابهتان تماماً، وزناً وشكلاً، ولوناً ولمساً، بحيث لانستطيع أن ندرك بحواسنا أي فرق بينهما.

أما إحداهما فمشحونة بقوة مغناطيسية، وأما الأخرىٰ فغير مشحونة بهذه القوة، ثم إذا وجّهنا حواسّنا بدقة إلىٰ هاتين القطعتين، فإننا لانستطيع أن ندرك الشحنة المغناطيسية الموجودة في إحداهما عن طريق أي منفذ من منافذ الحس فينا لكننا نجد أن المشحونة بالمغناطيس تجذب الحديد إليها بقوة، والأخرىٰ عديمة من قوة الجذب، فندرك عن طريق الاستدلال العقلي البدهي وجود هذه القوة الزائدة في قطعة الحديد المشحونة بالمغناطيس.

فإذا كنا أدركنا بالبداهة وبالاستدلال وجود أرواحنا السارية فينا، فقد أدركنا بداهة وعن طريق الاستدلال من الآثار وجود خالق الكون العظيم (وهو الله تعالىٰ).

وكما أننا لانستطيع أن نتخيل صورة ما، لحقيقة أرواحنا وهي أدنىٰ مراحل عالم الغيب بالنسبة لنا، فكيف نستطيع أن نتخيل حقيقة ذات الله تعالىٰ؟ أونتصورها؟ ومن هنا ضلّ كثير من الناس في أبواب التوحيد والإيمان؛ لأنهم طلبوا التصور، وكان يكفيهم في هذا التّعقل، فلو وقف أحد بالباب وطرقه دون أن يتكلم أدركت بالعقل وجود شخص ما، وميّزت غالباً أنه إنسان، وليس حيواناً أو طائراً أو حشرة، عن طريق العقل، ولكن كيف تعرف أنه طويل أو قصير؟ أسود أو أبيض؟ ذكر أوأنثىٰ؟

**الوحي:** والوحي هو الطريق الوحيد لتعريفنا بحقائق الأشياء الداخلة في عالم الغيب.

من خلال ماسبق، ندرك حقاً أن عقولنا مفتقرة في إدراك الأشياء الداخلة في عالم الغيب إلىٰ معلومات خارجة عنها؛ لعلمنا أن عقولنا لاتستطيع أن تتصور أو تتخيل ،أو تحلل وتركب، إلا في حدود الأشياء التي جاءتها عن طريق الحس.

ومن ثم ينتقل بنا الحديث إلىٰ التأكد من صدق خبر الذي ينقل لنا عن عالم الغيب بعد أن اتصل به، وقد علمنا أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام صادقون بلا مرية في جميع ماينقلونه إلينا.

فلابد من أن نؤمن بما أخبروا به ونسلم تسليماً دون مناقشة أو اعتراض، وأن نقف عند حدود النص الذي نقله الرسول عن الوحي دون أن نزيد عليه شيئاً من التخيلات أوالتصورات أو التأويلات التعسفية، فإذا انكشف لنا شيء مما كان من علم الغيب المؤقت عن طريق الكشوف التي أودعها الله في هذا العالم الواسع، فإنّ هذا لا يُعدُّ مناقضة لما اختص الله به من علم الغيب؛ فإنّ من الغيب ما استأثر الله بعلمه إلىٰ الأبد، ومنه ما يطلع عليه بعضَ خلقه كالأنبياء والملائكة كما تقدم ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ ومنه: ما لا تستطيع الحواس التي في البشر أن تدركه إلا بوسائل متطورة، فإذا أدركت شيئاً من ذلك عن طريق البحث والكشوف العلمية والوسائل المتقدمة، كان ذلك جزءاً من علم الله الواسع الذي علم الله به الإنسان مالم يعلم، كالوصول إلىٰ الكواكب ، ومعرفةشيء مما فيها، أو الاتصال بالجن، أومعرفة أسباب وقرب نزول المطر عن طريق الظواهر الجوية . . إلخ.

وقد ذكر سيد قطب رحمه الله في تفسيره [في ظلال القرآن] كلاماً نفيساً في هذا، فقال عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ «والله ينزل الغيث وفق حكمته، بالقدر الذي يريده، وقد يعرف الناس بالتجارب والمقاييس قرب نزوله، ولكنهم لا يقدرون علىٰ خلق الأسباب التي تنشئه، والنص يقرر أن الله هو الذي ينزل الغيث؛ لأنه سبحانه هو المنشئ للأسباب الكونية التي تكوّنه والتي تنظمه، فاختصاص الله في الغيث هو اختصاص القدرة لما هو ظاهر من النص.

وقد وهم الذين عدوه في الغيبيّات المختصة بعلم الله، وإن كان علم الله وحده هو العلم في كل أمر وشأن، فهو وحده العلم الصحيح الكامل الشامل الدائم الذي لا يلحق به زيادة ولانقصان.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ اختصاصٌ بالعلم كالاختصاص في أمر (الساعة) فهو سبحانه الذي يعلم وحده علم اليقين ماذا في الأرحام في كل لحظة وفي كل طور، من فيض وغيض ومن حمل حتىٰ حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم، ونوع هذا الحمل ذكراً أم أنثىٰ، حين لا يملك أحد أن يعرف من ذلك شيئاً في اللحظة الأولىٰ لاتحاد الخلية والبويضة، وملامح الجنين وخواصه، وحالته واستعداداته، فكل أولئك مما يختص به علم الله تعالىٰ.. انتهىٰ[1].

ومما سبق تتلخص لدينا الحقائق التالية:

---

(١) في ظلال القرآن الكريم، جـ ٥، ص ٢٧٩٨.

(أ) إن القرآن الكريم قسّم العالم إلىٰ قسمين: عالم الغيب وعالم الشهادة، وقد ذكر الله تعالىٰ ذلك في مواضع متعددة من القرآن الكريم فقال تعالىٰ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾(٢).

ويلاحظ أن النصوص القرآنية تقدم الغيب علىٰ الشهادة، والحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ أن الأمور المغيبة عنا لاتتناهىٰ سعة ومدىً، أما الأمور التي يمكن لنا أن نتوصل إلىٰ شهودها ومعرفتها فهي أمور يسيرة قليلة(٣) قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٤).

(ب) إن عقولنا بحسب حالتها الراهنة التي فطرت عليها مفتقرة في إدراك عالم الغيب إلىٰ الوحي.

(جـ) إنه يجب علينا الوقوف في المغيبات عند النص الموحَىٰ به.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٩.

(٣) انظر الموضوع بتوسع في كتاب العقيدة الإسلامية للدكتور عبدالرحمن حبنّكه جـ١، ص ١١ ـ ٢٨.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

وتلخيصاً لما سبق فمن الممكن تقسيم الغيب باعتبار آخر إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ علم غيب لا يعلمه إلا الله مطلقاً مثل وقت قيام الساعة، وأمر الروح.

٢ ـ علم غيب لا يعلمه إلا الله ولكن قد يُعلمُ الله به من شاء من خلقه كالملائكة والرسل قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(١).

٣ ـ علم غيب مؤقت: لا يعلم إلا بوسائل كشفه كعلوم الفضاء والميكروبات الدقيقة والأجنّة إلخ . .

**أثر الإيمان بالغيب في حياة الفرد والمجتمع:**

إن السمة الأولى للمتقين، هي التي تجمع بين الإيمان بالغيب والقيام بالفرائض والواجبات، والإيمان بالرسل كافة ومايدعون إليه، واليقين بعد ذلك بالآخرة، وهذا هو التكامل الذي تمتاز به العقيدة الإسلامية ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، فلا تقوم حواجز الحس دون الاتصال بين أرواحهم والملأ الأعلى وسائر ماوراء الحس من حقائق وقوى وطاقات وخلائق وموجودات.

والإيمان بالغيب: هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيجتاز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ماتدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيّز الصغير المحدد الذي

---

(١) سورة الجن، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

تدركه الحواس، أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس، فليس من يعيش في الحيّز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته، ويمكن أن نلخّص آثار الإيمان بالغيب في الفرد والمجتمع فيما يلي:

١ ـ إنه الصفة الأولى من صفات المتقين التي افتتح الله بها سورة البقرة، وستظهر هذه الآثار بإسعاد الفرد والمجتمع ممن يؤمن بالغيب في حياته الأولى والآخرة.

٢ ـ صيانة الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بمالم تخلق له، ومالم توهب القدرة للإحاطة به.

٣ ـ طمأنينة النفس واستقرارها، وعدم تعريض النفس والعقل للبلبلة والاضطراب والضلال عند محاولة تفسير الغيب وأسرار الكون من خلال التصورات المحدودة.

٤ ـ إن في النفس الإنسانية جانباً لايملؤه إلا الإيمان مهما بلغ الإنسان تقدماً في جانب الحضارة المادية، فالسعادة هي في طمأنينة النفس واستقرارها، وليست في حضارتها المادية المجردة فـ[السويد] مثلاً من أرقى دول العالم حضارة ولكننا نجد نسبة الانتحار فيها من أعلى النسب في العالم، كما تدل عليه بعض الإحصاءات المتخصصة.

٥ ـ إن الإيمان بالغيب يبعث على العمل والنشاط في جميع أوجه الحياة، فيسعى المؤمن لإقامة موازين العدل في الأرض، ويصبر على متاعب الحياة طلباً لما عند الله من الأجر والثواب في الدار الآخرة.

هذه لمحة سريعة عن الإيمان بالغيب وأثره في حياة الفرد والمجتمع.

**الموضوع السابع: البعث والجزاء:**

قبل أن أتحدث عن البعث الذي هو الإحياء بعد الموت يوم القيامة، سأتحدث عن معاني البعث التي وردت في القرآن الكريم كما ذكرها كثير من المفسرين، أصحاب كتب الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، فقد ذكر العلماء أن البعث في القرآن على ستة أوجه، كما ذكره ابن الجوزي في نزهة الأعين النواظر، وهي :

**الأول:** الإلهام ومنه قوله تعالى : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(١) .

**الثاني:** الإحياء بعد الموت، ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾(٢) ، وقوله تعالى : ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾(٣) .

**الثالث:** الإيقاظ من النوم ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾(٥) .

**الرابع:** التسليط، ومنه قوله تعالى في بني إسرائيل : ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾(٦) .

---

(١) سورة المائدة، الآية : ٣١ .
(٢) سورة البقرة، الآية : ٥٦ .
(٣) سورة البقرة، الآية : ٢٥٩ .
(٤) سورة الأنعام، الآية : ٦٠ .
(٥) سورة الكهف، الآية : ١٢ .
(٦) سورة الإسراء، الآية : ٥ .

الخامس: الإرسال، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾(٢) .

السادس: النّصْبُ، ومنه قوله تعالى ﴿ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾(٣)، أي انصب لنا، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾(٥) .

والبعث والجزاء من الموضوعات المهمة التي شغلت الفكر الإنساني منذ القدم، وتصارعت فيها الأفكار بين السلب و الإيجاب، والبشرية بما هو مرتكز في فطرتها من حب البقاء تقاوم فكرة العدم المحض، لأنها تحس بالحسرة الصارخة عندما تختنق فيها بواعث الأمل باستمرار هذه الحياة الدنيا، فهي ترى مظاهر الموت على قدم وساق حيث تسلب الحياة من هذه الأجساد، ثم لا تلبث الأجساد، أن تتحول إلى رفات ثم تتحلل إلى ذرات، فإذا كان مصير الإنسانية إلى هذا الفناء الرهيب، فما أبشعها من حياة محوطة بالمخاطر بين لحظة وأخرى، إنها رحلة تشدها الأحاسيس والمدارك إلى حفرة رهيبة في نهاية المطاف، فتصبح فيها الأجساد رمة عفنة ينهشها الدود من كل مكان.

وقد جاءت الأديان السماوية مؤكدة الحياة الأخرى بعد الموت، وجعلت مصير كل إنسان مرتهناً بما قدمت يداه في الحياة الدنيا، وبذلك

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.
(٢) سورة الجمعة، الآية: ٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.
(٥) سورة النساء، الآية: ٣٥.

عاد للإنسانية نوع من الطمأنينة إذا هي آمنت بربها وما جاءت به رسله، وقدمت عملاً صالحاً تسعد به في حياتها الأخرىٰ.

وإذا كانت جميع الأديان السماوية تدعو للإيمان بالحياة الأخرىٰ والبعث بعد الموت، فقد كانت هذه الأديان تكل المؤمن إلىٰ إيمانه الذي يفترض عليه التصديق بكل ما جاءت به رسل الله عليهم الصلاة والسلام من أنباء الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالىٰ، وختمت تلك الرسالات برسالة الإسلام الخالدة، وهي الرسالة العالمية وليس بعدها رسالة تبين للناس ما يختلفون فيه، وما يستجد من حياتهم العقلية والحضارية، فلابد من أن تكون براهينها قائمة علىٰ ماجاءت به من مبادئ وقيم؛ لأن الجدل مرتكز في بني الإنسان جبلة وطبعاً **(وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً)** (١)، ولماكان الإقناع بحياة أخرىٰ بعد الموت من الأمور التي تشغل الفكر الإنساني، فقد جاء القرآن الكريم وافياً بالأدلة والبراهين القاطعة علىٰ البعث والجزاء وعرض ذلك في نماذج حية، وضمنها شبه المنكرين للبعث، ولم يتركها تمر دون مناقشة لها بالمنطق الصحيح، وإبطال الشبه والملابسات بالبراهين العقلية التي تزيل فكرة الفناء الأبدي، وتعيد للإنسانية طمأنينتها وتدفعها للعمل، وتحيي فيها آمال التسابق في الدرجات العلا في حياة أفضل.

**منكرو البعث من الطبائعيين والماديين:**

وقبل أن نتحدث عن منهج القرآن الكريم في إثبات البعث والجزاء، نريد أن نعرف أنّ الإنكار ممتد في الأمم الماضية عبر القرون

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٤.

والأعصار، وأن الفلاسفة الطبيعيين أنكروا ذلك، ونريد أن نعرف بوجه عام الشبهات التي يستمسك بها كل منكر للبعث، وليس لدينا بالنسبة للأمم الماضية سجل تأريخي أصدق من القرآن الكريم، وقد حدثنا القرآن عن صدور الإنكار والاستبعاد من تلك الأمم المكذبة لرسلها فقال تعالىٰ: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(١) .

وقال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(٢) .

ووجه الاستدلال من هذه الآيات علىٰ تكذيب الأمم السابقة بالبعث، أن السياق من أول السورة يتعلق بالمكذبين بالبعث من قوله تعالىٰ حكاية عنهم: ﴿ لَقَدْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ ، ثم قال: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ، وإن كان اللفظ يدل علىٰ مطلق التكذيب من الأمم المذكورة لرسلها، إلا أن التكذيب بالبعث يدخل في ذلك دخولاً أولياً؛ لارتباطه بسياق الآيات التي قبله والتي

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٨١ ـ ٨٢.
(٢) سورة ق، الآية: ١٢ ـ ١٥.

بعده، فالمنكرون للبعث هم الكفرة المنكرون لوجود الله، والفلاسفة الذين يطلق عليهم الإمام الغزالي «الطبيعيّون» وهم الماديون الذين لا يؤمنون بما وراء المادة فيقولون: «بطن تدفع وأرض تبلع ومايهلكنا إلا الدهر».

والطبيعيون كما يقول الغزالي: «قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان، والنبات وأكثروا الخوض في علم التشريح لأعضاء الحيوانات فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها، ولا يطالع علم التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا يحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير المباني لبنية الحيوان، لاسيما الإنسان، إلا أنّ هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة، ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضا وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا، فذهبوا إلي أن النفس تموت ولا تعود، فجحدوا الآخرة وأنكروا الجنة والنار والحشر والنشر والقيامة والحساب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب فانحل عنهم اللجام وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام»[1].

(١) المنقذ من الضلال للغزالي، ص ٧٦ ـ ٧٧.

وكلام الغزالي وارد على الطبيعيين من الفلاسفة القدماء؛ لأنه قسّم الفلاسفة إلى ثلاثة أقسام: الدهريون، والطبيعيون، والإلهيون.

فالدهريون: هم الذين جحدوا وجود الصانع المدبر، وهؤلاء هم الزنادقة.

والطبيعيون: «اعترفوا بالصانع، لما رأوا في عجائب الطبيعة من تناسب محكم لا يمكن أن يكون وليد المصادفة، ولكنهم رأوا أن النفس تابعة للبدن ولذلك تفنى بفنائه» ولا يمكن أن تعود.

الإلهيون: وهم المتأخرون منهم مثل «سقراط» و «أفلاطون» و«أرسطوطاليس».

قال الغزالي: «وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين الدهرية والطبيعية، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾[١] بتقاتلهم»[٢].

أما الطبيعيون من العرب، فإنه لم يكن عندهم في إنكار البعث منطق جدلي فلسفي، وليس لديهم من دليل سوى الاستبعاد والإنكار، ولهذايقول قائلهم:

حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمرو[٣]

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

(٢) انظر المنقذ من الضلال ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٣) الملل والنحل للشهرستاني، ج-٢، ص ٢٣٧.

وقال الآخر في رثاء أهل بدر من المشركين :

**فماذا بالقليب قليب بدر من الشّيزى تكلل بالسنام**

**يخبرنا الرسول لسوف نحيا وكيف حياة أصداء وهام(١)**

واعلم أن مسألة البعث مسألة بالغة الصعوبة لدى كل متشكك فيما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأنه لابد من أن ينضم إلى أدلة البعث الإيمان بما أخبرت به الرسل، فإن مجرد الاستدلال العقلي وإن دلّ على ذلك أوقال بإمكانه، فهو لايكفي لاقتحام تلك المنطقة الغيبية، ومعرفة ما تنطوي عليه مظاهرالحشر والنشر والحساب والجنة والنار، فلابد من الرجوع إلى ماجاءت به الرسل وبذلك تقوم الأدلة العقلية على إمكان البعث وتحقق وقوعه.

والقرآن الكريم هو كتاب الله الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ يرد على جميع المنكرين للبعث مهما اختلفت بيئاتهم أوتنوعت أساليبهم، يرد عليهم بمنطق الحجة والبرهان، ويقيم البراهين الحسية والعقلية على المعاد.

**منهج القرآن في استدلاله على إمكان البعث وتحقق وقوعه:**

ولقد نهج القرآن الكريم في استدلاله على إمكان البعث، وتحقق وقوعه منهجاً قويماً يجمع بين ما فطرت عليه النفوس من الإيمان بما تشاهد وتحس ويقع منه تحت تأثير السمع والبصر، وبين ماتقرره العقول

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج-٢، ص ٥٣٦.

السليمة ولايتنافى مع الفطر المستقيمة، وتلك طريقة تميز بها القرآن الكريم مما لاتجده في كتب الحكمة النظرية.

وكان منهج القرآن في استدلاله على البعث كما يلي:

**أولاً:** الاستدلال على البعث بمن أماتهم الله ثم أحياهم، كما أخبر الله تعالى عن ذلك ومنهم:

١ ـ قوم موسى قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

وقيل: إن الذين أخذتهم الصاعقة هم السبعون الذين اختارهم موسى، ذلك أنه لما أسمعهم كلام الله تعالى قالوا بعد ذلك (لن نؤمن لك)، والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم، فأرسل الله إليهم ناراً من السماء فأحرقتهم، ثم دعا موسى ربه فأحياهم كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾(٢).

٢ ـ المضروب بعضو من أعضاء البقرة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٥ـ ٥٦.

(٢) انظر تفسير القرطبي، جـ ١ ص ٤٠٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٧٢ ـ ٧٣.

قال المفسرون: إن المقتول ضرب بعضو من أعضاء تلك البقرة التي أمرهم الله أن يذبحوها كما قال موسى لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فلما ضرب به حَيِيَ وأخبر بقاتله، ثم عاد ميتاً كما كان(١).

٣ ـ الذين أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾(٢)، وهؤلاء قوم من بني إسرائيل وقع فيهم الوباء ففروا هاربين، قال ابن عباس: «كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون وقالوا نأتي أرضاً ليس بها موت فأماتهم الله تعالى فمر بهم نبي فدعا الله فأحياهم»(٣).

٤ ـ ما حصل لعزير كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤).

والذي مر على القرية هو «عزير» عليه السلام قال ابن كثير في تفسيره: «وهذا هوالقول المشهور»، والقرية المشهورة هي بيت المقدس مر عليها عزير بعد تخريب بختنصّر لها وقتل أهلها»(٥).

---

(١) انظر تفسير القرطبي، جـ ١، ص ٤٥٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.
(٣) انظر القرطبي جـ ٣، ص ٢٣٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.
(٥) انظر تفسير ابن كثير جـ ١، ص ٣١٤.

٥ ـ سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١] .

وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم عليه السلام هذا أسباباً منها: أنه لما قال للنمرود: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾، أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة.

أما قوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ فقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أوثقهن فلمّا أوثقهنّ ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن، ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزّقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أربعة وقيل: سبعة. قال ابن عباس وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام، فإذاقدّم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته»[٢] .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ،جـ١، ص ٣١٥ .

٦ ـ ما أخبر الله به عن عيسىٰ عليه السلام من أنه كان يحيي الموتىٰ بإذن الله كما قال تعالىٰ : ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(١) .

٧ ـ ما أخبر الله به من قصة أصحاب الكهف ، كما قال تعالىٰ : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾(٢) .

إن هذه الأدلة المتقدمة أدلة مادية حسية ، وقعت كلها لتدل علىٰ إحياء الموتىٰ بعد مماتهم ، وهذا برهان قطعي علىٰ القدرة الإلهية ، وقد أخبر الله ورسله عن وقوع البعث والحشر فوجب القطع بذلك ؛ لأنه أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته .

ثانياً : الاستدلال علىٰ البعث بالنشأة الأولىٰ ، ومن الآيات الدالة علىٰ ذلك ما يلي :

١ ـ قال تعالىٰ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٤٩ .

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٩ ـ ١٠ .

من كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾(١) .

في هذه الآيات دليلان على إمكان البعث، أحدهما دليل في الأنفس والآخر دليل في الآفاق، فأما الدليل الذي في الأنفس فهو ماشتمل عليه صدر الآية وهو متعلق بالنشأة الأولى، وأما الدليل الآفاقي فهو قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، وهو الاستدلال بخلق النبات على إمكان البعث كما سيأتي، وإنما أوردنا الاستدلالين لترتب النتائج الخمس المذكورة بعدهما عليهما، وقد اشتمل الدليلان على مقدمات صحيحة على إمكان البعث، والدليلان هما:

(أ) الاستدلال بخلقة الحيوان أولاً وهو موافق لما أجمله الله في قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(٢)، وقوله ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (٣) ، فكأنه سبحانه وتعالى قال: إن كنتم في ريب مما وعدناكم من البعث فتذكروا في خلقتكم الأولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولاً قادر على خلقكم ثانياً(٤) .

(ب) الاستدلال بحال خلقه النبات على ذلك وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ إلخ، ثم إنه سبحانه لماقرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة، وذكر أموراً خمسة:

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥ ـ ٧.
(٢) سورة يس، الآية: ٧٩.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥١.
(٤) الفخر الرازي، جـ ٢٣، ص ٧.

١ ـ قوله تعالىٰ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ والحق هو الموجود الثابت فكأنه سبحانه بيّن أنّ هذه الوجوه دالة على وجود الصانع ، وحاصلها راجع إلىٰ أن حدوث هذه الأعراض المتنافية ، وتواردها على الأجسام دليل علىٰ وجود الصانع .

٢ ـ قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ فهذا تنبيه علىٰ أنه لما لم يستبعد من الإله إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات؟!

٣ ـ قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني أن الذي يصح منه إيجاد هذه الأشياء لابد من أن يكون واجب الاتصاف لذاته بالقدرة ، ومن كان كذلك كان قادراً علىٰ جميع الممكنات ، ومن كان كذلك فإنه لابد أن يكون قادراً علىٰ الإعادة .

٤ ـ قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ والمعنىٰ أنه لما أقام الدلائل علىٰ أن الإعادة في نفسها ممكنة ، وأنه تعالىٰ قادر علىٰ كل الممكنات ، وجب القطع بكونه قادراً علىٰ الإعادة في نفسها ، وإذا ثبت الإمكان وأخبر الصادق عن وقوعه وجب القطع بوقوعه[١] .

٥ ـ قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ ؛ لأنه خبر ممن ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته فوجب القطع بوقوعه أيضاً .

قال الفخر الرازي : «واعلم أن تحرير هذه الدلالة علىٰ الوجه النظري أن يقال : الإعادة في نفسها ممكنة والصادق أخبر عن وقوعها فلابد من القطع بوقوعها»[٢] .

---

(١) الفخر الرازي مع بعض التصرف ج ـ ٢٣ ، ص ٩ ـ ١٠ .

(٢) الفخر الرازي مع بعض التصرف جـ ٢٣ ص ١٠ .

٢ ـ قوله تعالىٰ : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1] .

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة، جاء أبي ابن خلف لعنه الله، إلىٰ رسول الله ﷺ، وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء يقول: يامحمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال رسول الله ﷺ: «**نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار**»، ونزلت هذه الآيات من آخر يس .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتته بيده ثم قال لرسول الله ﷺ ،أيحيي هذه الله بعدما ترىٰ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم**» ونزلت الآيات من آخر يس .

وسواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أوالعاص أو فيهما ،فهي عامة في كل من أنكر البعث، ذكره ابن كثير[2] .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في قول الله تعالىٰ حكاية عن منكر البعث: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ قال: إنه قياس حذفت إحدىٰ مقدمتيه لظهورها والأخرىٰ سالبة كلية قرن معها دليلها وهوالمثل المضروب الذي ذكره بقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي

---

(١) سورة يس، الآية: ٧٨ ـ ٧٩ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣، ص ٥٨١ .

﴿الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ، وهذا الاستفهام إنكار متضمن للنفي أي لا أحد يحيي العظام وهي رميم ؛ فإن كونها رميماً يمنع عنده إحياءها لمصيرها إلى حال اليبس والبرودة المنافية للحياة التي مبناها على الحرارة والرطوبة ، ولتفرق أجزائها واختلاطها بغيرها ، ولنحو ذلك من الشبهات .

والتقدير : هذه العظام رميم ولا أحد يحيي العظام وهي رميم فلا أحد يحييها ، ولكن هذه السّالبة كاذبة ومضمونها امتناع الإحياء ، فبين سبحانه إمكانه من وجوه ببيان إمكان ماهو أبعد من ذلك وقدرته عليه فقال : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وقد أنشأها من التراب ، ثم قال : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ليبين علمه بما تفرق من الأجزاء أو استحال[١] .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾[٢] .

إن شبهات المنكرين للبعث تكاد تكون متجانسة ؛ لأنها تدور حول استبعاد جمع الأجزاء بعد تفرقها وإعادة الحياة إليها بعد فنائها ، وهذه الشبه لاتكون إلا بالقدح في كمال علم الله المحيط بكل شيء ، وكمال

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ ١ ، ص ٣٣ مطبعة دار الكتب ١٩٧١ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٤٩ ـ ٥١ .

قدرته على كل شيء ، وقد قام البرهان على كمال العلم والقدرة لله تعالى ، فلا وجه للاستبعاد والاستغراب بعد ذلك ، وفي قوله تعالى : ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ يعني به أنكم مهما تفرقتم وعلى أية حال كنتم فالله قادر على بعثكم وإعادتكم ، حتى لو تحولتم إلى حجارة أو حديد ، فالله قادر على إعادة الحياة إليكم مرة أخرى ، مع أ ن المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظم وبين قبول الحياة ، وذلك أن العظم قد كان جزءاً من بدن الحي ، أما الحجارة والحديد فما كانا موصوفين بالحياة البتة .

وفي قوله : ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ استدلال بالنشأة الأولى على الثانية وهذا هو الشاهد من الآية ، أما قولهم : (متى هو؟) فهو سؤال فاسد كما ذكره الرازي ؛ لأنهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي حكيناها ، ثم إن الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكناً في نفسه ، فقولهم : متى هو؟ كلام لا تعلق له بالبحث الأول ، فإنه متى ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بإمكانه ، فأما أنه متى يوجد فذلك لايمكن إثباته من طريق العقل ، بل إنما يمكن إثباته بالدلائل السمعية ، فإن أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عُرفَ وإلا فلا سبيل إلى معرفته[١] .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٢] في هذه الآية

---

(١) انظر الفخر الرازي ، جـ ٢٠ ، ص٢٢٦ .

(٢) سورة الروم ، الآية ٢٧ .

استدلال على البعث بالقياس الأولوي، وفي قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ضرب مثل؛ لأنه لا يوجد بالنسبة لله تعالى شيء هو أسهل وشيء هو أصعب، وإنما المقدورات عندنا نحن متفاوتة في العسر واليسر باختلاف القدرة التي تزيد وتنقص في حقنا، ولما كان إيجاد شيء لا من شيء مستحيلاً منا، وإيجاد شيء من شيء ممكناً استعار كلمة أفعل، وضرب ذلك مثلاً، ولما استحال في حقه العجز والضعف عن إيجاد شيء لا من شيء قال: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾ وذلك مطرد في سائر صفاته سبحانه من العلم والقدرة والحياة والرحمة والرضى والغضب، وكل صفة وصف بها الإنسان من ذلك فإن لله تعالى من ذلك ما يليق بجلاله وعظمته، وللمخلوق ما يليق بعجزه وضعفه.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾(١).

بهذا المنطق الصحيح والبرهان القاطع يرد القرآن الكريم على ذلك المنكر ويجادله في أسلوب هادئ محكم، فيلزمه الحجة الواضحة في أقل من نصف سطر، وفي الآية كما ترى استدلال على المعاد بالنشأة الأولى.

ثالثاً: الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأكوان، مثل السموات والأرض، فإن خلقها أعظم من خلق الإنسان، ومن الآيات الدالة عليه مايلي:

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٦ ـ ٦٧.

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾(١) .

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾(٢) .

٣ ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣) .

وجميع الآيات السابقة وما في معناها من الآيات أكبر برهان على قدرة الله المطلقة التي لاتقيد بقيود ولا تنتهي عند حدود ، فإن تلك الآيات الكونية مما هو معروف ببداهة العقول أنّ خلقها أعظم من إعادة خلق الإنسان .

رابعاً: الاستدلال على إمكان البعث بخلق النباتات المختلفة ومن الآيات ما يلي :

١ ـ قوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٤) .

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٨ ـ ٩٩ .

(٢) سورة يس، الآية: ٨١ .

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٣ .

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٧ .

٢ ـ قوله تعالىٰ : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾(١)

٣ ـ قوله تعالىٰ : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢) .

٤ ـ قوله تعالىٰ : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٣) ، وقوله تعالىٰ ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(٤) .

وفي هذه الآيات السابقة استدلال بتبدل أحوال النباتات من حياة إلىٰ موت فحياة ، وسلب خاصية النشوء والنماء في بعض النباتات فتهمد وتتفتت ثم تسقىٰ بالماء فتعود إليها تلك الخاصية ، فلو كان مستحيلاً إعادة الحياة إلىٰ الإنسان مرة أخرىٰ لما عادت الحياة إلىٰ النباتات المختلفة بعد موتها ؛ لأن المشابهة واضحة في القدرة الإلهية في إعادة الحياتين سيرتهما الأولىٰ ، ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار المنكرين إلىٰ التبصر في الموجودات الحسية واستنتاج العظات والعبر منها ليعود للنفس إيمانها فتسعد بالطمأنينة والاستقرار ، وقد تقدمت المشابهة بين إعادة الحياة إلىٰ النبات بالمطر وإعادة بناء الأجساد وإنباتها بالمطر الذي يجعله الله عند البعث ، وهو مطر كمني الرجال فتنبت منه الأجساد .

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ٩ .
(٢) سورة فصلت ، الآية : ٣٩ .
(٣) سورة الرعد ، الآية : ٤ .
(٤) سورة الرعد ، الآية : ٥ .

وفي قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ الآية، إشارة إلى أن العجب يكون من إنكارهم لا من البعث، ومعناه: إن كان لك عجب من شيء فمن إنكارهم البعث، فاعجب؛ لأن العجب مما ندر وجوده وخفي سببه، وليس البعث مما ندر، وهم يشاهدون إحياء الأرض بعد موتها، واكتساء الأشجار بعد عريها، وعود النهار بعد زواله، والليل بعد ذهابه، وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، ولا مما خفي سببه فإن الله سبحانه هو الفاعل لذلك والمخترع له والقادر عليه، وحكمته إظهار ما استتر عن خلقه من تدبيره، وما النشأة الثانية بأعجب من الأولى(١) .

خامساً: الاستدلال على إمكان البعث بحصول أحد المتضادين ، فإن الإحياء بعد الموت يستنكر من حيث إنه يحصل الضد بعد حصول الضد، إلا أن ذلك غير مستنكر في قدرة الله تعالى؛ لأنه لما جاز حصول الموت عقيب الحياة فكيف يستبعد حصول الحياة مرة أخرى بعد الموت؟ فإن حكم الضدين واحد، قال تعالى مقرراً لهذا المعنى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾(٢) .

سادساً: الاستدلال على البعث والإعادة بإخراج النار من الشجر الأخضر:

١ ـ قال تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾(٣) .

---

(١) انظر استخراج الجدال من القرآن الكريم لابن الحنبلي مخطوطة ص ١٤ .

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٦٠ .

(٣) سورة يس، الآية: ٨٠.

٢ ـ قال تعالىٰ : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾(١) .

وفي الآيتين السابقتين استدلال بتوليد النار مع حرها ويبسها من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته .

قال الفخر الرازي في قوله تعالىٰ : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ الآية : «ووجهه هو أنّ الإنسان مشتمل علىٰ جسم يحس به حياة سارية فيه وهي كحرارة جارية فيه ، فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه فإنّ النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب ، وأنتم تحضرون حيث منه توقدون ، وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فإن الله خلق السموات والأرض»(٢) ، وفي هذا عبرة عظيمة ، فإن الله تعالىٰ جمع في الشجر الأخضر بين الماء والنار والخشب فلا الماء يطفيء النار ولاالنار تحرق الخشب .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ الآيات ، إما أن يراد من شجرة النار الشجرة التي توري النار منها بالزند والزندة كالمرخ والعفارّ ، أو يراد بها الشجرة التي تصلح لإيقاد النار كالحطب ، فإنها لو لم تكن لم يسهل إيقاد النار ، ووجه دلالة النار علىٰ البعث أن النار تكمن في الشجر والحجر ، ثم تظهر بالقدح وتشب بالنفخ ، فالحجر ، والشجر كالقبر والقدح والنفخ كالنفخة في الصور .

---

(١) سورة الواقعة ، الآية : ٧١ ـ ٧٢ .

(٢) تفسير الرازي جـ ٢٦ ، ص ١١٠ .

وقد تحدّث فلاسفة الإسلام عن إمكان البعث وأبرزوا ذلك في دراساتهم النظرية، ولكنهم يجدون بغيتهم لو أرادوا في القرآن الكريم بأوجز عبارة وأحكم برهان، ولا غرابة إذا رأينا الفيلسوف الكندي متأثراً بتلك البراهين في دراسته للتفسير من الناحية النظرية.

فقد تحدث عن الآيات التي في آخر سورة يس كما نقله عنه الأستاذ أبوريدة حيث قال في تفسير الكندي لهذه الآيات، « إن فيه يبرز فيلسوفنا الأصول النظرية التي تتضمنها هذه الآيات من جهة، ويستخرج النتائج التي تلزم عنها من جهة أخرىٰ » وهي :

١ ـ وجود الشيء من جديد بعد كونه وتحلله السابقين ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة، لاسيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه عن عدم، وإن كان لايوجد بالنسبة لله شيء هو أسهل وشيء هو أصعب، هذا الدليل موجود في الآيات في كلمات قليلة : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ .

٢ ـ ظهور الشيء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن واقع تحت الحس، وإذن يمكن أن تدب الحياة في الجسد المتحلل الهامد مرة أخرىٰ، وذلك أيضاً علىٰ أساس المبدأ الأكبر وهو : أن الشيء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق، هذا الدليل موجود في آية ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ وقد انتفع به الأشعري في إمكان البعث.

٣ ـ خلق الإنسان أو إحياؤه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن وهذا هو مضمون آية ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ .

٤ ـ الخلق والفعل مطلقاً مهما عظم المخلوق لا يحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان، خلافاً لفعل البشر الذي لايتم إلا في زمان ويحتاج إلى مادة تكون موضوع الفعل وهذا معنى آية : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

وهذه الآية في رأي الكنْدي إجابة عما في قلوب الكفار من النكير بسبب ظنهم أن الفعل الإلـٰهي المتجلي في خلق العالم الكبير يحتاج إلى زمان يناسب عظمته قياساً منهم لفعل الله على فعل البشر، لأن فعل البشر لما هو أعظم يحتاج إلى مدة زمانية أطول، فجاءت الآية حاسمة في بيان نوع الفعل الإلـٰهي، وأنه إبداع بالإرادة الخالقة والقدرة المطلقة لايحتاج إلى مادة ولا إلى امتداد زماني .

فأي بشر ـ كما يقول الكنْدي ـ يقدر بفلسفة البشر أن يجمع في قول بقدر حروف هذه الآيات ما جمع الله جلّ وتعالى إلى رسوله ﷺ فيها من إيضاح أن العظام تحيى بعد أن تصير رميماً، وأنّ قدرته تخلق مثل السموات والأرض، وأنّ الشيء يكون من نقيضه؟! كلّت عن ذلك الألسن المنطقية المتحايلة، وقصرت عن مثله نهايات البشر، وحجبت عنه العقول الجزئية(١) .

(١) رسائل الكنْدي ص ٥٧ ـ ٥٨ والتعبير بالعقول الجزئية موافق لفلسفته إلخ .

سابعاً: الاستدلال على إمكان البعث بأنّ اختلاف الناس في الدنيا لايرتفع «واختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه» فوجب أن يكون هنا معاد ينحسم فيه النزاع، ولايكون ذلك إلا بين يدي الحي القيوم، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾(١).

وقد أورد السيوطي في الإتقان قول ابن السيد في الآيتين السابقتين: «وتقريرهما أن اختلاف المختلفين في الحق لايوجب انقلاب الحق في نفسه، وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه، والحق في نفسه واحد، فلما ثبت أن ها هنا حقيقة موجودة لا محالة وكان لاسبيل لنا في حياتنا إلى الوقوف عليها وقوفاً يوجب الائتلاف ويرفع عنا الاختلاف، إذ كان الاختلاف مركوزاً في فطرنا، وكان لايمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الجبلة ونقلها إلى صورة غيرها، صح ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة، فيها يرتفع الخلاف والعناد، وهذه هي الحالة التي وعد الله بالمصير إليها فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾(٢) أي حقد، فقد صار الخلاف الموجود كما ترى أوضح دليل على كون البعث الذي ينكره المنكرون»(٣).

فكل خصومة لابد لها من منتهى في موقف ينقطع فيه الجدال بالباطل ويذهب فيه عنفوان المكابرة والعناد، وهذا الشعور الوجداني

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٣) الإتقان للسيوطي، جـ ٤، ص ٥٤.

هو الذي يشعر به كل مظلوم وينتظر ساعة الفصل العادلة إذ لم يحصل علىٰ إنصافه في الدنيا «وعند الله تجتمع الخصوم».

ثامناً: الاستدلال علىٰ البعث بأنّ حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء.

فإن الله تعالىٰ لم يخلق الناس عبثاً ولن يتركهم سدىٰ قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾(١) .

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾(٢)، فعدل الله وحكمته وإحقاقه الحق وإبطاله الباطل، وإعطاؤه كلّ ذي حق حقه وتمييزه بين الخبيث والطيب والمحسن والمسيء، كل ذلك يأبىٰ إلا أن يكون هناك يوم آخر بعد نهاية الدنيا ينال فيه كل إنسان جزاءه وما يستحقه من الثواب والعقاب علىٰ ماقدم من خير أو شر.

فإننا نرىٰ أناساً يفارقون الدنيا وهم ظالمون لم يُقتص منهم، ونرىٰ أناساً آخرين يفارقون الدنيا مظلومين لم ترد إليهم مظالمهم، ونرىٰ أشراراً في الدنيا منعمين، ونرىٰ أخياراً فيها معذبين، فإذا ذهب كل إنسان بما فعل، إن ظالماً أو مظلوماً، محظوظاً أو مهضوماً كان ذلك خدشاً في عظمة الألوهية وعدلها وقضائها، فلابد إذن من يوم يحضر الجميع فيه بين يدي الله؛ ليقتص من الظالم للمظلوم؛ ولينال كل من

---

(١) سورة القيامة، الآية: ٣٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

المحسن والمسيء جزاءه كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾(١) .

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٢) ، ولهذه المعاني قال بعض الحكماء: «ثبت أنّ الله عز وجل حكيم والحكيم لا ينقض ما بنى إلا لحكمة أتم من حكمة النقض، ولا يجوز أن تكون أنقص ولا مماثلة على ما لا يخفى»(٣) .

**تاسعاً:** الاستدلال على البعث بحصول اليقظة بعد النوم، فإن النوم أخو الموت واليقظة شبيهة بالحياة بعد الموت.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم ذكر عقب أمر الموت والبعث فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾(٤) ، وقال تعالى في آية أخرى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٥) .

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢١.
(٣) استخراج الجدال من القرآن، ص ١٤.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦٠ـ٦٢.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

والمراد منه الاستدلال بحصول هذه الأحوال على صحة البعث والحشر والنشر كما ذكره الرازي وغيره[١] .

هذه لمحة موجزة عن إمكان البعث وتحقق حصوله في ضوء القرآن الكريم .

أما عن مظاهر الحشر والنشر والحساب والجزاء، وما أعد الله لأوليائه في الجنة، وما أعد للكافرين في النار، فإنّ هذه موضوعات واسعة تحدثت عنها مئات الآيات من القرآن الكريم، ويمكن أن نجمل بعض هذه الموضوعات في مايلي :

**(أ) أسماء اليوم الآخر:**

ورد في القرآن الكريم تسمية اليوم الآخر بعدة أسماء أخذاً مما يجري فيه ومنها مايلي :

١ - **يوم البعث:** لأن البعث إلى الحياة الجسدية بعد الموت قال تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾**[٢] .

٢ - **يوم الخروج:** لأن فيه خروج الناس من قبورهم إلى الحياة الأخرى كما قال تعالى : **﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾**[٣] .

---

(١) انظر تفسير الرازي جـ ١٧ ، ص ١٨ .
(٢) سورة الروم ، الآية : ٥٦ .
(٣) سورة ق ، الآية : ٤٢ .

**٣ ـ يوم الفصل:** لأن فيه الفصل بين الناس بالعدل ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١) .

وهكذا يسمىٰ يوم القيامة ، ويوم الدين ، ويوم الحشر ، ويوم الحساب ، ويوم الوعيد ، ويوم الخلود ، إلىٰ غير ذلك من الأسماء التي وردت في القرآن الكريم ، ملاحظ فيها التسمية باليوم أخذاً من الظرف الزماني المرافق لهذه الحياة الثانية . وقد جاءت أسماء أخرىٰ ، ملاحظ فيها التسمية بالدار أخذاً من الظرف المكاني المستلزم لهذه الحياة المادية الثانية وفيها : الدار الآخرة ، دار القرار ، ودار الخلد .

كما وردت أسماء أخرىٰ ، ملاحظ فيها معنىٰ تحقق وقوع ذلك اليوم ، أو ملاحظ فيها ما يجري فيه من أحداث جسيمة ، ومن هذه الأسماء : الواقعة ، والحاقة ، والقارعة ، والغاشية ، والآزفة ، إلىٰ غير ذلك من الأسماء التي وردت في القرآن الكريم لليوم الآخر .

**(ب) قيام الساعة:** أخبر الله تعالىٰ بأنه ستحدث نفختان في الصور .

**النفخة الأولى** : وهي نفخة الإماتة العامة وعندها تكون ساعة إنهاء النظام القائم في الحياة الأولىٰ ، وقد جاء التعبير عن وقت هذا الإنهاء بالساعة ، ويمكن حمل قوله تعالىٰ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾(٢) . علىٰ ما يحدث في الكون من هول عند النفخة الأولىٰ .

---

(١) سورة الدخان ، الآية : ٤٠ .

(٢) سورة الحج ، الآية : ١ ـ ٢ .

**النفخة الثانية:** هي نفخة البعث إلى الحياة بعد الموت، وقد جاء التعبير عن الوقت الذي يحدث فيه البعث العام إلى الحياة بعد الموت أيضاً فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾(١).

ويدل على حدوث هاتين النفختين قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾(٢).

قال ابن عباس: الراجفة النفخة الأولى، والرادفة، النفخة الثانية(٣)، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾(٤).

(جـ) **مظاهر الحشر يوم القيامة:** ومنها، تشقق الأرض عن الخلائق فيخرجون سراعاً إلى موقف الحشر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾(٥).

ومنها، تسوية أرض المحشر فتكون بارزة لا جبال فيها ولا وديان، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾(٧).

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥٥.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٦ ـ ٧.
(٣) انظر تفسير الطبري جـ ٣، ص ٣١.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٥) سورة ق، الآية: ٤٤.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٤٧.
(٧) سورة طه، الآية: ١٠٥ ـ ١٠٧.

ومنها، حشر جميع المخلوقات من الإنس والجن والملائكة وكل دواب الأرض وطيورها.

أما حشر الإنس والجن؛ فلأنهم مكلفون، وأما حشر الملائكة، فليقوموا بوظائفهم وفق سنة الله في خلقه، وأما دواب الأرض وطيورها، فقد جاء إثبات حشرها كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(١).

**(د) العرض والسؤال والحساب والميزان:**

تحدث القرآن الكريم عن عرض الخلائق على ربهم يوم القيامة فقال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾(٣).

كما تحدث عن سؤالهم عن أعمالهم، فقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٤).

وقال تعالى في الحساب ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾(٥)، وقال تعالى عن الميزان: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٦)

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٨.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٨.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٩٢ ـ ٩٣.

(٥) سورة الغاشية، الآية: ٢٥ ـ ٢٦

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(هـ) كتب الأعمال،وشهادة الجوارح:

تنشريوم القيامة كتب الأعمال، وهي الصحائف التي سجلت فيها أعمال كل واحد من أقوال وأفعال في الحياة الدنيا، وتشهد عليه الملائكة الكرام الكاتبون الذين قاموا بوظيفة تسجيلها في الدنيا، وإظهاراً للعدل فإن هذا السجل الحافل بجميع أعمال المكلف يقرؤه يوم القيامة صاحبه، وإن لم يكن يقرأ في الدنيا قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(١).

وتشهد الجوارح على الإنسان بما عمل في الدنيا، فإذا كذب لسانهُ ختم على فمه واستنطقت جوارحه فتنطق بقدرة الله العزيز الحكيم. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٣).

(و) الجنة والنار:

الجنة: هي دار النعيم، وقد تحدث القرآن عنها بأنها مأوى المؤمنين بالله والمسلمين له، وأنها مراتب ودرجات تتناسب مع مستوى الإيمان

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٣ ـ ١٤.

(٢) سورة النور، الآية: ٢٤.

(٣) سورة يس، الآية: ٦٥.

والأعمال الصالحة التي قدمها الإنسان في الحياة الدنيا. فالله تعالىٰ جعل في الجنة لأوليائه ما تقر به أعينهم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر كما قال تعالىٰ: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

أما النار: فهي مثوىٰ الكافرين بالله، والمستكبرين عن طاعته وعبادته وهي منازل ودركات تتناسب مع مستوىٰ الكفر والإجرام.

وقد قال تعالىٰ في وصف عذاب النار ونعيم الجنة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(٢).

### الموضوع الثامن: القضاء والقدر:

(أ) القضاء: بالمدّ مصدر قضىٰ، وهو في معناه اللغوي الجامع، إتمام الشيء قولاً كان أو فعلاً أو إرادة أو غيرها. فمثال القضاء في القول قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾(٣). أي أتم نهيه عن عبادة غيره.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٧.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٦ـ١٠٨.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

ومثال القضاء في الفعل قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾(١) أي فأتم خلقهن في يومين.

ومثال القضاء في الإرادة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٢) أي إذا تمت إرادته تعالى في تكوين أمر، فإنما يأمره بكن أمرَ تخليق، فيكون ذلك المراد.

(ب) **القدر**: لغة هو تبيين كمية الشيء.

وفي الاصطلاح الشرعي للقضاء والقدر:

أن يقال: القضاء: إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على وفق ماتوجد عليه في وجودها الحادث، كإرادة الله الأزلية بخلق الإنسان في الأرض.

أما القدر، فهو إيجاد الله الأشياء على مقاديرها المحدودة بالقضاء، في ذواتها وصفاتها وأفعالها وأحوالها وأزمنتها وأسبابها. كإيجاد الله الإنسان فعلاً على وجه الأرض طبق ما سبق في قضائه سبحانه.

ويصح لنا أن نجعل كلمتي، القضاء والقدر، عنواناً مشتركاً، ونأخذ لهما مدلولاً واحداً مشتركاً، وهذا مايبدو من ظاهر الاستعمالات الشرعية لهما، إذ قد يجتمعان في الاستعمال، وقد ينفردان، والمدلول واحد.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

فمعنى القضاء والقدر معاً: هو إرادة الله إيجاد الأشياء على وجه مخصوص ثم إيجادها فعلاً على وفق المراد(١).

**حكم الإيمان بالقضاء والقدر:**

أما الإيمان بالقضاء والقدر فإنه ركن من أركان العقيدة الإسلامية، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم وغيره من حديث جبريل المشهور ومنه «فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»(٢).

وقد تحدث القرآن الكريم عن القدر بقوله ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(٣)، والمعنى أن كل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه ملتبساً بقدر قدّره الله وقضاء قضاه سبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾(٤)، وغير ذلك مما يدخل في دائرة القضاء والقدر(٥).

ولا نريد أن ندخل في تفاصيل مبحث القضاء والقدر ومذاهب الناس فيه كالقدرية، والجبرية والمعتزلة في مجال الجبر والاختيار أو خلق أفعال العباد، أو ما يسمى بالتخيير والتسيير، فإنّ هذا مبحث يطول ويكثر فيه الجدل بين أهل السنة والفرق المخالفة، ولكنّ الإنسان مسيّر إلى عين اختياره، وبتوضيح أكثر، فإن الإنسان، قد منحه الله إرادة حرّة

---

(١) العقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حبنّكه بتصرف جـ ٢، ص ٤١٥.

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان جـ ١، ص ٣٧.

(٣) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨. (٥) انظر فتح القدير للشوكاني جـ ٥، ص ١٢٩.

يملك بها الاستطاعة على توجيهها إلى شيء معيّن ضمن أشياء كثيرة يتصورها فكره، أو تشتهيها نفسه، كما يملك استطاعة تحريك قدرته لتنفيذ بعض مراداته، دون أن يملك نتائج التنفيذ، إذْ النتائج تأتي بخلق الله تعالى . ونلاحظ أن مبدأ التكليف الرباني وتقرير الحساب والجزاء الوارد في الشرائع السماوية لم يتناول غير الإنس والجن - فيما نعلم - كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(١) ، وبالبحث عن سر هذا التكليف لا نرى إلا ماخص الله به هذين النوعين من الفهم والإرادة الحرّة في دائرة ما وهبهم الله من القدرة والإرادة المحدودة .

وإرادة الإنسان ومشيئته تابعة لمشيئة الله الكونية وإرادته المطلقة ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٢) .

وخلاصة القول : أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان، وأن الله تعالى كتب مقادير الأشياء قبل وقوعها كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٣) .

والإيمان بالقضاء والقدر يحمل الرضى والقناعة والطمأنينة وإحسان التوكل على الله، حيث يعلم المؤمن أن جميع ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ومن كان هذا شأنه لم يقع فريسة للحيرة والقلق، ولا نهباً لليأس والقنوط .

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦ .

(٢) سورة التكوير، الآية: ٢٩ .

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٢ .

وفي هذا جواب لسؤال كبير، أو حل للغز خطير نجده في عقيدة القدر، فقيرٌ يصبر ولا يكفر، وغنيّ يشكر ولا يبطر، ومريض يتحمل الآلام بلا يأس، وقوي لا يطغى، ووجيه لا يستكبر.

ثم كيف يتحول الإنسان الجزوع الهلوع المنوع إلى بار شجاع كريم؟ وكيف يهدأ الفكر وينعم البال وتطمئن النفس ويسلم القلب في عالم كثرت مشاغله، وتعددت مشكلاته لولا الإيمان؟ إن في النفس البشرية جانباً لا يملؤه إلا الإيمان والتسليم لأمر الله وشرعه.

**الموضوع التاسع: الولاء والبراء:**

الولاء والموالاة، هو التأييد والنصرة.

**والولي:** من ولي الأمر، فكل من ولي أمرك فهو وليّك، وذكر بعض المفسرين أن الولي في القرآن ورد على خمسة أوجه:

**الأول:** الرّب، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾(٣).

**الثاني:** الناصر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١١١.

الثالث: الولد، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾(١) .

الرابع: الوثن ـ وهو كل ما عبد من دون الله ـ ومنه قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾(٢) .

الخامس: المانع، ومنه قوله تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(٣) ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾(٤)

ذكر هذه الأوجه الخمسة ابن الجوزي في كتابه نزهة الأعين النواظر(٥) .

فالولاء أوالموالاة هو التأييد والنصرة كما تقدم، وهو يلازم التبرؤ من الجاهلية ويكمله، فإذاكان التبرؤ هو الخروج من الكفر والشرك والمعصية والتّميز عن الكافرين المشركين العصاة، فإنّ الولاء هو الدخول في الإيمان والإسلام والطاعة، ونصرة الله ورسوله والمؤمنين . وهو في إضماره وإظهاره كالتبرؤ الذي يستكن في القلب نية ورغبة وإخلاصاً، ويظهر علي اللسان والجوارح قولاً ومعاملة وسلوكاً، في حياة الفرد والجماعة، وذلك باجتناب الحزب الذي يقوده إبليس وجنوده من الشياطين، وأعوانه من الطواغيت ثم الدخول في حزب الله الذي يدعو

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥ .

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤١ .

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧ .

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٥ .

(٥) حـ ٢، ص ٢٠٨ .

إليه ويقوده رسول الله وتتكاتف فيه أيدي المؤمنين ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(١)، حتى يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وكالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر(٢)، كما مثل لهم الرسول الكريم ﷺ.

وطريق الموالاة لله تكون باتباع كتابه الكريم، وللرسول بالاقتداء بسنته المطهرة، وللمؤمنين بمظاهرتهم مع التذلل لهم، وخفض الجناح ولين الجانب والتكافل والتضامن، وإخلاص النصح وبذل المشورة، وتفريج كربهم ومكافأة محسنهم والتجاوز عن مسيئهم، وكف ظالمهم وإنصاف مظلومهم، وتكثير سوادهم بالهجرة إليهم وإضعاف عدوهم بالخروج من بين أظهرهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾(٤).

---

(١) سورة الفتح الآية: ١٠.

(٢) انظر صحيح البخاري، جـ ٤، ص ٥٣.

(٣) سورة المائدة الآية: ٥٥ ـ ٥٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

والتقاة المذكورة، ماهي إلا رخصة يأخذ بها المؤمنون المطمئنون عند الحاجة الماسة الملزمة، والضرورة المجبرة الملجئة، وهي ضرورة تقدر بقدرها، وحاجة تقضى في حينها.

ومن الباطل في الفهم وفي التطبيق، أن يقوم بعض المسلمين بجعل التقاة أصلاً لمذهبهم يوادون به أعداء الله ويحادون أولياءه ويحسبون أنهم محسنون.

وحد الولاء والتبرؤ واضح بيّن، وإن كان كثير من الناس يتعسف في الفهم والتطبيق، ويتجاوز الحد إلى تعطيل الدعوة، أي دعوة العاصي لترك المعصية ودعوة الكافر والمشرك لترك الكفر، فإن معاداة هؤلاء ليست لذواتهم وإنما لما يتصفون به من كفر وشرك ومعصية، وطريق دعوتهم هو الإحسان في المقالة والمعاملة لإظهار محاسن الإسلام والترغيب إليه قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١).

وعلى هذا فإنّ الكلمة اللينة والمعاملة الحسنة ومجاورة الكافرين الجاهلين ومعاشرتهم ليست مشاركة في كفرهم ولا مولاة لجاهليتهم.

وكذلك بر الوالدين المشركين وحسن معاشرة الزوجة الكتابية، وكذا الصاحب في السفر والجار في الدار والشريك في التجارة

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٨ ـ ٩.

والمخالط في المهنة، كل أولئك يكون التعامل معهم بالمعروف، والدفع بالتي هي أحسن، مما يظهر محاسن الإسلام ويكون وسيلة عملية للدعوة والتأليف. ولقد كان يوسف الصديق عليه السلام وزيراً للعزيز في حكم مصر، فدعا إلى الله وأحسن إلى الناس.

وقلوب العباد مفطورة على حب من أحسن إليها، حتى تستمع إليه وتتأثر به وتنقاد له، ولقد أخبر تعالى عن رسوله الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١)، مما قربهم منه وجمعهم حوله: ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(٢)، ولولا ذلك لكان الحال كما أخبر تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(٣) وواجب الدعاة أن يقدموا الحق للناس بأحلى حاله وأبهى حلله، وأن يكون همهم تنمية الخير وتربية الفضيلة في نفوس الناس. فلرب كلمة قاسية غليظة أيقظت نوازع الشر وكوامن الفتنة، وأوقدت نار العداوة وحركت روح العناد وأرسلت ريح الحمية الجاهلية.

هذا وإن كثيراً من مسلمي اليوم في باب الولاء لفي إفراط وتفريط. ففي حين يصل الأمر ببعض المسلمين إلى حد الامتناع عن الحضارة المدنية المادية، والإفراط في بعض المسنونات والمستحبات من الأطعمة والألبسة، يصل التفريط بآخرين إلى الذوبان في إلحاد الشرق ورذائل الغرب، وفي ظل الإفراط والتفريط تقوم القومية الجاهلية هدماً

(١) سورة القلم، الآية: ٤.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

للدين وحرباً على المسلمين، وتعلن بعض الحكومات علمانيتها علناً ، إرضاءً لأعداء الله من الغرب أو الشرق ، وتخفي كل ماهو إسلام أوتنقصه حفاظاً على تقدميتها الزائفة .

وقد سيقت المرأة المسلمة وراء المرأة الغربية في زيها وتبرجها ولهثها خلف بيوتات الأزياء ومستحضرات التجميل .

كما سيق الشباب المسلم وراء التافهين الضائعين من دعاة الهدم والضياع .

وفي عالمنا الإسلامي توالت النكبات وتراكمت العقد الاجتماعية، والنكسات الاقتصادية والهزائم العسكرية ، بفعل الغزو الخارجي والهدم الداخلي، حتى وجدنا إسلاماً غربياً رأسمالياً، وإسلاماً شرقياً ماركسياً، وإسلاماً بلا ذاتٍ ولامضمون ولاهوية .

وأصبحت معالم الإسلام وقيم المسلمين تخلفاً ورجعية، وعلامة على الغفلة والبلاهة!!(١) .

**أما البراء** :فهو التبرؤ من الجاهلية بجميع مظاهرها من الشرك والوثنية، وهي تعني المفاصلة بين الكفر والإيمان، بين الشرك والتوحيد، بين الحق والباطل، ودعوة القرآن للبراء من هذه المظاهر الجاهلية واضحة قال تعالى عن دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾(٢) ، وقد افتتح الله سورة التوبة

---

(١) أصول التوحيد في القرآن للدكتور محمد صالح، بتصرف .

(٢) سورة الزخرف، الآية : ٢٦ .

بالبراءة من المشركين وشركهم فقال تعالى : ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾(١) .

وقد أعلنت هذه البراءة في موسم الحج من السنة التاسعة للهجرة واشتملت على أربعة مبادئ هي :

١ ـ ألاّ يحج بعد العام مشرك .

٢ ـ ألا يطوف بالبيت عريان .

٣ ـ أنه لايدخل الجنة إلا نفس مؤمنة .

٤ ـ من كان له عهد عند محمد ﷺ فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له عهدٌ فمدته أربعة أشهر(٢) . وقد أعلن هذه المبادئ أبوبكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

فالتبرؤ هو : الخروج من الكفر والشرك و المعصية والتميز عن الكافرين المشركين العاصين . وبعبارة أخرى هو : الهروب من دون الله إلى دين الله كما أجمل في النفي ، ثم الإثبات في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وكمافصل في سورة الكافرون ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا

(١) سورة التوبة ، الآية : ١ ـ ٣ .

(٢) انظر تفسير ابن جرير الطبري جـ ١١ ، ص ٦٤ أول سورة التوبة ، وغيره من التفاسير .

أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .

وكما صرح به إبراهيم عليه السلام والذين معه إذ قالوا لقومهم : ﴿إِنَّا بُرَآءُ منكُمْ وَممَّا تَعْبُدُونَ من دُون اللَّه كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾(١) .

والتبرؤ من الجاهلية يبدأ من القلب ، ويستقر فيه بالمفاصلة الشعورية ، والعداوة والبغضاء والإعراض الباطني ، ثم هو يظهر على أشده باللسان والجوارح ، وفي هجر الأرض ، وإعلان الحرب وإهدار الدم والمال ، وقطع صلات القربى وروابط القوم والعشيرة ، عندما تكون مصلحة الإسلام العليا في ذلك .

وفيما بين الحالين يظهر التبرؤ بما يناسب الحال من المداراة والمصابرة إلى تمعّر الوجه وغلظة القول والعزلة الاجتماعية والمقاطعة الاقتصادية .

وحماية الدعوة وإصلاح الناس ، أو كما يكون بالترغيب فإنه يكون بالترهيب ، والحكمة تحدد نوع التبرؤ ودرجته ولكل ميدان سلاحه ولكل حال سلوكه وأسلوبه ، ويفهم مما قدمنا أن التبرؤ بالقلب ثابت دائم ، وفي غيره مفاصلة لاتمنع المواصلة ، على أن لاتصل المواصلة إلى حدود المداهنة والركون ، أو المشاركة في العبادة المحظورة ، أو التشبه في المظهر فإن هزيمة المظهر بداية لهزيمة المخبر أو نهاية له ، ومن تشبه بقوم فهومنهم .

---

(١) سورة الممتحنة ، الآية : ٤ .

هذه لمحات عن الولاء والبراء في ضوء القرآن الكريم .

**الموضوع العاشر: طاعة الرسول ﷺ ومايجب نحوه:**

مادة طوع: الطاء والواو والعين أصل صحيح واحد، يدل على الإصحاب والانقياد: يقال طَاعَه يَطُوعه، إذا انقاد معه ومضى لأمره وأطاعه بمعنى طاع له. ويقال لمن وافق غيره: قد طاوعه(١) .

**(أ) طاعة الرسول ﷺ في حياته وبعد مماته:**

وطاعة الرسول ﷺ واجبة بنص القرآن والسنة وإجماع الأمة، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ ،يستفيدون أحكام الشرع من القرآن الكريم الذي يتلقونه عن الرسول ﷺ وكثيراً ما كانت تنزل الآيات القرآنية مجملة من غير تفصيل أومطلقة من غير تقييد، كالأمر بالصلاة جاء مجملاً لم يبين في القرآن عدد ركعاتها ولا هيئآتها ولا أوقاتها، وكالأمر بالزكاة، جاء مطلقاً لم يقيد بالحد الأدنى الذي تجب فيه الزكاة ولم تبين مقاديرها ولا شروطها، وكثير من الأحكام التي لايمكن تنفيذها دون الوقوف على شرح مايتصل بها من شروط وأركان ومفسدات، فكان لابد لهم من الرجوع إلى رسول الله ﷺ لمعرفة الأحكام معرفة تفصيلية واضحة .

وكذلك كانت لهم كثيرمن الحوادث التي لم يُنص عليها في القرآن فلابد من بيان حكمها عن طريق النبي ﷺ، وهو مبلغ عن ربه وأدرى بمقاصد شريعة الله وحدودها ونهجها ومراميها .

---

(١) معجم مقاييس اللغة جـ ٣، ص ٤٣١ .

وقد أخبر الله في كتابه الكريم عن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة للقرآن، أنه مبين له، موضحٌ لمراميه وآياته حيث يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١) .

كما بين أن مهمته إيضاح الحق حين يختلف فيه الناس: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢) .

وأوجب النزول على حكمه في كل خلاف: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٣) .

وقد أوتي القرآن والحكمة ليُعلّم الناس أحكام دينهم فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(٤) .

وذهب جمهور العلماء المحققين إلى أن الحكمة شيء آخر غير القرآن، وهي ما أطلع الله رسول ﷺ عليه من أسرار دينه وأحكام شريعته، ويُعبّر عنها العلماء بالسنّة، قال الإمام الشافعي رحمه الله في

---

(١) سورةالنحل، الآية: ٤٤ .

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٤ .

(٣) سورة النساء، الآية: ٦٥ .

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤ .

الرسالة : «فذكر الله الكتاب وهو القرآن، وذكر الحكمة ، فسمعتُ من أرضىٰ من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله ﷺ»(١) .

وتفسير الحكمة هنا بأنها السنة وجيه، لأن الله تعالىٰ عطفها علىٰ الكتاب والعطف يقتضي المغايرة لأنهافي معرض المنّة من الله علينا بتعليمنا إياها ولا يمنُّ إلا بماهو حق وصواب، فتكون الحكمة واجبة الاتباع كالقرآن، ولم يوجب علينا إلاتباع القرآن والرسول، فتعين أن تكون الحكمة هي ماصدر عن الرسول ﷺ من أفعال وأقوال وتقريرات في معرض التشريع .

وإذا كان كذلك كان رسول الله ﷺ قد أوتي القرآن وشيئاً آخر معه يجب اتباعه فيه، وقد جاء ذلك مصرحاً في قوله في وصف الرسول ﷺ : ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(٢) ، ومادام اللفظ عاماً فهو شامل لمايحله ويحرمه مما مصدره القرآن، أومصدره وحي يوحيه الله إليه، وقد روىٰ أبوداود عن المقداد بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ قوله : «ألا وإنّي أوتيت الكتاب ومثله معه»(٣) .

---

(١) انظر الرسالة للإمام الشافعي ، ص ٧٨ .

(٢) سور الأعراف، الآية : ١٥٧ .

(٣) سنن أبي داود جـ ٤ ، ص ٢٠٠ كتاب السنة

ويدل على ذلك أن الله أوجب على المسلمين اتباع الرسول ﷺ فيما يأمر وينهي فقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(١) .

وقرن طاعة الرسول بطاعته في آيات كثيرة من القرآن فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢) .

وحث على الاستجابة لما يدعو إليه فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٣) . واعتبر طاعته طاعة لله واتباعه حباً لله ، فقال تعالى : ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(٥) .

وحذّر من مخالفة أمره ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٦) .

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٢.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٤) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٦) سورة النور، الآية: ٦٣.

بل أشار إلىٰ أن مخالفته كفر فقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾(١) .

وهذا محمول علىٰ ردّ ما جاء به النبي ﷺ وتكذيبه ، فأما مجرد المعصية فلا تبلغ درجة الكفر علىٰ ما هو معروف من مذهب أهل السنة والجماعة ، ولم يبح للمؤمنين مطلقاً أن يخالفوا حكمه أو أوامره ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾(٢) .

واعتبر من علامات النفاق الاعراض عن تحكيم الرسول في مواطن الخلاف فقال تعالىٰ : ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣) ، بل جعل الله من لوازم الإيمان ألا يذهب الصحابة حيث يكونون مع رسول الله ﷺ دون أن يستأذنوا منه فقال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٢ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٣٦ .

(٣) سورة النور ، الآية : ٤٧ ـ ٥١ .

الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١) .

قال ابن القيم رحمه الله : فإذا جعل الله من لوازم الإيمان أنهم لايذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه ، فأولى أن يكون من لوازمه ألا يذهبوا إلى قول ولامذهب علمي إلا بعد استئذانه ، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه(٢) .

من هذا كله كان لابد للصحابة من الرجوع إلى رسول الله ﷺ يفسر لهم أحكام القرآن ويبين لهم مشكلاته ، ويحكم بينهم في المنازعات ، ويفصل في الخصومات ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يلتزمون حدود أمره ونهيه ، ويتبعونه في أعماله وعباداته ومعاملاته ـ إلا ما علموا منه أنه خاص به ـ فكانوا يأخذون منه أحكام الصلاة وأركانها وهيئآتها نزولاً عند أمره ﷺ «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»(٣) ، ويأخذون عنه مناسك الحج وشعائره امتثالاً لأمره أيضا حيث قال «**خذوا عني مناسككم**»(٤) ، وقد يغضب إذا علم أن بعض أصحابه لم يتأسَّ به فيمايفعله كما روى مالك في الموطأ عن عطاء بن يسار ، أن رجلاً من الصحابة أرسل امرأته تسأل رسول الله ﷺ عن حكم تقبيل الصائم لزوجته ، فأخبرتها أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ

---

(١) سورة النور ، الآية : ٦٢ . (٢) إعلام الموقعين جـ ١ ، ص ٥٨ .

(٣) صحيح البخاري جـ ١ ، ص ١١٧ الأذان .

(٤) مسند الإمام أحمد جـ ٣ ص ٣١٨ ، وأصله في مسلم بلفظ [لتأخذوا مناسككم . . ] كتاب الحج حديث رقم [٣١٠] .

كان يُقبّل وهو صائم، فرجعت إلى زوجها فأخبرته فقال: لست مثل رسول الله، يُحل الله لرسوله مايشاء، فبلغ قوله ذلك رسول الله ﷺ فغضب وقال: «**إني أتقاكم لله وأعلمكم بحدوده**»(١) .

كما غضب حين أمر الصحابة بالحلق والإحلال من الإحرام في صلح الحديبية فلم يفعلوا، إذ شق ذلك عليهم حتى بادربنفسه فتحلل فابتدروا يقتدون به(٢) .

وقد بلغ من اقتدائهم برسول الله ﷺ أن كانوا يفعلون كمايفعل ويتركون ما يترك دون أن يعلموا لذلك سبباً أو يسألوه عن علته وحكمته، فقد أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: اتخذ رسول الله ﷺ خاتماً من ذهب فاتخذ الناس خواتيم من ذهب، ثم نبذه النبي ﷺ وقال: «**إني لن ألبسه أبداً** » فنبذ الناس خواتيمهم»(٣) .

وروي عن النبي ﷺ أنه كان يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى القوم ذلك ألقوا نعالهم، فلما قضى صلاته قال: «**ما حملكم على إلقاء نعالكم**؟ قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فقال ﷺ: «**إن جبريل أخبرني أن فيهما قذراً**»(٤) .

---

(١) وأخرج هذا الحديث مسلم في صحيحه كتاب الصوم جـ ٢، ص ٧٧٩ بلفظ [أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له].

(٢) انظر زاد المعاد جـ ٣، ص ٢٩٥ .

(٣) صحيح البخاري جـ ٤، ص ٢٦٠، كتاب الاعتصام.

(٤) مسند الإمام أحمد جـ ٣، ص ٢٠ ورواه أبوداود في سننه جـ ١، ص ١٧٥ .

بل بلغ من امتثالهم أمر النبي ﷺ أن فعلوا ذلك حتىٰ في شؤون الدنيا، فقد روىٰ أبوداود وابن عبدالبر في [جامع بيان العلم وفضله] عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه جاء يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فسمعه يقول [اجلسوا] فجلس بباب المسجد أي حيث سمع النبي ﷺ يقول ذلك فرآه النبي ﷺ فقال له : «**تعال ياعبدالله بن مسعود**»(١) .

وهكذا كان الصحابة مع رسول الله ﷺ في حياته يعتبرون قوله وفعله وتقريره حكما شرعياً لا يختلف في ذلك واحد منهم ، وما كان الصحابة يراجعون رسول الله ﷺ في أمر إلا إذا كان فعله أوقوله اجتهاداً منه في أمر دنيوي، كمافي غزوة بدرحين راجعه الحباب بن المنذر(٢) في مكان النزول، وسعد بن عبادة وسعد بن معاذ في غزوة الأحزاب، أو إذا كان اجتهاداً منه في أمر ديني قبل تقرير الله له أوبهيه عنه، كما راجعه عمر في أسارىٰ بدر وصلح الحديبية ، أو إذا كان غريباً عن عقولهم فيناقشونه لمعرفة الحكمة فقط، أو كانوا يظنون فعله خاصاً به فلا يلزمون أنفسهم اتباعه، أوإذا أمرهم بأمر فظنوا أنه للإباحة وأنّ غيرالمأمور به أولىٰ، أما ما عدا ذلك فكان منهم التسليم المطلق والاتباع التام.

---

(١) سنن أبي داود جـ ١ ، ص ٢٨٦ .

(٢) حديث مكان النزول ضعيف، بل قال الذهبي: منكر كما في تخريج الشيخ ناصر الدين الألباني علىٰ فقه السيرة.

وكما وجب على الصحابة بأمر الله في القرآن اتباع الرسول ﷺ وطاعته في حياته ، وجب عليهم وعلى من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته ؛ لأنّ النصوص التي أوجبت طاعته عامة لم تقيد ذلك بزمن حياته ، ولا بصحابته دون غيرهم ؛ ولأنّ العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم ، وهي أنهم أتباعٌ لرسولٍ أمر الله باتباعه وطاعته ، ولأنّ العلة أيضاً جامعة بين حياته ووفاته ، إذ كان قوله وحكمه وفعله ناشئاً عن مشرّعٍ معصوم أمر الله بامتثال أمره ، فلا يختلف الحال بين أن يكون حياً أو بعد وفاته ، وقد أرشد ﷺ إلى وجوب اتباع سنته حيث يغيب المسلم عنه حين بعث معاذاً إلى اليمن فقال له : **(كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟)** فقال : أقضي بكتاب الله . قال : **(فإن لم يكن في كتاب الله؟)** قال : فبسنة رسول الله ، قال : **(فإن لم يكن في سنة رسول الله؟)** قال : أجتهد رأيي ولا آلوا ، فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : **(الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله)**(١) .

كما حث على وجوب العمل بسنته بعد وفاته في أحاديث كثيرة جداً بلغت حد التواتر المعنوي .

فقد أخرج البخاري والحاكم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : **(كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى)** قالوا : يا رسول الله ومن

---

(١) رواه أبو داود في سننه جـ٣ ، ص ٣٠٣ كتاب الأقضية ، ورواه أحمد والترمذي وغيرهم ، وقد ضعف هذا الحديث جماعة من أهل العلم وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم [٨٨١] .

يأبى؟ قال : (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)(١)، وحديث العرباض بن سارية قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقيل : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : (عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة)(٢) .

من أجل هذا عُني الصحابة رضوان الله عليهم بتبليغ السنة ؛ لأنها أمانة الرسول عندهم إلى الأجيال المتلاحقة من بعدهم ، وقد رغب رسول الله ﷺ في تبليغ العلم إلى من بعده بقوله : (نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فأداها كما سمعها ، فرُب مُبَلّغ أوعى من سامع)(٣) .

ونجمل فيما يلي نصوصاً قرآنية صريحة في وجوب طاعة النبي ﷺ كتلخيص لما سبق :

قال تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٤) .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الاعتصام ، جـ٤ ، ص ٢٥٧ .

(٢) رواه أبو داود ، جـ٤ ، ص ٢٠١ كتاب السنة ، كما رواه غيره كالترمذي والإمام أحمد وابن ماجه، انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، جـ٢ ، ص ١٨٢ .

(٣) رواه ابن ماجه في سننه ، جـ١ ، ص ٨٤ المقدمة ، كما رواه أبو داود والترمذي والنسائي بألفاظ مختلفة في التقديم والتأخير ، وهو حديث متواتر .

(٤) سورة الحشر ، الآية : ٧ .

وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٦) .

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢١ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٣١ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٨٠ .
(٤) سورة النور ، الآية : ٦٣ .
(٥) سورة النساء ، الآية : ٥٩ .
(٦) سورة النساء ، الآية : ٦٥ .

وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١) .

ومن خلال ما تقدم من النصوص من الكتاب والسنة ، نعلم يقيناً وجوب طاعة النبي ﷺ ، حيّاً أو ميّتاً ، وتعظيم أمره ونهيه ، واتباع سنته ومنهاجه ؛ لأنه لا خير إلا دل الأمة عليه ولا شرّ إلا حذرها منه ﷺ .

**ما يجب نحو النبي ﷺ :**

الحديث عن طاعة النبي ﷺ وعن محبته وتعظيمه فرعٌ عن الإيمان به ، فثبوت رسالته ﷺ قضية مسلمة عند كل مسلم ، ولهذا لم نستعرض في حديثنا عنه معجزاته وأدلة ثبوت رسالته كقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾(٢)، وكقوله تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٣) .

أما ما يجب نحو النبي ﷺ فهي أمور كثيرة ، منها :

تعظيم أمره ونهيه ، ومحبته وطاعته ، واحترام ذاته الشريفة حياً وميتاً .

وتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله لا يتم إلا بطاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما عنه نهى وزجر ، وأن لا يعبد الله إلا

---

(١) سورة النور ، الآية : ٥١ .
(٢) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٨ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٨٨ .

بما شرع ، وقد أورد القاضي عياض في كتابه الشفا[١] بتعريف حقوق المصطفى طائفة مما يجب نحو النبي ﷺ ونجمل بعضاً منها في ما يلي :

١ ـ الإيمان به وتصديقه فيما أتى به ، قال تعالى : ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[٣] .

فالإيمان بالنبي ﷺ واجب متعين لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه ، قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾[٤] .

ثم قال القاضي عياض : الإيمان به ﷺ هو تصديقُ نبوته ورسالة الله له ، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله ، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله ، فإذا اجتمع التصديق به بالقلب والنطق بالشهادة بذلك باللسان تم الإيمان به والتصديق[٥] له ، كما ورد من رواية عبد الله بن عمر **(أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)**[٦] .

---

(١) الشفا ، جـ٢ ، ص ٢ وما بعدها .

(٢) سورة التغابن ، الآية : ٨ .

(٣) سورة الفتح ، الآية : ٨ ، ٩ .

(٤) سورة الفتح ، الآية : ١٣ .

(٥) لا بد مع التصديق القلبي والنطق باللسان من الانقياد بالطاعة له والتسليم لما قضاه ﷺ .

(٦) صحيح مسلم ، جـ١ ، ص ٥٣ .

وقد زاده وضوحاً في حديث جبريل إذ قال : أخبرني عن الإسلام فقال النبي ﷺ : **(أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)** وذكر أركان الإسلام ، ثم سأله عن الإيمان فقال : **(أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله)** الحديث[١] ، فقد قرر أن الإيمان به محتاج إلى العقد بالجنان والإسلام به مضطر إلى النطق باللسان ، وهذه الحالة المحمودة التامة .

وأما الحالة المذمومة ، فالشهادة باللسان دون تصديق القلب ، وهذا هو النفاق ، قال تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[٢] أي كاذبون في قولهم ذلك عن اعتقادهم وتصديقهم وهم لا يعتقدونه ، فلما لم تصدق ذلك ضمائرهم لم ينفعهم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم .

ثم قال : والفرق بين القول والعَقْد ما جعل في حديث جبريل : الشهادة من الإسلام ، والتصديق من الإيمان .

٢ ـ وجوب طاعته ، أقول : وقد ذكرنا كثيراً من نصوص الكتاب والسنة فيما تقدم مما يدل على وجوب طاعته ﷺ .

٣ ـ لزوم محبته ﷺ ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا

---

(١) صحيح مسلم ، جـ١ ، ص ٣٧ .

(٢) سورة المنافقون ، الآية : ١ .

وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(١) .

فكفى بهذا حضاً وتنبيهاً ودلالة وحُجة على إلزام محبته ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها ﷺ ، إذ قرّع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحبَّ إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله : ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ ثم فسّقهم بتمام الآية ، وأعْلمهم أنهم ممن ضلّ ولم يهده الله .

وقال ﷺ : **(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)**(٢) .

وقال ﷺ : **(ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما وأن يُحب المرأ لا يُحبُّه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)**(٣) .

قلتُ : وقد قال القاضي عياض وابن بطال وغيرهما : المحبة ثلاثة أقسام : محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد ، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد ، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس ، فجمع النبي ﷺ أصناف المحبة في محبته(٤) .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٢٤ .

(٢) صحيح مسلم ، جـ١ ، ص ٦٧ .

(٣) صحيح البخاري باب حلاوة الإيمان ، جـ١ ، ص ١٢ ، رواه مسلم بلفظ قريب من هذا في باب الإيمان ، جـ١ ، ص ٦٦ .

(٤) تعليق محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم ، جـ١ ، ص ٦٧ .

وهناك محبة خاصة بالرسول ﷺ وهي المحبة الشرعية ، أي أننا نحبه ، لأنه رسول الله ؛ ولأنّ الله أحبه ، ولا تغني عنها الأقسام الثلاثة كما تقدم في الحديث السابق (**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**) ، وقد كان أبو طالب يحب رسول الله ﷺ بالأنواع الثلاثة التي ذكرها القاضي عياض رحمه الله .

**٤ ـ ما جاء في ثواب محبته ﷺ .**

روي عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : ما أعددت لها؟ قال ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله : قال ﷺ : (**أنت مع مَنْ أحْبَبْت**)[١] .

وروي أن رجلاً كان عند النبي ﷺ ينظر إليه لا يطرف ، فقال ﷺ : (**ما بالك**)؟ قال : بأبي أنت وأمي أتمتّعُ من النظر إليك ، فإذا كان يومُ القيامة رفعك الله بتفضيله مع النبيين ، وإن دخلتُ الجنة لا أراك ، فأنزل الله تعالىٰ قوله : ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰئِكَ رَفِيقًا**﴾[٢] ، فدعا به فقرأها عليه[٣] .

وقد روىٰ الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح أنّ أصحاب رسول

(١) صحيح البخاري ، جـ٤ ، ص ٧٦ .
(٢) سورة النساء ، الآية : ٦٩ .
(٣) أخرجه الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والضياء المقدسي في صفة الجنة وحسّنه عن عائشة .

الله ﷺ قالوا له : ما ينبغي أن نفارقك في الدنيا فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا فنزلت الآية(١) ، ومن فضائل محبته ﷺ أنها تخفف من شدة المعاصي وبلائها .

عن عمر بن الخطاب أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبدالله وكان يلقب حِماراً، وكان يُضْحِكُ رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتىَ به يوماً فأمر به فجلد فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به، فقال ﷺ: **(لا تلْعنوه، فوالله ما علِمْتُ إلا أنَّهُ يُحبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)**(٢) .

وفي هذا رد على من يكفر أهل المعاصي بذنوبهم كالخوارج ونحوهم الذين يحكمون بكفرهم ويخلودهم في النار .

٥ ـ وجوب النصح لرسول الله ﷺ .

قال تعالى : **﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**(٣) . قال أهل التفسير إذا نصحوا لله ورسوله ، أي إذا كانوا مخلصين مسلمين في السر والعلانية وفي الحديث الصحيح **(الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة)** قالوا : لمن يا رسول الله . قال : **(لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)**(٤) .

---

(١) انظر : زاد المسير لابن الجوزي ، جـ٢ ، ص ١٢٦ .

(٢) انظر : صحيح البخاري ، جـ٤ ، ص ١٧٢ كتاب الحدود .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٩١ .

(٤) صحيح مسلم ، جـ١ ، ص ٧٤ كتاب الإيمان .

قال أبو بكر الآجُرِّيّ وغيره : النصح له يقتضي نُصْحَيْن نصحاً في حياته ، ونصحاً بعد مماته ، ففي حياته نُصح أصحابه له بالنصر والمحاماة عنه ومعاداة من عاداه ، والسمع والطاعة له وبذل النفوس والأموال دونه كما قال تعالى : ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(٢) .

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته ، فالتزام التوقير والإجلال وشدة المحبة له ، والمثابرة على تعلّم سنته والتفقّه في شريعته ومحبة آل بيته وأصحابه ومجانبة من رغب عن سنته وانحرف عنها . . . إلخ ما ذكره(٣) .

٦ ـ تعظيم أمره ووجوب توقيره وبرّه ﷺ .

قال تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝٨ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾(٥) .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الحشر ، الآية : ٨ .

(٣) انظر الشفا ، للقاضي عياض جـ ٢ ، ص ٣٣ .

(٤) سور الفتح ، الآية : ٨ ، ٩ .

(٥) سورة الحجرات ، الآية : ١ ، ٢ .

فأوجب تعالىٰ تعزيزه وتوقيره ، وألزم إكرامه وتعظيمه .

وقال المبرّد : تعزّروه تبالغوا في تعظيمه ، وقال الأخفش تنصرونه، وقال الطبري تعينونه ، وقرئ بزائين من العز ، ونهىٰ الله عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام[١] .

قيل نزلت الآية ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ في وفد بني تميم عندما قالوا : يا محمد أخرج إلينا ، وقيل : الآية الأولىٰ من سورة الحجرات في أبي بكر وعمر وكانت بينهما محاورة ثم ارتفعت أصواتهما .

وقيل : نزلت الآية في ثابت بن قيس بن شماس خطيب النبي ﷺ في مفاخرة بني تميم وكان في أذنيه صمم فكان يرفع صوته ، فلما نزلت الآية أقام في منزله وخشي أن يكون حبط عمله فقال له النبي ﷺ : يا ثابت ، أما ترضىٰ أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة؟ فقال : رضيت ببشرىٰ الله تعالىٰ ورسوله ولا أرفع صوتي أبداً علىٰ صوت رسول الله ﷺ وأنزل الله تعالىٰ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٢] ، وقد استشهد ثابت يوم اليمامة[٣] ، وهكذا كان الصحابة يعظّمون رسول الله ﷺ ، وإذا تكلم أطرقوا كأن علىٰ رؤوسهم الطير .

---

(١) انظر : الشفا للقاضي عياض ، جـ٢ ، ص ٣٥ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ، جـ٤ ، ص ٢٠٧ ، والشهادة لثابت بن قيس بدخول الجنة ثابتة في صحيح البخاري ، جـ٣ ، ص ١٩١ .

(٣) انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ، جـ١ ، ص ٣٩٥ .

**الموضوع الحادي عشر : العدل .**

**العدل** : القصد في الأمور ، وهو خلاف الجور كما ذكره الفيّومي في المصباح المنير[١] .

وقال ابن الجوزي : العدل الإنصاف والحق وضده الجور[٢] ، والعدل : ضربان : مطلق يقتضي العقل حسنه ، ولا يكون في شيء من الأزمنة منسوخاً ولا يوصف بالاعتداء بوجه ، نحو الإحسان إلىٰ من أحسن إليك ، وكف الأذىٰ عمن كف أذاه عنك .

وعدل ، يعرف كونه عدلاً بالشرع ، ويمكن أن يكون منسوخاً في بعض الأزمنة كالقصاص ، وأرش الجنايات ، وأخذ مال المرتد ، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾[٣] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[٤] فسمىٰ ذلك سيئة واعتداءً ، وهذا النحو هو المعني بقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[٥] فإن العدل هو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير وإن شراً فشر[٦] .

**والإحسان** أن يقابل الخير بأكثر منه ، والشر بأقل منه ، وقد ذكر ابن الجوزي ، أنّ العدل في القرآن علىٰ خمسة أوجه :

(١) المصباح ، ص ٥٤١ .
(٢) نزهة الأعين النواظر ، جـ٢ ، ص ٥١ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٩٤ .
(٤) سورة الشورىٰ ، الآية : ٤٠ .
(٥) سورة النحل ، الآية : ٩٠ .
(٦) بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي ، جـ٤ ، ص ٢٩ .

**الأول : الفداء** : ومنه قوله تعالى : ﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾(٢) .

**الثاني : الإنصاف** : ومنه قوله تعالى : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾(٣) ، وقال تعالى أيضاً : ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾(٤) .

**الثالث : القيمة** : ومنه قوله تعالى : ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾(٥) أراد، أو قيمة ذلك يصام عنه .

**الرابع : الشرك** : ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾(٦) .

**الخامس : التوحيد** : ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾(٧) .

قيل : أراد بالعدل كلمة التوحيد وهي (لا إله إلا الله)(٨) . .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٨ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٧٠ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٣ .
(٤) سورة النساء ، الآية : ١٢٩ .
(٥) سورة المائدة ، الآية : ٩٥ .
(٦) سورة الأنعام ، الآية : ١ .
(٧) سورة النحل ، الآية : ٩٠ .
(٨) نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي ، جـ٢ ، ص ٥٢ .

وكلمة : عَدَلَ ، وما تصرف منها وردت في القرآن في ثمانية وعشرين موضعاً .

وهناك نصوص كثيرة من القرآن وردت في العدل المطلق بين الناس ، وهذا من محاسن الإسلام ومقاصده العليا ، ومن هذه النصوص ما يلي :

١ ـ قوله تعالىٰ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(١) .

٢ ـ قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾(٢) .

٣ ـ قوله تعالىٰ : ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾(٣) .

٤ ـ قوله تعالىٰ : ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾(٤) .

٥ ـ قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾(٥) .

٦ ـ قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾(٦) .

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ٢٥ .
(٢) سورة النساء ، الآية : ٥٨ .
(٣) سورة ص ، الآية : ٢٦ .
(٤) سورة الشورىٰ ، الآية : ١٥ .
(٥) سورة الأعراف ، الآية : ٢٩ .
(٦) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٢ .

٧ ـ قوله تعالىٰ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١) .

والعدل ميادينه كثيرة ، على مستوىٰ الأفراد والجماعات والحكومات ، ويمكن أن نوجز بعض الميادين التطبيقية فيما يلي :

١ ـ العدل في الحكم بين الناس في الولاية العامة كالحكم والقضاء .

ولسنا في حاجة إلىٰ ضرب الأمثلة علىٰ عدل ولاة أمور المسلمين من الصحابة وخيار من بعدهم .

وهذا العدل ليس فقط بين المسلمين ، ولكنه بين المسلمين وبين غيرهم من الأمم الأخرىٰ أيضاً ، وحادثة اليهودي ، الذي التقط درع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عندما سقط منه ، مشهورة ، فقد احتكما إلىٰ القاضي شريح ، ولكن لم يكن لعليّ من الشهود إلا ابنه الحسن ومولاه قنبر ، فلم يقبل شريحٌ شهادة الحسن لوالده علي بن أبي طالب ، وحكم بالدرع لليهودي ، ويروىٰ أن هذا الموقف الكريم أمام عدل الإسلام قد حدا باليهودي فأسلم ، وأن علي ابن أبي طالب أعطاه الدرع مكافأة له علىٰ إسلامه(٢) .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٨ .

(٢) انظر هذه القصة في حلية الأولياء لأبي نعيم ، جـ٤ ، ص ١٣٩ .

إنها قصص من العدل في حياة سلفنا الصالح تشبه الأساطير ؛ لأنه عقيدة الإيمان صنعتهم ولأنهم تربّوا في أحضان النبوة ، فكانت سجاياهم مناراً على جبين الزمان ، والإمام العادل من السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله(١) .

٢ ـ العدل في الولاية الخاصة على الأولاد ، وذلك في تربيتهم ورعايتهم والعدل في أعطياتهم ، وقد أرشد النبي ﷺ إلى العدل بين الأولاد فقال لوالد النعمان بن بشير عندما خصه ببعض الهبات : «أفعلت هذا بولدك كلهم ؟ قال : لا ، قال : اتقوا الله واعدلوا في أولادكم» وفي رواية أن النبي ﷺ قال : **(يا بشير ! ألك ولد سوى هذا؟)** قال : نعم ، فقال : **(أكلهم وهبت له مثل هذا؟)** قال : لا ، قال : **(فلا تشهدني إذاً فإني لا أشهد على جور)**(٢) .

**وكذلك العدل في معاشرة الزوجات : كالعدل في القسم والنفقة وغير ذلك .**

والقرآن الكريم عندما أباح التعدد في الزوجات إلى أربع ، جعل ذلك مقيداً بالعدل في قوله تعالى : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾(٣) .

وقد جاء الوعيد شديداً لمن لم يعدل بين زوجاته ، فقال ﷺ : **(من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل)**(٤) .

---

(١) صحيح البخاري ، جـ١ ، ص ١٢١ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه بألفاظ مختلفة ، جـ٣ ، ص ١٢٤٣ كتاب الهبات .

(٣) سورة النساء ، الآية : ٣ .

(٤) رواه أصحاب السنن : وانظر سنن أبي داود ، جـ٢ ، ص ٢٤٢ .

والمراد بالعدل فيما يملك من القسم في المبيت والنفقة والسكن وجميع الحقوق الزوجية ، فأما ميل القلب بالحب ونحو ذلك ، فهذا ما لا يملكه الإنسان ، والعدل فيه متعذر ، ولهذا قال النبي ﷺ : (**اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**)[١] يعني ميل القلب .

وهو المعني بقوله تعالى : ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾[٢] .

٣ ـ العدل في الإصلاح بين الناس وفض المنازعات والخصومات بما يحقق العدل بين الأطراف المتنازعة ، وكما يكون العدل في القول كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[٣] يكون العدل أيضاً في العمل ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[٤] ، وقد بشّر النبي ﷺ أهل العدل بحسن المصير ، فقال ﷺ : (**إن المقسطين عند الله على منابر من نور ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**)[٥] ، والعدل مطلب مهم في حياة هذه الأمة المحمدية ؛ لأنها ستشهد يوم القيامة على الأمم السابقة ، ولا بد لمن يشهد من أن يكون عدلاً وإلا طعن في شهادته ، وقد أشار القرآن الكريم إلى شهادة هذه الأمة بقوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٦] .

---

(١) رواه أبو داود في سننه ، جـ٢ ، ص ٢٤٢ . (٢) سورة النساء ، الآية : ١٢٩ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٢ . (٤) سورة النساء ، الآية : ٥٨ .
(٥) صحيح مسلم ، جـ٣ ، ص ١٤٥٨ كتاب الإمارة .
(٦) سورة البقرة ، الآية : ١٤٣ .

**الموضوع الثاني عشر : الجهاد .**

**الجهاد** : من المجاهدة ، وهي بذل الجهد واستنفاد الطاقة في سبيل حصول المقصود ، وقد ذكر بعض المفسرين أنّ الجهاد ورد في القرآن على ثلاثة أوجه[١] .

الوجه الأول : **الجهاد بالقول** : ومنه قوله تعالى : ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[٣] .

الوجه الثاني : **الجهاد يعني القتال بالسلاح** : ومنه قوله تعالى : ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله : ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٤] .

الوجه الثالث : **الجهاد يعني العمل** : ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾[٥] ، وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٦] .

---

(١) الأشباه والنظائر ، لمقاتل بن سليمان البلخي ، ص ١٤٨ .
(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٥٢ .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ٧٣ .
(٤) سورة النساء ، الآية : ٩٥ .
(٥) سورة العنكبوت ، الآية : ٦ .
(٦) سورة العنكبوت ، الآية : ٦٩ .

والجهاد أصل من أصول الإسلام ، ولا يستقيم أمر المسلمين إلا به، وقد أوضح النبي ﷺ هذه الحقيقة عندما قال : **(رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد)**(١) .

وحقيقة الجهاد في سبيل الله ، هي العمل على إعلاء كلمة الله في الأرض بالوسائل المادية والمعنوية كافة، وإقامة موازين العدل والأمن في المجتمعات البشرية ، لأنّ الأصل أن تُحكَم الأرض بشريعة الله ، فإن دين الإسلام دين عالمي ، وقد جاءت الرسالة المحمدية خاتمة للرسالات السابقة مشتملة عليها ومتممة لمكارم الأخلاق ومحاسن الفعال .

والصراع بين الحق والباطل لا ينتهي ، ولا بد من مقاومة الشر والطغيان في مختلف العصور .

والجهاد مشروع حتى في الأمم السابقة ، كما قال تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾(٢) .

وحكم الجهاد الذي هو بمعنى الغزو والقتال في سبيل الله : فرض كفاية ، بمعنى أنه إذا قام به من المسلمين من يكفي سقط الإثم عن الباقين وإلا أثموا جميعاً ، ويتعين في مواضع ثلاثة كما نص على ذلك بعض فقهاء الإسلام(٣) .

---

(١) سنن الترمذي ، جـ٧ ، ص ٢٨١ ، وقال: حسن صحيح .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٦ .
(٣) انظر : المغني لابن قدامة ، جـ٩ ، ص ١٧٩ وغيره من مصادر الفقه الإسلامي .

١ ـ إذا التقى الزحفان وتقابل الجيشان حرم على من حضر المعركة الانصراف وتعيَّن عليه القتال لقول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾(٢) .

٢ ـ إذا هاجم العدو بلاد المسلمين وجب عليهم الدفاع عنها .

٣ ـ إذا دعا إمام المسلمين إلى النفير العام ، وجبت عليهم الإجابة لداعي الجهاد كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣) ، وقال تعالى : ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٤) .

**أما أسباب الجهاد** : فهي كثيرة ولكن مردّها إلى ما يلي :

١ ـ ضرورة إبلاغ دعوة الإسلام إلى الناس كافة ، لأنها دعوة عالمية ورسالة ختامية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(٥) ، وليس

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٤٥ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ١٥ ، ١٦ .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٣٨ ، ٣٩ .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ٤١ .

(٥) سورة سبأ ، الآية : ٢٨ .

للرسول ﷺ خيار في إبلاغ رسالة الله ، فلقد قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(١) ، حتى قيل : إن هذه الآية من أشد الآيات التي نزلت على رسول الله ﷺ .

٢ ـ رفع الظلم والاضطهاد عن المسلمين ، وقد أذن الله لهم بالدفاع عن أنفسهم ، قال تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(٢) .

٣ ـ العدوان على المسلمين ، وقد شرع الله القتال لرد العدوان ، قال تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٣) ، وقال تعالى : ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾(٤) .

وأمام هذه التكاليف بإبلاغ رسالة الله ، لا بد أن يوجد للدعوة خصوم يقفون في طريقها ويمنعون وصولها إلى الناس ، وعندئذ لا بد من تحطيم مراكز القوى التي تصد عن سبيل الله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(٥) .

**أما أهداف الجهاد في سبيل الله** : فهي إعلاء كلمة الله في الأرض ، وإقامة الحق والعدل بين الناس ، وجعل الحاكمية لله وحده ،

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٦٧ .

(٢) سورة الحج ، الآية : ٣٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٩٠ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٩٤ .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ١٩٣ .

فلا يُهتدىٰ إلا بهدي الله ولا يحكم إلا بشريعته ، ولهذا لا يكاد يذكر القتال أو الجهاد إلا مقروناً بسبيل الله ، تفريقاً بينه وبين القتال من أجل الثارات والأطماع الدنيوية ، وحب السيطرة والاستعباد .

فالإسلام لا يريد من القتال إبادة الحرث والنسل ونشر الخراب والدمار ، بل إنّ من أهداف الإسلام إسعاد البشرية وهدايتها ، ونشر الأمن والرخاء فوق ربوعها ، وهو لا يلجأ للقتال إلا عند الضرورة .

**أما مشروعية الجهاد** : فكانت بعد الهجرة ، فإنّه لم يختلف العلماء في أنّ القتال قبل الهجرة كان محظوراً على المسلمين كقوله تعالىٰ : ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾[1] ، وقوله : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] ، فلما استقر النبي ﷺ بالمدينة وصارت له شوكة ، أنزل الله تعالىٰ قوله : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[3] فكان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه ، وروىٰ جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وابن عباس أن أول آية نزلت في القتال هي قوله تعالىٰ : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[4] .

وقد أيد هذا القول أبو بكر ابن العربي في كتابه أحكام القرآن ، وذكر أن القتال كان إذناً ، ثم أصبح فرضاً بعد ذلك[5] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ١٣ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية : ٩٦ ، وفصلت ، الآية : ٣٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٩٠ .

(٤) سورة الحج ، الآية : ٣٩ .

(٥) انظر : أحكام القرآن لابن العربي ، جـ١ ، ص١٠٢ ، وتفسير القرطبي ، جـ٢ ، ص٣٤٧ .

والجهاد في سبيل الله : يكون بالنفس وبالمال وباللسان ، وقد أعظم الله الثمن للمجاهدين بالأنفس والأموال فقال جل وعلا : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(١) .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان أن رسول الله ﷺ قال : **(جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)**(٢) .

والذين جاهدوا بأنفسهم في سبيل الله بشّرهم الله بالحياة الطيبة وأنهم عند ربهم يرزقون ، فقال تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣) .

والمال عنصر هام للمجاهدين في سبيل الله ، وقد ضرب لنا سلفنا الصالح النماذج الخيّرة في مجال بذل المال للجهاد وإعداد العُدة ، فقد دعا النبي ﷺ للتبرع للجهاد في غزوة تبوك عندما واجهت المسلمين شدة من قلة الأموال ، والموارد وكان لا بد من إعداد العدة وتجهيز الجيش بما يتناسب مع أهمية تلك الغزوة ، فتسابق الناس للتبرع فأراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه المرة أن ينافس أبا بكر الصديق فينفق من

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١١١ .

(٢) مسند الإمام أحمد ، جـ٣ ، ص ١٢٤ ، وسنن أبي داود ، جـ٣ ، ص ١٠ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٩ ، ١٧٠ .

ماله أكثر منه ، فقسم عمر بن الخطالب ماله شطرين ، وجاء بشطر وترك لأهله شطراً ، وجاء أبو بكر بماله كله فوضعه بين يدي رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : **(ما تركت لأهلك يا أبا بكر ، قال : تركت لهم الله ورسوله ، وقال ما تركت لأهلك يا عمر فقال تركت لهم شطر مالي وجئت بشطر)** فلما بلغ عمر ما صنعه أبو بكر رضي الله عنه قال : «ما استبقنا إلى الخير قط إلا سبقني إليه»[1] ، أما عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه فقد قام بتجهيز الجيش وكان يسمى جيش العسرة ، وتحمل رضي الله عنه معظم النفقات في تلك الغزوة حتى قال له النبي ﷺ : **(ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا)**[2] .

وهناك أمور لا بد منها عند إرادة الجهاد في سبيل الله ، منها :

١ ـ إعداد العدة ، والقرآن الكريم صريح في دعوته لهذا إذ يقول تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[3] .

وقد فسر النبي ﷺ القوة بالرمي كما في صحيح مسلم[4] ، والتنكير هنا يفيد العموم لجميع القوى المادية والروحية كالإيمان والصبر والثبات ، وقد قال ﷺ : **(إن الله ليُدخِل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعة يحتسب في صنعته الخير ومنبله والرامي به)**[5] رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه . . إلخ .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ، جـ١ ، ص ٣٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ، جـ٤ ، ص ٦ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية : ٦٠ .

(٤) جـ٣ ، ص ١٥٢٢ ، كتاب الإمارة .

(٥) انظر : سنن أبي داود ، جـ٣ ، ص ١٣ كتاب الجهاد .

٢ ـ الثبات ، وطاعة القائد وترك النزاع والخلاف مهما كانت النتائج ، قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(١) .

٣ ـ حفظ السر : فإنّ كشف أسرار الجيش جريمة كبرىٰ ، وهو من أسباب الهزيمة ، وقد نهىٰ الله المسلمين عن ذلك لما فيه من موالاة الأعداء والتجسس علىٰ المسلمين ، ويظهر ذلك ، من قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه عندما بعث بكتاب إلىٰ قريش يخبرهم فيه بخروج النبي ﷺ إلىٰ مكة ، وقد أشار القرآن إلىٰ ذلك في أول سورة الممتحنة فقال تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ إلىٰ قوله : ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(٢) . وقد اعتذر عن ذلك وقبل النبي ﷺ عذره .

ومنها أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن يغزو جهة ورّىٰ بغيرها ثم انطلق إلىٰ الجهة التي يريدها ، وقصة النبي ﷺ في غزوة بدر الكبرىٰ مع الأعرابي : لا أخبركما حتىٰ تخبراني من أنتما ، فقال له رسول الله ﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك ، قال : أو ذاك بذاك ؟ قال نعم ، فأخبرهما بخبر قريش ومحمد وأصحابه ، فلما فرغ من خبره قال ممن أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : نحن من ماء ، ثم انصرف عنه (٣) .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) سورة الممتحنة ، الآية : ١ .

(٣) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج٢ ص ٣٩٦ .

٤ ـ اختيار المكان المناسب : وهو ما يعرف في النظم الحديثة بالاستراتيجية العسكرية ، وقد تحدث التأريخ عن موقف الحباب بن المنذر في غزوة بدر الكبرىٰ وقد نزل النبي ﷺ بمكان ، فقال يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال : رسول الله ﷺ : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال : يا رسول الله إنّ هذا المكان ليس لنا بمنزل ، وأشار عليه بأرض تصلح للحرب ، فقال ﷺ : لقد أشرت بالرأي ، ونهض رسول الله ﷺ بمن معه من الناس[1] .

٥ ـ دعوة الكفار للإسلام قبل الحرب ، وعدم الغدر والمُثْلة وقتل النساء والصبيان .

فقد كان رسول الله ﷺ إذا أمّر على الجيش أو السَّريّة أميراً ، أوصاه في خاصته بتقوىٰ الله وبمن معه من المسلمين خيراً ثم قال له : (**اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ولا تغدروا ولا تُمثّلوا ولا تقتلوا وليداً**)[2] .

وفي وصية أبي بكر لجنده . . «ستجدون قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ولا تقتلنّ امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هَرِماً»[3] .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، جـ٢ ، ص ٤٠٢ .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد ، انظر سنن أبي داود ، جـ٣ ، ص ٣٧ .

(٣) انظر : أحكام القرآن لابن العربي ، جـ١ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

٦ ـ ما يعرف في الحروب الحديثة بالحرب النفسية : وهذا من أخطر الأسلحة التي يمكن أن يستخدمها كل فريق ضد الآخر ، والقرآن الكريم أشار إلىٰ أن إعداد العدة المادية والمعنوية فيه إرهاب للأعداء ، وتمكين للرعب في قلوبهم ، وهو هدف من أهداف إزهاق الباطل وإذلاله قال تعالىٰ : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[1] .

وقد نُصِر النبي ﷺ بالرّعب علىٰ عدوّه ، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم وغيره[2] ، قال ﷺ : **(نصرت بالرعب مسيرة شهر)** إلخ .

وقصة أبي دجانة سَمَّاك بن خرشة رضي الله عنه مشهورة ، حيث كان يختال في مشيته أمام المشركين ويتبختر وفي يده السيف الذي أعطاه رسول الله ، فقال ﷺ حين رأىٰ أبا دجانة يتبختر : **(إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن)**[3] .

وفي عمرة القضاء في السنة السابعة قالت قريش : إنه سيقدم عليكم محمد وأصحابه وقد أنهكتهم حُمَّىٰ يثرب ، فلما بلغ النبي ﷺ مقالة المشركين حسر عن كتفه وعن عضده الأيمن مضطبعاً بردائه ، ورَمَل في الأشواط الثلاثة الأولىٰ وقال لأصحابه : **(رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة)**[4] ، ومنه ما ورد في البخاري معلقاً :

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦٠ .

(٢) صحيح مسلم ، جـ١ ، ص ٣٧٢ .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ، جـ٣ ، ص ٣٠ .

(٤) السيرة النبوية لابن كثير ، جـ٣ ، ص ٤٣٠ .

(ارملوا بالبيت ليرى المشركون قوتكم ..) انظر فقه السيرة للغزالي [٣٩٤] . والمواقف والخطط التي ترعب الأعداء كثيرة جداً ، وقصة خالد بن الوليد رضي الله عنه في غزوة مؤتة في منتهى الروعة والدهاء ، ولو ذهبنا نستشهد بتلك المواقف الجهادية المثالية في تأريخ المسلمين لخرجنا عن حد الإيجاز ، ويمكن أن نضرب أمثلة رائعة من سلفنا الصالح في الثبات على المبادئ واستعلائهم بالإيمان على أعداء الإسلام ومن هذه المواقف البطولية ما يلي :

١ ـ موقف سعد بن معاذ وسعد بن عبادة مع المشركين في غزوة الأحزاب ، فقد ذكرت الروايات أن المشركين حاصروا المدينة المنورة قرابة شهر وخشي النبي ﷺ على أصحابه اشتداد البلاء ، فبعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المرّي ، وهما قائدا غطفان ، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، ولما أراد النبي ﷺ أن يفعل ذلك بعث إلى السعدين فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه فقالا : يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال رسول الله ﷺ : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة واحدة إلا قِرىً أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له

وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال النبي ﷺ : (أنت وذاك)[١] ، وقد سر النبي ﷺ بهذه الشجاعة النادرة ، واطلع الله على صدق العزيمة عند المسلمين فهزم الله الأحزاب ، وسلط عليهم ريحاً قلعت أطنابهم وكفأت قدورهم ، وسفت التراب في وجوههم ، وكفى الله المؤمنين القتال .

٢ ـ موقف أبي بكر الصديق من المرتدين بعد وفاة النبي ﷺ ، فقد وقف وقفة خالدة ، نصر الله به دينه واعتز بموقفه الإسلام والمسلمون ، لقد وقف قائلاً : «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت» ، ذلك عند وفاة رسول الله ﷺ وهول الفاجعة على الصحابة حتى كان عمر بن الخطاب ينكر وفاة رسول الله ﷺ ، فلما خطبهم أبو بكر خطبته المشهورة استسلموا لأمر الله وصبروا على شدة البلاء .

وأنفذ جيش أسامة بن زيد الذي كان معسكراً خارج المدينة ، رغم اقتراح بعض الصحابة بإبقاء هذا الجيش للدفاع عن المدينة ، قال أبو بكر في صرامة وعزيمة ماضية : «والله لو جرت كلاب المدينة بأرجل أمهات المؤمنين ما حللت راية عقدها رسول الله ﷺ» وقاتل أبو بكر أهل الردة ومانعي الزكاة والمتنبئين الكذابين وفي مقدمتهم مسيلمة الكذاب[٢] .

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن كثير ، جـ٣ ، ص ٢٠٢ .

(٢) انظر البداية والنهاية جـ ٩ ص ٤٢٠ ومابعدها .

فاستقر الأمر وعاد الأمن إلى أنحاء الجزيرة العربية وبدأ بإعداد الجيوش الإسلامية لفتح بلاد فارس والروم ، ولكن عاجلته المنية قبل إتمام ذلك ، ثم تم معظم ذلك في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أيدي قادة المسلمين العظماء ، كسعد بن أبي وقاص والمثنى ابن حارثة وخالد بن الوليد وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعمرو بن العاص وغيرهم من القادة الذين خلّد ذكرهم التأريخ .

وبعدُ ، فإن الجهاد في سبيل الله مطلّب أساسي في الإسلام ، ولا تقوم للمسلمين قائمة إلا به .

**فما أفلحتْ في موكب المجد أمّة**

**إذا لم يكن دربُ الجهاد لها دَرْباَ**(١)

**الموضوع الثالث عشر : العلم حقيقته وغايته:**

**العِلْم** : العين واللام والميم أصل صحيح واحد ، يدل على أثَرٍ بالشيء يتميّز به عن غيره ، كما ذكره ابن فارس في معجم مقاييس اللغة، ثم قال : والعِلْم : نقيض الجهل ، وقياسُه قياس العَلَم والعَلاَمة ، والدليل على أنهما من قياس واحد قراءة بعض القراء(٢) ﴿وَإِنَّهُ لَعَلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾(٣) قالوا : يراد به نزول عيسى عليه السلام ، وإن بذلك يُعلم قرب الساعة :

(١) ديوان : على درب الجهاد للدكتور / زاهر الألمعي .

(٢) معجم مقاييس اللغة ، جـ٤ ، مادة ـ علم ـ .

والقراء : هم ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومجاهد والضحاك وغيرهم كما نقله أبو حيان في تفسيره ، جـ٨ ، ص ٢٦ .

(٣) سورة الزخرف ، الآية : ٦١ .

**والعِلْم** : خاصة من خواص النفس .

**والعلم** : هو معرفة المعلوم الذي من شأنه أن يُعْلم على ما هو به في الواقع كإدراك الإنسان بأنه حيوان ناطق كما يعبر عن ذلك أهل الكلام .

أما الجهل : فهو تصور الشيء على خلاف ما هو به في الواقع ، كإدراك الفلاسفة أنّ العالم ـ وهو ما سوى الله ـ قديم .

وبعضهم وصف هذا الجهل بالمركب ، وجعل البسيطَ عدمَ العلم بالشيء كعدم علمنا بما تحت الأرضين .

**والعلم : قسمان :**

١ ـ ضروري وبمعناه البَدَهِيّ ـ وهو ما يقع من غير نظر واستدلال ، كالعلم الواقع بإحدى الحواس الخمس الظاهرة وهي السمع والبصر واللمس والشم والذوق ، فإنه يحصل بمجرد الإحساس بها من غير نظر واستدلال .

٢ ـ مكتسب وبمعناه النظري : فهو الموقوف على النظر والاستدلال كالعلم بأن العالم حادث لأنه متغيّر وكل متغير حادث .

والعلم من وجه آخر ضربان : نظريّ وعملي ، فالنظري ما إذا عُلِم فقد كَمُل نحو العلم بموجودات العالم ، والعملي ما لا يتم إلا بأن يُعمل به كالعلم بالعبادات .

والعلم من وجه آخر أيضاً : ضربان سمعيّ وعقلي ، وقد تحدث العلماء عن العلم ومكانته وحقيقته وغاياته فقال صاحب بصائر ذوي

التمييز ـ في معرض ثنائه على العلم ـ ما نصه : فهو تركة الأنبياء وتراثهم ، وأهله عصبتهم وورّاثهم ، وهو حياة القلوب ، ونور البصائر وشفاء الصدور ورياض العقول ، ولذّة الأرواح ، وأنس المستوحشين ، ودليل المتميزين وهو الميزان الذي يُوزن به الأقوال والأفعال والأحوال .

وهو الحاكم المفرّق بين الشك واليقين ، والغيّ والرشاد والهدىٰ والضلال ، به يُعْرَف الله ويُعبد ، ويذكر ويوحّد ، وهو الصاحب في الغُربة ، والمحدّث في الخلوة ، والأنيس في الوحشة ، والكاشف عن الشبهة ، والغِنَىٰ الذي لا فقر على من ظفر بكنزه ، والكنف الذي لا ضيعة على من أوىٰ إلىٰ حِرْزه ، مذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه قربة ، وبذله صدقة ومدارسته تُعدل بالصيام والقيام ، الحاجة إليه أعظم من الحاجة إلىٰ الطعام والشراب ؛ لأن المرء يحتاج إليهما مرة أو مرتين في اليوم ، وحاجته إلىٰ العلم كعدد أنفاسه ، وطلبه أفضل من صلاة النافلة ، نص عليه الشافعي وأبو حنيفة ، واستشهد الله عز وجل أهل العلم علىٰ أجل مشهود وهو التوحيد وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته ، وفي ضمن ذلك تعديلهم فإنه لا يستشهد بمجروح : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١) .

ومن ها هنا يوجّه ـ والله أعلم ـ الحديث [يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ .

الجاهلين](١) . وهو حجة الله في أرضه ، ونوره بين عباده ، وقائدهم ودليلهم إلى جنته ومُدْنيهم من كرامته ، ويكفي في شرفه أنّ فَضْل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وكفضل سيد المرسلين على أدنى الصحابة منزلة ، وأن الملائكة تضع لهم أجنحتها وتُظلهم بها ، وأنّ العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر وحتى النملة في جُحْرها ، وأن الملائكة يصلون على معلمي الناس الخير ، وأمر الله أعلم العباد وأكملهم أن يسأل الزيادة من العلم فقال : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (٢) .

ثم قال : واعلم أن العلم على ثلاث درجات .

**أحدها** : ما وقع من عيانٍ وهو البصر .

**الثاني** : ما استند إلى السمع وهو الاستفاضة .

**الثالث** : ما استند إلى العلم وهو علم التجربة .

على أن طرق العلم لا تنحصر فيما ذكرناه ، فإن سائر الحواس توجب العلم ، وكذا ما يدرك بالباطن وهي الوجدانيات ، وكذا ما يدرك بالمُخْبِر الصادق وإن كان واحداً .

---

(١) هذا الحديث مرفوع إلى النبي ﷺ ، واختلف في بعض رجاله ، وقال عنه العراقي : قد ورد هذا الحديث متصلاً من رواية علي وابن عمر وابن عمرو وجابر ابن سمرة وأبي أمامة وأبي هريرة ، وكلها ضعيفة لا يثبت منها شيء وليس فيها شيء يقوي المرسل ، انظر : تدريب الراوي للسيوطي ، جـ١ ، ص ٣٠٣ .

(٢) سورة طه ، الآية : ١١٤ .

وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط ، وإن لم يكن تجربة(١) .

وذكر صاحب نزهة الأعين النواظر عن أهل التفسير أن العلم في القرآن على أحد عشر وجهاً :

**الأول : العلم** : نفسه ومنه قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(٢) .

**الثاني : الرؤية** : ومنه قوله تعالى في آل عمران : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾(٣) ، وقوله تعالى في سورة براءة : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾(٤) ، وفي سورة محمد : ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾(٥) .

**الثالث : الإذن** : ومنه قوله تعالى : ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾(٦) .

**الرابع : القرآن** : ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(٧) .

---

(١) بصائر ذوي التمييز ، جـ٤ ، ص ٩٠ ـ ٩١ .
(٢) سورة هود ، الآية : ٥ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٢ .
(٤) سورة براءة ، الآية : ١٦ .
(٥) سورة محمد ، الآية : ٣١ .
(٦) سورة هود ، الآية : ١٤ .
(٧) سورة البقرة ، الآية : ١٢٠ .

**الخامس : الكتاب** : ومنه قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾(١) .

**السادس : الرسول** : ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾(٢) .

**السابع : الفقه** : ومنه قوله تعالىٰ في الأنبياء : ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(٣) ، وفي الأنبياء أيضاً : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(٤) .

**الثامن : العقل** : ومنه قوله تعالىٰ في القصص : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾(٥) .

**التاسع : التمييز** : ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾(٦) .

**العاشر : الفضل** : ومنه قوله تعالىٰ في القصص حكاية عن قارون : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ إلىٰ قوله : ﴿إِنَّمَا

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٤٨ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٩ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٧٤ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية : ٧٩ .

(٥) سورة القصص ، الآية : ٨٠ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٦ .

أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾(١) ، قال ابن قتيبة معناه لفضل عندي ، ويروىٰ أنه كان أقرأ بني إسرائيل للتوراة(٢) .

**الحادي عشر** : ما يعده أربابه علماً وإن لم يكن كذلك ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(٣) .

وحقيقة العلم إدراك المعلوم علىٰ وجهه الصحيح سواء كان العلم سمعياً نظرياً ، أو كان عقلياً أو تجريبياً .

وغايته : إرضاء الله تعالىٰ بالعمل بشريعته وهداياته ، وإسعاد الناس بإقامة العدل والأمن والرخاء بينهم وفق منهج الله في الكون والحياة .

وسنورد نصوصاً من القرآن الكريم تتحدث عن العلم والعلماء :

قال تعالىٰ : ﴿حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٤) .

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٥) .

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾(٦) .

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٧٩ .

(٢) نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي .

(٣) سورة غافر ، الآية : ٨٣ .

(٤) سورة فصلت ، الآية : ١ ـ ٣ .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٠ .

(٦) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٣ .

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١) .

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(٢) .

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٣) .

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(٤) .

ومن الآثار الواردة عن النبي ﷺ في العلم والعلماء :

قوله ﷺ : **(من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدين)** متفق عليه(٥) .

وقال ﷺ : **(من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع)** رواه الترمذي وقال : حديث حسن(٦) .

وقال ﷺ : **(فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)**، ثم قال ﷺ : **(إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في**

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ٢٨ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٩ .

(٣) سورة المجادلة ، الآية : ١١ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٧ .

(٥) انظر : صحيح البخاري ، جـ١ ، ص ٢٤ كتاب العلم .

(٦) سنن الترمذي ، جـ٧ ، ص ٣٠١ ، أبواب العلم .

جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلّمي الناس الخير) رواه الترمذي وقال : حسن صحيح[١] .

وقال ﷺ لعلي بن أبي طالب : (فوالله لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم) متفق عليه[٢] .

وقال ﷺ : (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيّبة قبلت الماءَ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها (أجادب)[٣] أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسَقَوا وَزَرَعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي (قيعان)[٤] لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فَقهُ في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به فَعَلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هُدى الله الذي أرسلت به) متفق عليه[٥] .

وقال ﷺ : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً)[٦] .

وقال ﷺ : (نضّر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرُبّ مبلّغ أوعى من سامع)[٧] .

---

(١) سنن الترمذي ، جـ٧ ، ص ٣٢٧ .

(٢) صحيح البخاري ، جـ٣ ، ص ٥١ ، كتاب المغازي .

(٣) أجادب : هي الأرض التي لا تنبت .

(٤) قيعان : هي الأرض الملساء المستوية التي لا تمسك الماء .

(٥) صحيح البخاري ، جـ١ ، ص ٢٦ كتاب العلم .

(٦) رواه مسلم في صحيحه ، جـ٤ ، ص ٢٠٦٠ كتاب العلم .

(٧) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، سنن الترمذي جـ ٧ ص ٣٠٦ ، أبواب العلم .

وقال ﷺ : (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها)(١) .

وفي سنن الترمذي قول الرسول ﷺ : (إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعمل لله فيه حقاً فهو بأفضل المنازل .

وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرُهما سواء .

وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يتخبط في ماله بغير علم ولا يتقي فيه ربه ولا يصل رحمه ولا يعمل لله فيه حقاً فهو بأخبث المنازل .

وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح(٢) .

والعلم زكاته البيان للناس ، وقد ذم الله من أحجم عن هذا البيان فقال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾(٣) .

وقال ﷺ : (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) رواه أبو داود (٤) .

---

(١) الحديث في البخاري ومسلم ، انظر : صحيح مسلم ، جـ١ ، ص ٥٥٩ .

(٢) سنن الترمذي ، جـ٧ ، ص ٨٢ أبواب الزهد ، ورواه أحمد .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٧ .

(٤) سنن أبي داود ، جـ٣ ، ص ٣٢١ .

وجاء في فضل العلم والعلماء وتفضيلهم على الشهداء ما ورد في سنن ابن ماجه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(يشفع يوم القيامة ثلاثة، الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء)**[1] .

**الموضوع الرابع عشر : المال : حرمته ، وطرق كسبه ، وإنفاقه .**

**نظرة الإسلام إلى المال :**

الإسلام عقيدة ونظام ، **والعقيدة** : جوهرها توحيد الله تعالى وعبوديته .

**والنظام** : أساسه سعادة المجتمع وتكافله بما يحفظ حق الفرد ، ولا يتعارض مع مصلحة الجماعة .

**والمادة** : ليست هدفاً كما هو الحال في الأنظمة الرأسمالية حيث يتسلط الفرد على المجتمع ، وليست سبباً وحيداً لتفسير الحوادث كما هو الحال في الأنظمة الاشتراكية العلمية ، حيث يطغى المجتمع أو بعض فئاته على الفرد .

والمال وسيلة وليس غاية في ذاته ، وإنما هو وسيلة لتحقيق بعض الحاجات والمنافع التي لا غنى للإنسان عنها ، وهو خدمة الفرد إلى المدى الذي لا تتعارض معه مصلحة الجماعة ، دون تفريط أو إفراط .

(١) سنن ابن ماجه ، جـ٢ ، ص ١٤٤٣ ، كتاب الزهد ، وذكره بعضهم في الموضوعات ٦٤٤٥ .

وقد قامت السلع أي البضائع مقام المال حين لم يكن النقد معروفاً في التعامل الاقتصادي ، وكان التبايع يتم بتقديم بضاعة لقاء بضاعة يراد شراؤها .

والمال في الإسلام ليس مذموماً لذاته ، بل يُذم إذا اتخذ غاية لذاته .

والمال لا يقتصر على النقد من الذهب والفضة أو ما يقوم مقامهما من أوراق نقدية ، بل هو كل ما يمكن أن يقوّم بمال ، أويصلح أن ينقلب إلى مال .

كما أن الغنى بالمال ، أو كسب المال ليس له حدود ، ما دام الكسب حلالاً ، وما دام صاحبه يؤدي حق الله فيه .

**والمال** المذموم في الإسلام هو المال الذي يكون غاية لذاته ، أو يكون صاحبه حريصاً على اكتنازه وادخاره ، ومنع الآخرين من الانتفاع به بدورانه من يد إلى أخرى(١) .

ويستتبع ذلك ذم البخل والشح والتقتير ، كما أن الإسلام يذم الإسراف والتبذير ، ويدعو إلى الاعتدال في جميع الأمور .

يقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(٢) .

---

(١) انظر : كتاب منهاج الصالحين لعز الدين بليق ص ٤٧٥ وما بعدها .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٦٧ .

وقد تحدث علماء الإسلام عن المال وأوجه اكتسابه وأوجه إنفاقه ، وتحدثوا عن الأسس الاقتصادية والنظم المالية في ضوء الشريعة الإسلامية .

وأذكر على سبيل المثال كلام الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في كتابه أضواء البيان[1] عندما تحدث عن الآية السابقة فقال رحمه الله : «لا خلاف بين العقلاء أن جميع مسائل الاقتصاد على كثرتها واختلاف أنواعها راجعة بالتقسيم الأول إلى أصلين لا ثالث لهما .

**الأول منهما** : اكتساب المال .

**والثاني منهما** : صرفه في مصارفه ، وبه تعلم أنّ الاقتصاد عمل مزدوج ولا فائدة في واحد من الأصلين المذكورين إلا بوجود الآخر ، فلو كان الإنسان أحسن الناس نظراً في أوجه اكتساب المال إلا أنه أخرق جاهل بأوجه صرفه ، فإنّ جميع ما حصل من المال يضيع عليه دون فائدة ، وكذلك إذا كان الإنسان أحسن الناس نظراً في صرف المال في مصارفه المنتجة، إلا أنه أخرق جاهل بأوجه اكتسابه ، فإنه لا ينقص حسن نظره في الصرف، مع أنه لم يقدر على تحصيل شيء يصرفه ، والآيات المذكورة أرشدت الناس ونبهتهم على الاقتصاد في الصرف .

وإذا علمت أن مسائل الاقتصاد كلها راجعة إلى الأصلين المذكورين ، وأن الآية المذكورة دلت على أحدهما ، فاعلم أن الآخر

---

(١) أضواء البيان ، جـ٦ ، ص ٣٥٣ .

منهما وهو اكتساب المال أرشدت إليه آيات أخر ، دلّت على فتح الله الأبواب إلى اكتساب المال بالأوجه اللائقة كالتجارات وغيرها كقوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾(١) ، وقوله : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾(٢) ، وقوله تعالى : ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾(٣) ، والمراد بفضل الله في الآيات المذكورة ربح التجارة(٤) .

وكقوله تعالى : ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾(٥) ، وقد قدمنا في سورة الكهف في الكلام على قوله : ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾(٦) أنواع الشركات ، وأسماءها ، وبيّنا ما يجوز منها وما لا يجوز عند الأئمة الأربعة ، وأوضحنا ما اتفقوا على منعه وما اتفقوا على جوازه وما اختلفوا فيه ، وبه تعلم كثرة الطرق التي فتحها الله لاكتساب المال بالأوجه الشرعية اللائقة .

وإذا علمت مما ذكرنا أن جميع مسائل الاقتصاد راجعة إلى أصلين، هما : اكتساب المال ، وصرفه في مصارفه ، فاعلم أن كل واحد من هذين الأصلين لا بد له من أمرين ضروريين له .

الأول منهما : معرفة حكم الله فيه ؛ لأنّ الله جل وعلا لم يبح اكتساب المال بجميع الطرق التي يكتسب بها المال ، بل أباح بعض

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٩٨ . (٢) سورة الجمعة ، الآية : ١٠ .
(٣) سورة المزمل ، الآية : ٢٠ .
(٤) أرى أن يتسع المعنى، ففضل الله أوسع وأشمل من ذلك.
(٥) سورة النساء ، الآية : ٢٩ . (٦) سورة الكهف ، الآية : ١٩ .

الطرق وحرم بعضها كما قال تعالى : ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[(١)] ، ولم يبح الله جل وعلا صرف المال في كل شيء بل أباح بعض الصرف وحرم بعضه كما قال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾[(٢)] الآية .

وقال تعالى في الصرف الحرام : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾[(٣)] الآية .

فمعرفة حكم الله في اكتساب المال وفي صرفه في مصارفه أمر ضروري لا بد منه ؛ لأن من لم يعلم ذلك قد يكتسب المال من وجه حرام ، والمال المكتسب من وجه حرام لا خير فيه البتّة ، وقد يصرف المال في وجه حرام وصرفه في ذلك حسرة على صاحبه .

**الأمر الثاني** : هو معرفة الطريق الكفيلة باكتساب المال ، فقد يعلم الإنسان مثلاً أن التجارة في النوع الفلاني مباحة شرعاً ولكنه لا يعلم أوجه التصرف بالمصلحة الكفيلة بتحصيل المال من ذلك الوجه الشرعي ، وكم من متصرف يريد الربح فيعود عليه تصرفه بالخسران لعدم معرفته بالأوجه التي يحصل بها الربح ، وكذلك قد يعلم الإنسان أن الصرف المذكور ، كما هو مشاهد في المشاريع الكثيرة النفع ، إن صرف فيها المال بالحكمة والمصلحة ، فإن جواز الصرف فيها معلوم ، وإيقاع الصرف على وجه المصلحة لا يعلمه كل الناس .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٦١ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية : ٣٦ .

وبهذا تعلم أن أصول الاقتصاد الكبار أربعة :

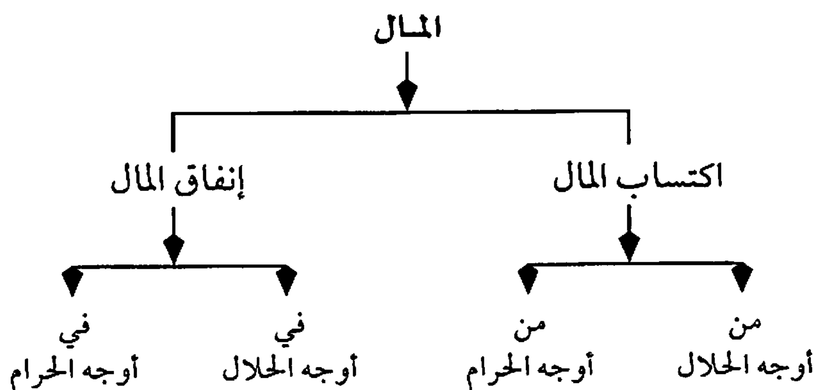
**الأول** : معرفة حكم الله في الوجه الذي يكتسب به المال ، واجتناب الاكتساب به إن كان محرماً شرعاً .

**الثاني** : حسن النظر في اكتساب المال بعد معرفة ما يبيحه خالق السموات والأرض وما لا يبيحه .

**الثالث** : معرفة حكم الله في الأوجه التي يصرف فيها المال واجتناب المحرم منها .

**الرابع** : حسن النظر في أوجه الصرف واجتناب ما لا يفيد منها .

فكل من بنى اقتصاده على هذه الأسس الأربعة كان اقتصاده كفيلاً بمصلحته وكان مرضياً لله جل وعلا ، ومن أخل بواحد من هذه الأسس الأربعة كان بخلاف ذلك ؛ لأن من جمع المال بالطرق التي لا يبيحها الله جل وعلا فلا خير في ماله ولا بركة كما قال تعالى : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[1] . ويمكن تلخيص ذلك في الشكل التالي :




(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٦ .

# قواعد النظام الاقتصادي في الإسلام

يتلخص نظام الإسلام الاقتصادي في قواعد مهمّة ، مردُّها إلى نصوص القرآن والسنة ، وما استنبطه فقهاء الإسلام من هذه النصوص مما هو مدوّن في كتب الفقه الإسلامي ، وبخاصة كتب الاقتصاد وأبواب المال ، ويمكن أن نلخص هذه القواعد فيما يلي :

١ ـ اعتبار المال الصالح قوام الحياة ، ووجوب الحرص عليه ، وحسن تدبيره وتثميره .

٢ ـ إيجاب العمل والكسب على كل قادر .

٣ ـ الكشف عن منابع الثروات الطبيعية ، ووجوب الاستفادة من كل ما في الوجود من قوى ومواد .

٤ ـ تحريم موارد الكسب الخبيث .

٥ ـ الضمان الاجتماعي لكل مواطن وتأمين حياته والعمل على راحته وإسعاده .

٦ ـ الحث على الإنفاق في وجوه الخير ، وافتراض التكافل بين المواطنين ووجوب التعاون على البر والتقوى .

٧ ـ تقرير حرمة المال ، واحترام الملكية الخاصة ما لم تتعارض مع المصلحة العامة .

٨ ـ تنظيم المعاملات المالية بتشريع عادل رحيم ، وليس أعدل ولا أعلم بمصالح العباد من اللطيف الخبير الذي شرع للناس أنظمة الحياة والتعامل في ظل شريعته الخالدة .

٩ ـ تقرير مسؤولية الدولة في حماية هذا النظام المالي الإسلامي[١] .

فالمال الصالح قوام الحياة ، وما ورد في ذم الدنيا والمال والغنى والثروة ، إنما يراد به ما يدعو إلى الطغيان والفتنة والإسراف ، ويستعان به على الإثم والمعصية والفجور وكفران النعمة ، وفي الحديث (**نعم المال الصالح للرجل الصالح**)[٢] ، وفي الآية الكريمة : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[٣] .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال في غير وجهه فقال : (**إن الله ينهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال**)[٤] .

كما أنّ من مات مدافعاً عن ماله فهو شهيد كما جاء في الحديث الصحيح (**من قُتل دون ماله فهو شهيد**) متفق عليه[٥] .

والعمل واجب على كل قادر لتحسين الإنتاج والكسب الشريف ومنع البطالة في المجتمع قال ﷺ : (**ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من**

---

(١) انظر هذه القواعد في كتاب مشكلاتنا لحسن البنا ، ص ٣٩١ .
(٢) مسند الإمام أحمد ، جـ٤ ، ص ١٩٧ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٥ .
(٤) انظر : صحيح البخاري ، جـ٤ ، ص ٤٨ كتاب الأدب .
(٥) انظر : صحيح مسلم ، جـ١ ، ص ١٢٥ كتاب الإيمان .

**أن يأكل من عمل يده وإن نبيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)**(١) .

أما الكشف عن منابع الثروات :

فإنّ الله تعالىٰ أخبر أنه سخّر للناس كل ما في هذا الكون من منابع الثروات ومصادر الخير ، وحثهم علىٰ الاستفادة منها واستغلالها ، فقال تعالىٰ : **﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾**(٢) .

وقال تعالىٰ : **﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**(٣) .

وتحريم الكسب الخبيث ، لما فيه من أخذ المال بغير حق مشروع ، ومنها أخذ المال بغير مقابل من عمل : كالربا والقمار واليانصيب ونحوها ، أو بغير حق ، كالنّصب والسرقة والغش ونحوها ، أو كان ثمناً لمحرّم : كثمن الخمر والخنزير والمخدّر ونحوها ، فكل هذه الموارد للكسب لا يبيحها الإسلام ولا يعترف بها .

وشرع الضمان الاجتماعي في الإسلام ممثلاً في الزكاة بأجلىٰ صوره ، وفيما يكون من الصدقات الأخرىٰ والكفارات وفيما يلتزم به

---

(١) صحيح البخاري ، جـ٢ ، ص ٦ كتاب البيوع .
(٢) سورة لقمان ، الآية : ٢٠ .
(٣) سورة الجاثية ، الآية : ١٣ .

بيت المال تجاه العاجزين عن العمل بأسباب قهرية ونحوها ، فلقد مر عمر بن الخطاب على يهودي يتكفف الناس ، فزجره عمر ، واستفسر عمّا حمله على السؤال ، فلما تحقق من عجزه رجع على نفسه باللائمة وقال له : «ما أنصفناك يا هذا ، أخذنا منك الجزية قوياً وأهملناك ضعيفاً ، أفردوا له من بيت المال ما يكفيه» .

إن المتأمل في نصوص الكتاب والسنة ، يجدها قد تحدثت عن المال باستفاضة تامة ، ويمكن أن نصنف الآيات التي تحدثت عن المال ووردت في اكتسابه وفي إنفاقه إلى ما يلي :

(أ) الآيات التي تحدثت عن المال من حيث هو : ومنها الآيات التالية : قال تعالى : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾(١) .

وزينة الحياة الدنيا مباحة مرغوبة إذا لم تشغل عن طاعة الله ، قال تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ

(١) سورة الكهف ، الآية : ٤٦ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٣٢ .

إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(٢) .

ومثل هذه الآيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾(٤) .

(ب) الآيات الدالة على اكتساب المال من طرق الحلال : ومنها قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾(٥) .

وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾(٦) .

وقوله تعالى : ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾(٧) .

(١) سورة النحل ، الآية : ٥ ـ ٨ .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٨ ـ ٢٠ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٦ .
(٤) سورة نوح ، الآية : ١٢ .
(٥) سورة البقرة ، الآية : ١٩٨ .
(٦) سورة الجمعة ، الآية : ١٠ .
(٧) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٥ .

(جـ) الآيات الدالة على اكتساب المال من وجه الحرام ، ومنها ما يلي :

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾(٤) .

(د) الآيات الدالة على الإنفاق في الوجوه الممنوعة ، ومنها قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾(٥) .

وقوله : ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾(٦) .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٢٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٨٨ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ١٠ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٨ .

(٥) سورة الأنفال ، الآية : ٣٦ .

(٦) سورة النساء ، الآية : ٥ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾(١) .

(هـ) الآيات الدالة على الإنفاق في وجوه الخير والنفقات الواجبة وهي كثيرة . ومنها قوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(٥) .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(٦) .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٢٧ .
(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٠٣ .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ٦٠ .
(٤) سورة النور ، الآية : ٣٣ .
(٥) سورة الحديد ، الآية : ٧ .
(٦) سورة المعارج ، الآية : ٢٤ ، ٢٥ .

وقال تعالى : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾(١) .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(٢) .

هذه الموازين القرآنية في اكتساب المال وفي إنفاقه ، أنزلها الله نوراً وهداية للإنسانية لتسير في المال على منهج واضح مستقيم ، وتبني أسسها الاقتصادية على هذا الطراز المقدس من كلام الله تعالى العليم بأحوال الناس وما يصلحهم في معاشهم ومعادهم ، وإنه لينبغي أن يحذر المسلم من تخبطه في هذه الأموال بغير هدىً من الله تعالى ؛ لأن المال مال الله ، قال رسول الله ﷺ : **(إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة)** . رواه البخاري(٣) .

وقد رغّب الإسلام في العمل ، واكتساب المال من طرق الحلال «فإن الله يُحب العبد المحترف ، ومن كدَّ على عياله كان كالمجاهد في سبيل الله عز وجل» كما جاء في الأثر .

وقد تقدم قول النبي ﷺ كما في صحيح البخاري : **(ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)** (٤) .

---

(١) سورة الطلاق ، الآية : ٧ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٦٧ .

(٣) صحيح البخاري ، جـ٢ ، ص ١٩٢ فرض الخمس .

(٤) تقدم ص ٣٩٣ من هذا الكتاب .

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : (**كان زكريا عليه السلام نجّاراً**)(١) ، وصنع نوح عليه السلام السفينة كما قص الله ذلك في القرآن الكريم ، وكان داود عليه السلام يصنع الدروع كما أشار الله إلىٰ ذلك بقوله : ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ**﴾(٢) .

كما كان أخوال النبي ﷺ يقال لهم بنو النجار ، وبالجملة فإن اكتساب المال بأي وجه من وجوه الاكتساب الشريفة كالعمل والتجارة والصناعة والزراعة مما دعت إليه الشرائع ، وجعلته قواماً للحياة وميداناً للنشاط البشري فوق هذه البسيطة .

**الموضوع الخامس عشر : عالمية الدعوة الإسلامية في القرآن الكريم .**

**تعريف الدعوة :** لها عدة تعاريف منها :

**أن يقال :** هي الإسلام من حيث المبادئ ، والقيام بنشره وجذب الناس إليه من حيث الوسائل والأساليب .

**وقيل :** الدعوة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(٣) .

**وقيل :** هي دين الله الذي ارتضاه للعالمين تمكيناً لخلافتهم ، وتيسيراً لضرورتهم ، ووفاء بحقوقهم ، ورعاية لشئونهم ، وحماية لوحدتهم ، وتكريماً لإنسانيتهم ، وإشاعة للحق والعدل فيما بينهم .

---

(١) صحيح مسلم ، جـ٤ ، ص ١٨٤٧ . (٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٨٠ .
(٣) الدعوة فريضة إسلامية للدكتور / صادق أمين ، ص ٣٩ .

وقيل : هي الضوابط الكاملة للسلوك الإنساني ، وتقرير الحقوق والواجبات .

وهي قبل ذلك وبعده : الاعتراف بالخالق ، والبر بالمخلوق[١] .

ولعلّ التعريف الأول أشمل وأوجز .

**الحكمة من تعدد الرسل :**

لما كانت أمم الأرض في القرون الأولى على شكل شعوب وقبائل متفرقة منعزلة عن بعضها في نواحي الأرض ، وكانت هذه الشعوب والقبائل بحاجة ماسة إلى منبّه ينبهها ، ومنذر ينذرها ، ومصلح يهذّبها ، فقد اقتضت حكمة الله ، وهو الحكيم الخبير ، أن يرسل إلى هذه الأمم في قراها وبواديها وحواضرها المنعزلة رسلاً مبشرين ومنذرين ؛ لئلا يكون لهم حجة بالجهل والغفلة ، وكان هؤلاء الرسل بمثابة السفراء الذين يحملون مهمة واحدة ذات أسس ومبادئ واحدة ، فيمثلون إرادة مرسلهم بها ، ويبلغون كتبه ويؤدون رسالته .

**وحدة الرسالات السماوية في أصولها :**

من الواضح أنّ أسس رسالات الرسل ومبادئ دعوتهم واحدة ؛ لأنهم رُسل مُرْسِل واحد ، فلا خلاف في العقائد التي دعوا إليها وأهمها عقيدة التوحيد ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٢] .

---

(١) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية للشيخ محمد الراوي ، ص ٣٠ .

(٢) سورة النحل ، الآية : ٣٦ .

كما أنه لا خلاف في روح العبادات التي أمروا بها، ولا في مبادئ التعامل المادي والأخلاقي والسياسي التي نادوا بها ، وما نراه الآن من البون الشاسع في المعتقدات بين أتباع رسالاتٍ سماوية صحيحة الأصل، فإنما يرجع ذلك إلىٰ التحريف والتبديل الذي دخل إلىٰ مبادئ الديانات الأخرىٰ ، من أتباع ذوي غايات سيئة حرّفوا وبدلوا وفق شهواتهم وأغراضهم الخاصة ، قال تعالىٰ في أصل هذه الديانات وتلاقيها في الأصول الصحيحة : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾(١) .

ولو أنّ هذه الديانات السابقة بقيت علىٰ أصولها من غير تحريف، لالتقىٰ متّبعوها بصدق ، مع المسلمين التقاءً تاماً ، ولكان أتباع الديانات السماوية كلهم ملة حنيفية واحدة ، تعمل بالمنهاج الشرعي الذي ختم الله به رسالات السماء وأنزله علىٰ محمد ﷺ .

ولئن كنا نرىٰ بعض الاختلاف في أحكام الشرائع السماوية من رسالة إلىٰ أخرىٰ في الحلال والحرام، وفي صور العبادات بحسب أصولها الصحيحة ، فإنما يرجع ذلك إلىٰ الحكمة الدقيقة في موافقة وضع كل أمة لأساليب تربيتها وإصلاحها ، وامتحان طاعتها وامتثالها

(١) سورة الشورىٰ ، الآية : ١٣ ، ١٤ .

لأمر الله ونواهيه ، وذلك بالنظر إلىٰ بيئة تلك الأمم ومستوىٰ عاداتها وتقاليدها وثقافتها ، وبالنظر إلىٰ سرعة تطورها من وضع إلىٰ آخر بحسب مستوىٰ تخلفها الفكري والاجتماعي والخلقي . يضاف إلىٰ ذلك أن صور العبادات الممكنة في الاحتمال العقلي كثيرة ، ولا بد من تحديد بعضها ليتوجه به التكليف الإلهي ، ولله تعالىٰ أن يختار منها في تكليف عباده ما يشاء في حدود استطاعتهم ، وله أن يستبدل غيره به في الشريعة الواحدة ، أو يجعل في إحدىٰ الشرائع صورة منها وفي شريعة أخرىٰ صورة أخرىٰ ، فكثير من صور التكاليف متساوية من حيث اختبار المكلف في طاعته أو معصيته ، ولا حجر علىٰ الباري تعالىٰ في اختيار بعضها دون بعض ، أو في التنويع في الاختيار بين الشرائع أو في النسخ والتبديل في شريعة واحدة .

وعلىٰ المكلف في كل ذلك أن يلتزم الصور التي حددها الله له وشرعها أمراً أو نهياً ؛ حتىٰ يكون أهلاً لما منحه الله من عقل وإرادة وقدرة علىٰ العمل في مجال الابتلاء في الحياة الدنيا .

وتستمد عالمية الدعوة الإسلامية أدلتها من مصادر متعددة أهمها الكتاب والسنة :

فقد قرر القرآن الكريم ذلك في عدد من الآيات ، ومنها ما يلي :

١ ـ قوله تعالىٰ : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾(١) .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ١ .

٢ ـ قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١) .

٣ ـ قوله تعالىٰ : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾(٢) .

٤ ـ قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾(٣) .

٥ ـ قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾(٤) .

٦ ـ قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾(٥) .

٧ ـ قوله تعالىٰ : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(٦) .

٨ ـ قوله تعالىٰ : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾(٧) .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٧ .

(٢) سورة ص ، الآية : ٨٧ ، ٨٨ ، فسّر بعض العلماء قوله تعالىٰ : ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي بعد الموت أو يوم بدر . . إلخ ، ولا أرىٰ مانعاً أن تكون إشارة إلىٰ صدق القرآن وظهور معجزاته عبر القرون في الأنفس والآفاق ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فصّلت ، الآية : ٥٣ .

(٣) سورة سبأ ، الآية : ٢٨ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٢٨ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٨ .

(٦) سورة يس ، الآية : ٦٩ ، ٧٠ .

(٧) سورة الأنعام ، الآية : ١٩ .

ومن السنة ما ورد من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال : **(أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي .. ومنها) (وكان النبي يبعث في قومه خاصة وبُعِثتُ إلى الناس عامة)** رواه البخاري وغيره[١] .

وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : **(والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)** رواه مسلم[٢] .

وإذا صرّح باليهود والنصارى ـ وهم أهل الكتاب ـ فغيرهم من باب أولى .

وهذا يدل على عموم دعوة الإسلام وشمولها للعالمين .

ومن الدلائل على عموم رسالة الإسلام وشمولها : رسائل وكتب الرسول ﷺ إلى الملوك والحكام ، وقد ثبت أن الرسول ﷺ لما رجع من الحديبية كتب إلى ملوك الأرض ، وأرسل إليهم رسله يدعوهم إلى الإسلام ، فقد أرسل إلى النجاشي ملك الحبشة ، وأرسل إلى قيصر ملك الروم ، واسمه «هرقل» ، وقد بعث إليه النبي ﷺ دحية الكلبي ، كما أرسل إلى أسقف الروم بالقسطنطينية ، وبعث إلى أساقفة نجران ، كما بعث إلى «المقوقس» عظيم القبط . . وقد بعث إليه حاطب بن أبي بلتعة ، وكتب إلى كسرى «إبرويز» عظيم فارس ، كما كتب ﷺ إلى «الهرمزان» عامل كسرى ، وبعث إلى المنذر بن ساوى العبدي ، عامل كسرى على البحرين .

---

(١) صحيح البخاري ، جـ١ ، ص ٧٠ كتاب التيمم .

(٢) صحيح مسلم ، جـ١ ، ص ١٣٤ كتاب الإيمان .

وبعث إلى ملوك «عمان» ومن كان منهم بالبحرين ، كما كتب إلى أهل اليمن كتاباً عاماً وكتب ﷺ إلى يهود خيبر وغير ذلك من الكتب والرسائل والوفود التي كان ﷺ يتعهد بها الأقطار في سبيل إبلاغ دعوة الإسلام إليهم ، لأن هذا الدين هو الدين القيّم الذي ارتضاه الله لعباده، ووضع فيه من كنوز المعرفة ، وأسرار الحق ، وأصول العدل ، ومناهج الخير ، وضوابط السلوك ، وقواعد الهداية والتشريع ما ينطق بأنه الدين الحق ، وأنّ رسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات ؛ لأنها اشتملت واستوعبت حاجات البشر بما ينير لهم الطريق ، ويفتح لهم الآفاق ويصلهم بالله في جميع حركات الكون والحياة .

وبعد : فهذه لمحات موجزة ، وموضوعات متفرقة جُمعت بين يدي التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، والله أسأل أن يجعل العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

# فهرس المصادر والمراجع

## أولاً : القرآن وعلومه :


| اسم الكتاب | اسم المؤلف | مكان وتاريخ الطبعة |
|---|---|---|
| ١. أحكام القرآن | ابن العربي | عيسى البابي الحلبي بالقاهرة |
| ٢. استخراج الجدال من القرآن | ناصح الدين بن الحنبلي تحقيق | |
| | د/زاهر الألمعي | ط الفرزدق بالرياض ١٤٠١هـ |
| ٣. إصلاح الوجوه والنظائر | الحسن بن محمد الدامغاني | ط دار العلم للملايين بيروت |
| ٤. أضواء البيان | محمد الأمين الشنقيطي | ط المدني بالقاهرة |
| ٥. أهداف كل سورة ومقاصدها | د/ عبدالله شحاتة | ط الهيئة المصرية العامة للكتاب |
| ٦. البحر المحيط | أبو حيان الأندلسي | ط النصر الحديثة بالرياض |
| ٧. البرهان في علوم القرآن | محمد بن عبدالله الزركشي | ط عيسى البابي الحلبي بالقاهرة |
| ٨. البرهان في توجيه متشابه القرآن | محمود بن حمزة الكرماني | ط دار الاعتصام بالقاهرة ١٣٩٨هـ |
| ٩. بصائر ذوي التمييز في لطائف | | |
| الكتاب العزيز | للفيروز أبادي | ط الإعلانات الشرقية بالقاهرة |
| ١٠. تفسير القرآن العظيم | ابن كثير | ط التجارية الكبرى بالقاهرة |
| ١١. التفسير بين الماضي والحاضر | د/ عبد الله شحاتة | دار الاعتصام بالقاهرة |
| ١٢. التفسير الموضوعي | د/ محمد القاسم | ط القاهرة ١٤٠١هـ |
| ١٣. الإتقان في علوم القرآن | للسيوطي | ط المشهد الحسيني بالقاهرة |
| ١٤. تناسق الدرر | للسيوطي | ط دار الاعتصام بالقاهرة ١٣٩٨هـ |
| ١٥. جامع البيان في تفسير القرآن | محمد بن جرير الطبري | دار المعارف بالقاهرة ط الحلبي بالقاهرة |

| اسم الكتاب | اسم المؤلف | مكان وتاريخ الطبعة |
|---|---|---|
| ١٦. الجامع لأحكام القرآن | القرطبي | ط دار الكتب الوطنية بالقاهرة |
| ١٧. دراسات في علوم القرآن | د/ عبدالغني الراجحي | مخطوطة بالقاهرة |
| ١٨. زاد المسير في علم التفسير | ابن الجوزي | ط المكتب الإسلامي بيروت ١٣٨٤هـ |
| ١٩. الأشباه والنظائر | مقاتل بن سليمان البلخي | ط الهيئة العامة للكتاب ١٣٩٥هـ |
| ٢٠. الصبر في القرآن | يوسف القرضاوي | ط مكتبة وهبة ١٣٩٧هـ بالقاهرة |
| ٢١. طبقات المفسرين | للداودي | ط الاستقلال الكبرى بالقاهرة |
| ٢٢. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير | محمد علي الشوكاني | ط مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة |
| ٢٣. في ظلال القرآن | سيد قطب | ط دار الشروق بيروت |
| ٢٤. القرآن الكريم | محمود شلتوت | ط دار الشروق ١٣٩٤هـ |
| ٢٥. الكشاف | الزمخشري | ط مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة |
| ٢٦. محاسن التأويل | محمد جمال الدين القاسمي | ط عيسى البابي الحلبي ١٣٧٩هـ |
| ٢٧. مدخل إلى القرآن | محمد عبد الله دراز | ط دار القلم بيروت |
| ٢٨. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم | محمد فؤاد عبد الباقي | ط دار الكتب المصرية |
| ٢٩. مفاتيح الغيب | فخر الدين الرازي | ط الهيئة المصرية بالقاهرة |
| ٣٠. المفردات في غريب القرآن | الراغب الأصفهاني | ط مصطفى البابي الحلبي |
| ٣١. مناهج الجدل في القرآن الكريم | د/ زاهر الألمعي | ط الفرزدق ١٤٠٤هـ الرياض |
| ٣٢. منهج ابن القيم في التفسير | محمد أحمد السنباطي | ط مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٣هـ |
| ٣٣. مناهل العرفان | للزرقاني | ط عيسى البابي الحلبي بالقاهرة |
| ٣٤. النبأ العظيم | محمد عبد الله دراز | ط السعادة بالقاهرة ١٣٨٩هـ |

| اسم الكتاب | اسم المؤلف | مكان وتاريخ الطبعة |
|---|---|---|
| ٣٥. نزهة الأعين النواظر | ابن الجوزي | ط دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد |
| ٣٦. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور | للبقاعي | ط دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد |
| ٣٧. الوحي المحمدي | محمد رشيد رضا | ط المكتب الإسلامي ببيروت |
| ٣٨. إيجاز البيان في سور القرآن | محمد علي الصابوني | ط مكتبة الغزالي القاهرة ١٣٩٩هـ |

## ثانياً : كتب الحديث ورجاله :

| | | |
|---|---|---|
| ٣٩. تدريب الراوي | للسيوطي | ط دار الكتب الحديثة بمصر ١٣٨٥هـ |
| ٤٠. سنن أبي داود | أبو داود | ط دار إحياء السنة النبوية بالقاهرة |
| ٤١. سنن الترمذي | الحافظ أبو عيسى الترمذي | ط المطبعة الوطنية بحمص ١٣٨٥هـ |
| ٤٢. سنن الدارمي | عبد الله بن عبدالرحمن الدارمي | دار الفكر |
| ٤٣. سنن ابن ماجه | الحافظ ابن ماجه | ط عيسى البابي الحلبي ١٣٧٢هـ |
| ٤٤. شعب الإيمان | للحافظ البيهقي | مخطوطة بالقاهرة |
| ٤٥. صحيح البخاري بحاشية السندي | محمد بن إسماعيل البخاري | ط عيسى البابي الحلبي بالقاهرة |
| ٤٦. صحيح مسلم | مسلم بن الحاج النيسابوري | ط عيسى البابي الحلبي بالقاهرة |
| ٤٧. مستدرك الحاكم | للحاكم النيسابوري | ط مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب |
| ٤٨. مسند الإمام أحمد | أحمد بن حنبل | ط المكتب الإسلامي دار صادر بيروت |
| ٤٩. منهاج الصالحين | عز الدين بليق | ط دار الفتح بيروت |
| ٥٠. النهاية في غريب الحديث | ابن الأثير | ط عيسى البابي الحلبي ١٣٨٣هـ |

## ثالثاً : كتب الفقه وأصوله :

| | | |
|---|---|---|
| ٥١. إعلام الموقعين | ابن القيم | ط مكتبات الكليات الأزهرية ١٣٨٨هـ |
| ٥٢. حجة الله البالغة | للإمام الدهلوي | ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة |

| اسم الكتاب | اسم المؤلف | مكان وتاريخ الطبعة |
|---|---|---|
| ٥٣.الرسالة | الإمام الشافعي | ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٨هـ |
| ٥٤. مجموع فتاوى ابن تيمية | جمع عبدالرحمن بن قاسم | ط مطابع الرياض ١٣٨٢هـ |
| ٥٥.المغني | لابن قدامة | ط مطبعة الإمام بالقاهرة |

## رابعاً : كتب العقيدة والفلسفة والمنطق :

| | | |
|---|---|---|
| ٥٦.أصول التوحيد في القرآن | د/ محمد صالح | مخطوط |
| ٥٧. إظهار الحق | رحمة الله الهندي | ط الشئون الدينية بدولة قطر |
| ٥٨. إيضاح الدلالة في علوم الرسالة | لابن تيمية | ط مكتبة الرياض الحديثة |
| ٥٩. دره تعارض العقل والنقل | ابن تيمية | ط جامعة الإمام محمد بن سعود الرياض |
| ٦٠.العقيدة الإسلامية وأسسها | عبدالرحمن حبنّكه الميداني | ط دمشق ١٣٨٥هـ |
| ٦١. عالم الملائكة الأبرار | عمرسليمان الأشقر | ط مكتبة الفلاح بالكويت |
| ٦٢.الكشف عن مناهج الأدلة | ابن رشد | ط المكتبة المحمدية بالقاهرة ١٣٨٨هـ |
| ٦٣. مدارج السالكين | ابن القيم | ط السنة المحمدية بالقاهرة ١٣٧٥هـ |
| ٦٤.الملل والنحل | الشهرستاني | ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٧هـ |
| ٦٥.المنقذ من الضلال | الغزالي | ط دار النصر للطباعة بالقاهرة ١٣٨٥هـ |
| ٦٦.النبوة والأنبياء | أبو الحسن الندوي | ط الاستقلال الكبرى بالقاهرة ١٣٩٠هـ |
| ٦٧.النبوة والأنبياء | محمد علي الصابوني | ط دار الإرشاد بيروت |
| ٦٨.الوحدانية والتوحيد | د/ عبدالستار السعيد | مخطوط |

## خامساً : كتب التأريخ والتراجم والسير والثقافة :

| | | |
|---|---|---|
| ٦٩.البداية والنهاية | ابن كثير | ط الفجالة الجديدة بمصر |
| ٧٠.تاريخ الخلفاء | السيوطي | ط السعادة بمصر ١٣٧١هـ |
| ٧١. جامع بيان العلم وفضله | ابن عبد البر | ط العاصمة بالقاهرة ١٣٨٨هـ |

| اسم الكتاب | اسم المؤلف | مكان وتاريخ الطبعة |
|---|---|---|
| ٧٢. حلية الأولياء | أبو نعيم الأصفهاني | ط دار الكتاب العربي بيروت |
| ٧٣. الدعوة الإسلامية دعوة عالمية | محمد الراوي | ط دار العربية للطباعة بيروت |
| ٧٤. الدعوة فريضة إسلامية | صادق أمين | ط المطابع التعاونية عمان |
| ٧٥. زاد المعاد | ابن القيم | ط جامعة الإمام محمد بن سعود |
| ٧٦. السيرة النبوية | ابن كثير | ط عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٣٨٤هـ |
| ٧٧. شذرات الذهب | ابن العماد الحنبلي | ط المكتب التجاري بيروت |
| ٧٨. الشفا بتعريف حقوق المصطفى | القاضي عياض | ط دار الفكر بيروت |
| ٧٩. الإصابة في تمييز الصحابة | ابن حجر العسقلاني | ط دار النهضة بمصر |
| ٨٠. قصص الأنبياء | ابن كثير | ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة |
| ٨١. مشكلاتنا | حسن البنا | ط ضمن مجموعة رسائل حسن البنا |
| ٨٢. مفتاح السعادة | طاش كبرى زاده | ط دار الكتب الحديثة |

## سادساً: كتب اللغة والمعاجم:

| اسم الكتاب | اسم المؤلف | مكان وتاريخ الطبعة |
|---|---|---|
| ٨٣. أساس البلاغة | الزمخشري | ط دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ |
| ٨٤. القاموس المحيط | الفيروز آبادي | ط مؤسسة الحلبي القاهرة |
| ٨٥. المصباح المنير | الفيّومي | ط المطبعة الأميرية بالقاهرة |
| ٨٦. معجم مقاييس اللغة | ابن فارس | ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٩هـ |

# فهـــرس الكتـــاب

**الموضـــوع** **الصفحة**

**الموضـوع** **الصفحة**

| الموضـوع | الصفحة |
|---|---|

الموضوع الصفحة

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة